مُقدّمة

الفقه الأرقى
فی شرح العروة الوثقی

المرجع الأكبر الفقيه المجدد الإمام العلامة

آية الله العظمى عبدالكريم الزنجاني

المحقق: علی رضا مهران فر

مقدمة «الفقه الأرقی فی شرح العروة الوثقی» الإمام عبدالكريم الزنجاني

المحقق: علی رضا مهران فر

إن هذا الكتاب هو الأول من نوعه فی علم الفقه الإسلامی الذی يشتمل علی الموضوعات المتنوعة فی الفقه و فلسفته و المباحث المرتبطة بالفقه كالاخلاق و الكلام الجديد و فلسفة الدين و الاجتماع و السياسة و التربية و غيرها، فإنه الوحيد فی أقداره العلمية الفذة التی قدهيّأت له الإحاطة بالعلوم العقلية و النقلية بأسرهـا، و بدقائق أسرار التشريع، كما هيأت له التعرض بما كان متروكاً فی كتب علم الفقه فی محيط الجمود ما يقنع المطالع بأن هذا الكتاب هو عصارة دراسات التشريع الإسلامی و أسراره المخزونة؛ و يتيح له أن يدرک أن علم الفقه قدتزحزح عن موقفه الجامد المحاط بظروف التقية و التقليد و المجاملة و البيئة القاهرة، الذی جعله هدفاً للأنتقاد فی القرون الأخيرة و أوجب انحطاط المسلمين.

و ايضاً يعتبر هذا الكتاب جزءاً راقياً من تأريخ الفقه الإسلامی و كماله و تطوّره و مفتاحاً لتجديد اسلوب التأليف، و يوجد فی مواضيعه آراء جديدة و أفكار أبكار فی تصوير الحقائق الإسلامية علی لوحة التشريح و التحليل فی ضوء الأدلة الشرعية و العقلية لم يسبقه إليها سابق فيما نعلم، و كثير منها تحف لم تفتق رتق سمع و لم يدرس مثلها فی جمع، و فی بعضها يحس القارئ أن ضوءاً جديداً قد سطع علی موضوعات قديمة مألوفة...

بسم الله الرحمن الرحيم

مشخصات نشر : قم: کتاب آشنا، ۱۴۰۲.
مشخصات ظاهری: ۱۹۲ ص.
شابک: ۱-۰۷-۸۱۸۵-۶۲۲-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت: زبان: عربی.
یادداشت: کتاب حاضر شرحی بر کتاب «عروه‌الوثقی» تالیف محمد کاظم یزدی است.
موضوع: یزدی، سیدمحمد کاظم بن عبدالعظیم، ۱۲۴۷؟ - ۱۳۳۸؟ ق . عروه‌الوثقی -- نقد و تفسیر
موضوع: فقه جعفری -- قرن ۱۴ Islamic law, Ja'fari -- ۲۰th century
شناسه افزوده: مهران‌فر، علیرضا، ۱۳۵۰ -
شناسه افزوده: یزدی، سیدمحمد کاظم بن عبدالعظیم، ۱۲۴۷- ۱۳۳۸ق . العروه‌الوثقی.شرح
رده بندی کنگره: BP۱۸۳/۵
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۳۴۲
شماره کتابشناسی ملی : ۹۵۱۶۹۴۶
اطلاعات رکورد کتابشناسی: فیپا

مقدمة

الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى

الامام المجاهد و المصلح الاكبر و حجة الاسلام الكبرى

و المرجع الدينى الاعلى سماحة العلامة الشيخ عبدالكريم الزنجانى النجفى

مع ملخّص من مقدّمة الاستاذ سماحة الدكتور الصدوقى سها على دروس الفلسفة

حققه و علّق عليه: علی‌رضا مهران‌فر

مقدمة

الفقه الارقی فی شرح العروة الوثقی

تألیف:	الشیخ عبدالکریم الزنجانی الغروی
تحقیق:	علی‌رضا مهران‌فر
ناشر:	کتاب آشنا
طراح جلد:	علی‌رضا رحمانی
چاپ:	وثوق
تاریخ چاپ / نوبت:	اول / ۱۴۰۲
شابک:	۹۷۸-۶۲۲-۸۱۸۵-۰۷-۱
شمارگان:	۱۰۰۰
قیمت:	۲۷۵۰۰۰ تومان

آدرس: تهران / میدان انقلاب / خیابان کارگر جنوبی / خیابان شهید وحید نظری / بن‌بست بختیاری / پلاک ۱

تلفن: ۶۶۴۰۴۱۸۷ (۹۸۲۱) / همراه: ۹۱۲۸۸۸۲۸۹۷ (۹۸)

حقوق مادی و معنوی چاپ و نشر
برای انتشارات کتاب آشنا محفوظ است.

جمیع الحقوق محفوظة لا یسمح بإعادة إصدار هذا الکتاب أو أیّ جزء منه أو تخزینه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأیّ شکل من الأشکال دون إذن خطّي سابق من الناشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced ، stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing from the publisher.

تمشی الکرام علی آثار غیرهم و انت تخلـق ما تأتـی و تبتـدع

الامام المجاهد و المصلح الاکبر و حجة الاسلام الکبری

و المرجع الدینی الاعلی سماحة العلامة الشیخ عبدالکریم الزنجانی النجفی ره

مقدمة

الفقه الأرقى فى شرح العروة الوثقى

مشتملة على المباحث البديعة فى الفقه و فلسفته و تأريخه،
و المباحث المرتبطة بالفقه، فى العقائد و الكلام الجديد و فلسفة الدين
و الاجتماع و السياسة و الحكومة و الاخلاق و التربية و الآداب و ...

الامام المجاهد و المصلح الاكبر و حجة الاسلام الكبرى
و المرجع الدينى الاعلى سماحة العلامة الشيخ عبدالكريم الزنجانى النجفى

صححه و حققه و علّق عليه: علىرضا مهرانفر

الفهرس الاجمالی

(۱) ملخص من مقدمة الاستاذ الصدوقی« سها» علی کتاب « دروس الفلسفة» ۱۹

(۲) الامام الزنجانی من هو؟ ۲۵

(۳) کلمة الناشر فی الطبعة الثانیة ۳۹

(۴) کلمة ناشر الطبعة الاولی ۴۳

کلمة المؤلف ۴۷

مقدمة فی بیان مقصد اساسی اهم ۴۹

المطلب الاول: فقه الاسلام و علوم الحیاة ۵۳

المطلب الثانی: الاسلام هو المثل الاعلی للدین– المثُل العلیا ۶۵

المطلب الثالث: الاسلام دین الفطرة الانسانیة ۷۱

المطلب الرابع: الاساس لفهم اصول الاسلام و استنباط فروعه ۷۵

المطلب الخامس: نشوء الفقه الاسلامی و ارتقائه ۷۹

المطلب السادس: التربیة الاسلامیة و مراحلها ۸۵

المرحلة الاولی: الوراثة ۸۵

المرحلة الثانية: بداية التربية من البيت و الابوين ٨٩
المرحلة الثالثة: واجبات المربى ٩١
– نبذة من الآداب الشرعية ٩٥
المطلب السابع: التعليم فى الاسلام ١٢٣
المطلب الثامن: الاخلاق الاسلامية ١٣٣
المطلب التاسع: الاقتصاد الاسلامى ١٤٥
المطلب العاشر: السياسة فى الاسلام ١٦١
المطلب الحادى عشر: الاجتماع فى الاسلام ١٦٧
المطلب الثانى عشر: الاجتهاد و التقليد فى القران و السنة ١٧٥
– فائدة مهمة فى بيان الولاية ١٨١

الفهرس التفصيلی

(۱) ملخص من مقدمة الاستاذ الصدوقی«سها» علی کتاب «دروس الفلسفة» للزنجانی ۱۹
(۲) الامام الزنجانی من هو؟ ۲۵
(۳) کلمة الناشر فی الطبعة الثانیة ۳۹
(۴) کلمة ناشر الطبعة الاولی ۴۳
کلمة المؤلف ۴۷
مقدمة فی بیان مقصد اساسی اهم ۴۹
آثار عصور التقیة علی الفقه ۴۹
تعریف الفقه و دائرة موضوعاته ۵۱
الفقه الجامع ۵۱
المطلب الاول: فقه الاسلام و علوم الحیاة ۵۳
تخالف العلوم الحدیثة فی مرحلة التطبیق ۵۳
تشریعات الاسلام متوافقة ۵۴
لماذا لیس فی القرآن الفاظ المساواة و الحریة و الوطنیة ۵۶
عود الی بدء: ۵۷
تدوین السنة ۵۸
الصحیفة الجامعة ۵۸
اصح الطرق للسُنة ۶۱
لزوم تطور الاسالیب بتطور الزمن ۶۲
عدم حجیة القیاس و الاستحسان ۶۲
مراتب التوحید و تحلیل الشهادتین و الشهادة الثالثة ۶۳

المطلب الثانى: الاسلام هو المَثل الاعلى للدين– المثُل العليا ٦٥
غريزة الشعور الدينى ٦٦
المثل الاعلى للدين ٦٦
تاسيس التعاليم على مقتضيات الفطرة و الغريزة الطبيعية ٦٧
الفرق بين اسرار التشريع و حكمتها و علل الاحكام ٦٨
المطلب الثالث: الاسلام دين الفطرة الانسانية ٧١
وجوه امتياز التشريع الاسلامى و مزاياه ٧٢
المطلب الرابع: الاساس لفهم اصول الاسلام و استنباط فروعه ٧٥
حجية العقل الفطرى السليم ٧٥
الاختلاف المشروع فى الاجتهاد ٧٦
مقصود الشارع من تشريع جميع الاحكام ٧٦
الاختلاف المذموم ٧٦
المطلب الخامس: نشوء الفقه الاسلامى و ارتقائه ٧٩
اول مَن دوّن فى علم الفقه الاسلامى ٨٠
الفقه الاكبر ٨٢
رواج التحصيل و التاليف فى علوم شتى ٨٢
المطلب السادس: التربية الاسلامية و لها مراحل: ٨٥
المرحلة الاولى: قانون الوراثة ٨٥
آداب الزواج ٨٦
معنى « السعيد سعيد فى بطن امه...» ٨٨
المرحلة الثانية: مبدء التربية ٨٩
مراحل تعليم الاولاد ٨٩

المرحلة الثالثة: يساير التشريع الاسلامىُّ الفطرةَ الانسانية ٩١
التربية الحديثة و التربية الاسلامية ٩١
ادوار التربية ٩٢
نبذة من الآداب الشرعية: ٩٥
آداب التيقظ ٩٥
من آداب الوضوء ٩٦
من آداب غسل الجنابة ٩٧
من آداب التيمم ٩٨
من آداب المسجد ٩٨
من آداب الصلوة ١٠٠
من آداب صلوة الجماعة ١٠٣
من آداب التعقيب ١٠٣
من اسرار تشريع الجماعة ١٠٤
من آداب الاكل و الشرب ١٠٦
من آداب طلب الرزق ١٠٧
– التوكل لاينافى تحصيل الاسباب ١١٠
من آداب القيلولة و نافلة الزوال ١١١
من آداب النوم ١١٢
من آداب يوم الجمعة ١١٤
من آداب الذكر ١١٥
من آداب الصحبة و المعاشرة ١١٧
من آداب الولد مع والديه ١١٩

من آداب الصوم ١٢٠
من اسرار تشريع الصوم ١٢١
المطلب السابع: التعليم فى الاسلام ١٢٣
من آداب المتعلم مع العالم ١٢٧
مناهج التعليم و اساليبه على حسب اختلاف الامصار و الاقطار ١٢٨
الترتيب فى دراسة العلوم و منهاج التعليم الاسلامى ١٢٩
المطلب الثامن: الاخلاق الاسلامية ١٣٣
كلام فى العصمة و الجواب عن الشبهات ١٣٥
الاخلاق الاسلامية واقعية لا مثالية ١٣٥
انواع الاخلاق الاسلامية و هى ثلاثة ١٣٦
النوع الاول: المتصف به خيّربالطبع و فاضل بالغريزة ١٣٧
النوع الثانى: تحصيلها بالسعى و الرغبة و الاختيار ١٣٧
النوع الثالث: الاكراه بالتأديب او التعليم ١٣٨
بحث حول الطهارة ١٣٨
اقسام الطهارة ١٣٨
موجبات طهارة الباطن ثلاثة ١٣٨
الامر الاول ١٣٨
الامر الثانى ١٣٩
الامر الثالث ١٤٠
العدالة ١٤١
المطلب التاسع: الاقتصاد الاسلامى ١٤٥
توضيح المبحث ١٤٧

صفات الحاجة ۱۵۱
ملخص منهج الاقتصاد الاسلامی ۱۵۳
الحاصل ۱۵۶
امتـــیازان للاقتصاد الاسلامی ۱۵۹
المطلب العاشر: السیاسة فی الاسلام ۱۶۱
الحاصل ۱۶۳
مسک الختام ۱۶۵
المطلب الحادی عشر: الاجتماع فی الاسلام ۱۶۷
المبادئ و المناهج ۱۶۸
التشریع الاجتماعی ۱۷۱
المطلب الثانی عشر: الاجتهاد و التقلید فی القران و السنة ۱۷۵
فائدة مهمة فی بیان الولایة ۱۸۱
وجوب إعمال الولایة و وجوب المساعدة لهم ۱۸۳
ولایة التصرف الاستقلالی ۱۸۵
ضمائم ۱۸۷

سپاس و گرامی‌داشت

بسم الله الرحمن الرحیم

« الذین آمنوا و هاجروا و جاهدوا فی سبیل الله باموالهم و انفسهم

اعظم درجة عند الله و اولئک هم الفائزون» (توبه/۲۰)

اکنون پس از گذشت بیش از نیم قرن از ارتحال غریبانهٔ فقیه مجاهد، فیلسوف مصلح، مفسّر قرآن، منادی تقریب، فارس میدان سیاست و اخلاق و ادب و عرفان، خطیب «الازهر» و «مسجد الاقصی» و «هند» و «شام»، ابن سینای عصر، امام علامه شیخ عبدالکریم زنجانی- رضوان الله تعالی علیه-؛ دست تقدیر الهی از آستین زمانه چنان برون آمد که جان‌هایی چنین شیدا انگیخته شود، و همّت‌ها و عزم‌هایی بشکفد، تا نام و یاد و آثار ارجمند و اندیشهٔ شب‌شکن او، دوباره بر تارک زمانه، درخشیدن آغازد.

در راستای این مقصود، با دست‌گیری گرامیان بسیاری، با محوریت اداره کل معزز فرهنگ و ارشاد اسلامی استان زنجان، زمینهٔ برگزاری کنگرهٔ بین‌المللی بزرگ‌داشت این شخصیت کم نظیر، فراهم آمده و در آغاز و به عنوان پیش درآمد، عزم بر نشر و ترجمهٔ برخی از آثار این دانشمند مجاهد و نیز نشر آثاری مربوط به حیات و اندیشه و شخصیت آن بزرگ؛ قرار گرفته و به عنوان اولین گام، سه صحیفهٔ قدسیه از رشحات قلم آن مهاجر الی الله، یعنی «المُثُل‌العُلیا»، «الفقه الأرقی فی شرح العُروة الوثقی»

و « دروس الفلسفة»، در شُرف تجلّی است.

بدین روی، از مهرورزی و یاری همهٔ سرورانی که در این میان، ما را به تشویق و دستگیری، دلگرم نمودند، از جمله، استاد مکرم، فقیه اهل بیت آیت الله حسینی زنجانی- حفظه الله تعالی-، مدیر کل محترم و همکاران معزز اداره کل فرهنگ و ارشاد اسلامی استان زنجان - زیدت توفیقاتهم-، و حکیم فرزانه حضرت استاد دکتر منوچهر صدوقی سها - حفظه الله تعالی- که به جهت راهنمایی‌ها و خیرخواهی‌ها، رهین منتشان هستیم، سپاس‌گزاری و قدردانی نموده و توفیق و سعادتمندی و عافیت و بهـروزی را برای همهٔ این کریمان از ساحت کرامت حضرت حق – جلّ و علا- مسئلت داریم.

جزاهم الله عن الحق و اهله خیر الجزاء

دبیرخانهٔ کنگرهٔ بین المللی بزرگ‌داشت فقیه مجاهد و فیلسوف مصلح،
ابن سینای عصر، علامه امام عبدالکریم زنجانی (۱۳۸۸-۱۳۰۴ق)
علی‌رضا مهران‌فر- آذر ماه -۱۴۰۲ زنجان

(۱)

گزیده ای از دیباچهٔ حکیم فرزانه حضرت استاد صدوقی سها -حفظه الله تعالی- **بر کتاب « دروس‌الفلسفة» امام زنجانی**

هو الحق

والصلوات التّامّات النّاميات على وليّه المطلق

۱. ایدونا که به عنایت بلاعلّت ازلیّه و آنگاه نقش‌بندی کارکنان کارگاه غیب، به خواستاری دانای راد، آقای شیخ علی‌رضاء مهران‌فر زنجانی - دام بقاءه- مکلّف به نگارش این دیباچه‌ی حاضر بر این صحیفه‌ی قدسیه آمده‌ام که همانا «دروس الفلسفة» حکیم محقّق مؤسّس مولنا الشیخ عبدالکریم الزنجانی الغروی- جزاه الله عن الحق و اهله خیر الجزاء- می‌بوده باشد... چنینم در دل افتاده است و بر سر می‌گذرد که گفتاری کاشف از واقع که بدین میان اندر، فرادست است از عالم شهیر، محمد فرید وجدی دارنده‌ی دائرةالمعارف و او آن را در مقام تعرفه‌ی کتاب به شوال ۱۳۵۹ به مجله‌ی ازهر مندرج آورده است، مدخل نهم و آنگاه هر آنچه که به دل اندر آید یا بر سر گذرد مضبوط آورم؛ و التوفیق من الله و التکلان علیه.

۲. گفتار وجدی: قال الوجدی:

"... **حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ عبدالكريم الزنجانی، شيخ علماء النجف الاشرف بالعراق ... زار مصر فی سنة ۱۹۳۶م فكشف عن عَيلم علم و دين، و نال إعجاب**

العلماء المصريين و إذعانهم بأنه افضل علماء المسلمين." <=دروس الفلسفة، النجف، مكتبة الغرىّ الحديثة، ۱۹۶۲، ج۱، ص ۴-۳>

۳. إشارت به ترجمت حال شيخ:

شيخ عبدالكريم بن شيخ محمدرضاء زنجانی غروی (۱۳۸۸-۱۳۰۴ق) که از سوی پدر با قبيلۀ تازی نامور بنی‌اسد می‌پيوست و از سوی مادر از خاندان امام جمعۀ زنجان می‌بود به زنجان متولد شد و بدان شهر ببالید و بر آمد و آنگاه چندی به طهران و آنگاه به عتبات عاليات شد و بدان خاک پاک به مراحل سلوک نيز چنانکه از مرحوم دکترمحمدغفرانی- طاب ثراه- استاد فقيد دانشگاه طهران که مستسعد به سعادت تتلمذ به محضر انور آن بزرگ می‌بوده است استماع می‌دارم به شرف ملازمت شيخ‌المشايخ العظام آقا شيخ مرتضای طالقانی -قدّس الله لطيفه- نائل گرديد و سرانجام به اوائل شب چهارشنبه ۱۸/ شهريور/ ۱۳۴۷ جهان با جهانيـان پرداخت.

۴. بيان:

تتميماً للفائدة بدين مقام می‌بايد به بيان اندر آورد که:

۴/۱. جناب شيخ - قدّس الله لطيفه- به مقامات سلوک قبل از تشرّف به عتبات عاليات و درک شرف صحبت شيخ المشايخ شيخ مرتضای طالقانی، به زنجان، به روزگار تتلمذ علمی به محضر جناب آخوند ملاقربان‌علی زنجانی از يمن تربيت سلوکی آن بزرگ <= جناب آخوند> نيز برخوردار می‌بوده است و از اين طريق با جناب آخوند ملازين‌العابدين سلماسی می‌پيوسته صاحب اسرار جناب سيّد بحرالعلوم طباطبائی - اعلی الله اقدارهم اجمعين- و از امارات قطعيّۀ اشتغال به سير الی الله او <= شيخ> است ذکر « سهر» خويش به بيتی که آن را در رثای استاد خويش جناب آخوند زنجانی سروده است و اين است آن که:

دوش در «سهر» بودم گفت ملهم غيبی بعد از او نماند الحق شوکت مسلمانی

<= سيد ابراهيم زنجانی موسوی: تاريخ زنجان، طهران، مصطفوی، ۱۳۵۲، ص۳۷۶>.

و لنعم ماقیل:

جوع و صمت و « سهر» و عزلت و ذکر به دوام

ناتمـامان جـهان را کند این پنـج تمـام

۴/۲. شمّه ای از مکارم نفسانی:

و لابدّ از سر انسلاک به همین سلک، واجد می‌بوده است مراتبی شامخ از مکارم نفسانی را به شرحی که به بیان احدی از اصحاب او وارد است و این است آن که:

«... الامام الزنجانی الذی بلغت به طیبة النفس الی درجة تکاد تکون غیرمحدودة، یجذبه الخیر کما یجذب المغناطیس الحدید فیندفع الیه، و یسعی الی کل نفع للغیر عام أو خاص، و هو ملجأ لعموم الفقراء و الیتامی و المظلومین و المرفوتین و المصابین بأیّ مصیبة، و لِخصوص أهل العلم الذین هم أکثر الناس احتیاجاً الی المساعدة، لأنهم فی وسط المدنیة الحاضرة المتأخرون فی أمورهم المادیة، و العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فی میدان الحیاة الجدیدة، یبذل الیهم الأموال و یسعی لهم عند ولاة الأمور بهمّة لاتعرف المَلل، کأنما یسعی لأعزّ انسان لدیه، بل یسعی لصاحب الحاجة و قضاء حوائجه و هو یعلم أنه أساء الیه و قدح فیه و تَحالف مع خصومه فی ترویج عبارات القذف و النمیمة و الافتراء، و هو یردّد: " أشرف أعمال الکریم غفلته عما یعلم" و یخاطب نفسه: " لا یزهدنک بالمعروف مَن لا یشکر لک" و سماحته یری أن الشرّ لا فائدة منه مطلقا، و أن التسامح و العفو عن کل شیء و عن کل شخص هما أحسن ما یعالج به السوء و یفید فی إصلاح فاعله.

«خُلق کخُلق الأنبیاء و رأفة فیها نسیـــــنا رأفة الآباء»

و هو یتابع العمل لإصلاح مناهج الدراسة و التعلیم و التربیة و الأخلاق و أسالیب التألیف فی العلوم الدینیة و الفلسفیة بعزم لایعرف دون الکمال تراجعاً و لا فتوراً و هو یری أن مصادر التشریع الاسلامی هی کتاب الله و سنة رسوله ﷺ حسبما أثبته فی کتابه « الفقه الأرقی فی شرح العروة الوثقی» و هو آیة عظمی من آیات العلم و الدین یدوی بها الشرق کله.

أشرق إسمه فی مشارق الأرض و مغاربها و عرفته الأعاظم بأنه رجل المعجزات و فیلسوف الاسلام و مفخرة المسلمین و مصلح عالَمیّ عظیم یملک الفکرة و وسائل التنفیذ و

لایستنصر إلا من الله تعالی و لایکترث بمقاطعة المضلین مهما عظمت شئونهم و عَلت أقدارهم، و لایلین للخطوب التی تنزل به، و لایخنع لِـقُوی الأرض و إن اجتمعت لمقاومته، بل هو یعمل لخیر الإسلام و الإنسانیة بعزم تتزایل الجبال دون ان یتزلزل، و بیقین تتحول الأرض عن مدارها و لایتحول، و بذلک تهیأت له الامامة و سَعت الیه الزعامة و انقادت له الأمور، و هو یوزع کل ما یرد له من الأموال علی أهل العلم المعوزین و الفقراء و الأیتام بصورة مستمرة، و لکنه أنکر لنفسه من نعیم الدنیا إلا الرغیف الذی یمسک علیه الحیاة، و سوی مسکن متواضع خراب لایملکه، بل یستأجره من مالکه، مؤثَّث بحصیر و بساط بسیط لیعیش فیه عیشة الزهاد، و ما الحیاة لدیه إلا خدمة الدین و العلم و الاسلام و الانسانیة، و نفع إخوانه فی الدین و الخَلق، أما الدنیا فَلتَغرّ سواه.» <= ایضاً: ج۱، ص۱۳-۱۱>

۵. ختم کلام: ختم کلام هم بدین است که گویم که:

اوّلاً می‌نماید که نگارش این دیباچه بر این صحیفهٔ قدسیّه توگوئی منعطف است به سابقهٔ ربط خاندانی ما با جناب شیخ از آن که آن بزرگ را با عمّنا الامجد الاقدم و خالنا الممجّد المقدّم زعیم مجاهد آقامیرزا علی‌اکبر آقای مجتهد اردبیلی- اعلی الله شأنه- رفتهٔ ۱۳۰۶خورشیدی دارندهٔ « البعث و النشور»، کمال اعتقاد و اشتراک مساعی در میان می‌بوده است و از ادلّهٔ آن است مفاد رقیمه‌ای که به وقعهٔ هائلهٔ تخریب وهابیّهٔ بقیع مقدس را، در مخاطبت با معظَّم لَه <= اردبیلی طاب ثراه> ترقیم و تقدیم فرموده بوده است به شرحـی که می‌آید:

بسم الله الرحمن الرحیم

به شرف عرض محضر شریعت مظهر مقدس عالی می‌رسانم فاجعهٔ فجیعهٔ مدینهٔ طیّبه و تجاهر فرقهٔ کافرهٔ مضلهٔ وهابیّه خذلهم الله تعالی و من یساعدهم من الکفرة الفجرة بمشاهد مقدّسهٔ ائمّهٔ بقیع سلام الله علیهم اجمعین تکلیف اهمّی برای عموم شیعه بالاخص برؤسای دین مبین و ارکان وحجج اسلام و المسلمین اعلی الله تعالی کلمتهم ایجاد کرده است. تلگرافاتی در این موضوع باتّفاق مرحومین مبرورین حجّتین آیتین آقایان فیروزآبادی و آل

کاشف الغطاء قدّس الله تعالی اسرارهما باقطار اسلامیّه و ملوک مسلمین مخابره کرده بودیم و جواب‌های مساعد از بعض آنها رسیده است تاکنون در تعقیب این اقدامات مشغول عملیات هستیم و چون اخذ نتیجه در اینمسئلهٔ مؤلمهٔ مهمّه منوط بیک نهضهٔ اسلامیّهٔ عمومیّه و تعاضد و تساعد رؤساء دین و طراز اول اعلام مسلمین می‌باشد و لله الحمد نفوذ کلمه و ریاست اسلامیّه در ایران برای وجود مبارک است وظیفهٔ حتمیهٔ حضرت‌عالی دامت برکاته است بدولت و ملّت وجوب اعادهٔ عزّ اسلامی را اعلان فرموده بهر کیفیتی که در نظر مبارک اصلح است اقدامات کافیه بفرمائید و مرجوّ است نتیجهٔ اقدامات سامیه را و نظرات مقدسّه و مقتضیات افکار عالیه در کیفیت تعقیبات مسئله و وظایف هیئت علمیّه در عتبات عالیات آنچه باشد دستخط فرموده عموم را قرین امتنان خواهید فرمود.

اعزّ الله تعالی بوجودکم الاسلام و ردّ بکم کید الزّنادقة اللّئام و ادام ظلّکم علی المسلمین وکافّة الأنام و السّلام علیکم و رحمة الله و برکاته

الاحقر عبدالکریم الزّنجانی الغرویّ.

و دیگر: به وقعهٔ ارتحال جناب شیخ، عمّ اکرم والدهٔ ماجدهٔ من بنده مرحوم مبرور آقامیرزا مرتضای دلجو پور برومند آقامیرزا یوسف آقای مجتهد اردبیلی - طاب ثراهما- به دار الإرشاد اردبیل اقدام فرموده بوده است به اقامهٔ مجلس ختمی بهر آن بزرگ، چنانکه زنجانی موسوی می‌آورد به تعداد مجالس ختم جناب شیخ از پی یاد مجالس آیات عظام خوئی و شاهرودی و آل کاشف الغطاء به نجف اشرف و آقا سید احمد خوانساری به طهران که:

« ... در اردبیل آقای جودی <= کذا و الصّحیح هو: دلجو> اخوی آقا شیخ سلیمان <+ محسن اردبیلی> مقیم زنجان، اغلب آقایان علما و کسبه بازار و تجّار اردبیل شرکت داشتند» <= ص۳۷۹> و لا بدّ از سر حکم « لاتثنّی إلّا و قد تثلّث» ربط حاصل از نگارش این وجیزهٔ لاحق نیز با آن دو ربط سابق می‌پیوندد و له الشُّکر.

و ثانیاً: به شایائی و بایائی می‌باید بسی آفرین گویم و سپاس آورم بر دانای راد کوشا آقاشیخ علی‌رضاء مهران‌فر زنجانی - زاده الله توفیقاً- که در یک سخن گویم که اگر نمی‌بودی همّت والای او، این وجیزه، کسوتِ وجودِ خاصّ بر تنِ ماهیّت خویش، راست نمی‌گردانیدی

و لله الحمد فی الآخرة و الأولی.

و قد وقع الفراغ منه بمجالس آخرها انعقدت بالثلاثاء ١٧/ ربیع١/ ١۴۴۵ المبارک افاض الله من برکات مولودیها علینا بطهران صِینَت عن الحدثان و کتب اللّاشیئ سها أقال الله عثراته.

(۲)

الامام الزّنجانیّ من هو؟

هو عبدالکریم‌بن‌محمدرضابن‌محمدحسن‌بن‌محمدعلی[۱] الزنجانی النجفی (الغروی)[۲]، الفقیه المتکلم، الخطیب المصقع، رجل السیاسة، المصلح المجاهد، فیلسوف الشرق، ابن سیناء العصر، الداعی للوحدة الاسلامیة و التقریب بین المذاهب الاسلامیة، بل الوحدة بین الادیان السماویة ثم ابناء البشر.

ولد المترجم له عام ۱۳۰۴هجـ(۱۸۸۶ م)[۳] فی زنجان (قریة « باروت آغاجی»)[۴]، و کان ابوه

---

۱. الشیخ محمدعلی کان من علماء النجف المبرزین و رحل الی ایران بعد فتنة الوهابیة فی ۱۲۱۷ هجـ و آثر مدینة « زنجان» و هذه القریة للاقامة عقیب استقباله من السیدمحمدالمجتهد السِردانی.

راجع محمدهادی الدفتر، صفحة من رحلة الامام الزنجانی و خُطَبه فی الاقطار العربیة و العواصم الاسلامیة»، الطبعة الثالثة، بیروت: موسسة النعمان، ۱۴۱۷ق ۱۹۹۶–م، ص۲۰۶، و عبدالحسین علوان الدرویش، الدور الاعلامی للامام عبدالکریم الزنجانی فی الدعوة الی الوحدةالاسلامیة، الطبعة الاولی، بغداد: دارالامورالثقافیة العامة،۲۰۱۱م، ص ۴۵

۲. جدیر بالذکر کما نقل عن الشیخ آیة الله محمدتقی الخاتمی –ره– أن الامام الزنجانی کان یکرّر: « انا زنجانیٌّ»؛ کما أنه فی توقیعه یستعمل « الزنجانی» او « الزنجانی النجفی» و أحیاناً « الزنجانی الغروی». (جاءت نماذج منها فی الضمائم)

۳. و فی « الفهرس لمشاهیر علماء زنجان» للشیخ موسی الزنجانی، ان تاریخ ولادته ۱۳۰۰هجـ و فی « گنجینة دانشمندان» ۱۳۰۴ق و فی « تاریخ زنجان: علما و دانشمندان»، الثامن من رمضان ۱۳۰۴هجـ و ما ذکر أخیراً قریب من الصحة لأن کاتبه من اقرب تلامذة الشیخ منه؛ علی أن فی « صفحة من رحلة ...» جاء تأریخ ولادته ۱۳۰۴ هجـ موافقاً لعدد الحروف الابجدیة من آیة « نصر من الله و فتح قریب». و لکن مع عدم احتساب « الالف المدّی غیر المکتوبة»، یکون ۱۳۰۲ و مع احتسابه یکون ۱۳۰۳: ن۵۰ + ص۹۰ + ر۲۰۰ + م۴۰ + ن۵۰ +ا +۱ ل۳۰ + ل۳۰ + هـ ۵ + و ۶ + ف۸۰ + ت۴۰۰ + ح ۸ + ق۱۰۰ + ر۲۰۰ + ی۱۰ + ب۲ = ۱۳۰۲

راجع السید ابراهیم الموسوی،نفس المصدر، ص۲۳۷؛ محمدهادی الدفتر، نفس المصدر، ص۲۰۷؛ عبدالحسین علوان الدرویش، نفس المصدر، ص۴۴، و محمدجوادجاسم محمدالجزایری، الشیخ عبدالکریم الزنجانی، دراسة تاریخیة: بیروت، جوائا، ص۴۷.

۴. اسم القریة « باروت آغاجی او باروط آغاجی». کلمة « آغاج» فی اللغة الترکیة بمعنی الشجر، و فی کتب اللغة الترکیة بالغین، علی خلاف ما عن بعض المؤلفین بالقاف. و قد ذکر أنّ باروت آغاجی او بارت آغاج Bart Agac قریة من الناحیة المرکزیة من مدینة زنجان.

صهراً للميرزا عبدالواسع بن السيدمحمد المجتهد؛ و جدّه اعنی محمدحسن النجفی، كان صهراً للسيدمحمدالمجتهد السِردانی المذكور.[١]

الذی يجب ذكره هو موقع مدينة زنجان الاستراتيجی و كونها على طريق دول الاتحاد السوفيتی السابق و دول أوروبا، و دورها فی بعض الأحداث التاريخية المهمة؛ على سبيل المثال، الثورة الدستورية، و دور الشيخ الملا قربانعلی الزنجانی فی الحركة المناهضة لها؛ و مقاتلة جند « أمير كبير» و المتهمين بالبابوية، التی استمرت عدّة أشهر؛ و كونها المقر الأول لحكومة اولجايتو حفيد جنكيزخان، حيث اعتنق السلطانُ التشيّع و أعلنه رسمياً و ذلک بجهود المحقق الطوسی و حضور تلميذه العلامة الحلّی بامر من المحقق الطوسی فی « سلطانية» فی محافظة زنجان، و كذلک نقاشه المعروف مع علماء السنّة فی هذا المكان.

جدير بالذكر أنه لم‌يكن للشيخ الزنجانی وريث و قد ماتت زوجته قبل وفاته و توفّی ابنه الوحيد « محمد» عندما كان الشيخ فی سفره، و هذا قدجَعل بعض من ألّف و تكلم فی هذا المجال، يظن أنّه لم‌تكن له ذرية منذ البداية.

يُحكى أنّ الشيخ وصله نبأ وفاة ابنه عندما كان فی اجتماع فی لاهور، عاصمة البنجاب، فقدّم له الحاضرون التعازی، لكن الشيخ شكر الله على ذلک و قال: " انی جدير بالتهنئة، حيث اصبح قلبی فارغاً من حب الأولاد لحب الله تعالى".

و فی نهاية المطاف اصيب هذا الرجل العظيم بمرضٍ سبّبه الجوع المديد، على الرغم ممّا يمتلكه الشيخ الزنجانی من القوّة و النفوذ الواسع فی البلاد الإسلامية، فتوفّی فی بيته الذی استأجره. ثم هو التحق بأوليائه و ذلک فی ليلة الأربعاء الموافق لـ ١٧ جمادی الثانية عام ١٣٨٨ للهجرة، و الموافق لـ ١٨ شهريور ١٣٤٧ للتأريخ الشمسی.

صلّی على جثمانه السيّدالزعيم أبوالقاسم الخوئی – تلميذه فی الفلسفة– فی صحن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد دُفِن فی الحجرة الجنوبية بجوار السيّد محمود إمام الجمعة (والد الفقيه السيد عزالدين الزنجانی) الذی كان من أقارب الشيخ من ناحية والدته و جدّته –.[٢]

و قدشارک فی تشييعه العلماء و الطلاب، و سفراء و ممثّلو باكستان و إيران، و ممثل رئيس

١. سيدابراهيم الموسوی الصائين قلعه ای، نفس المصدر، ص٣٧٣.

٢. نفس المصدر، ص١٠٠.

جمهورية العراق و الدوائر الحكومية، و قامت إذاعات العراق و إيران و موسكو و باكستان و السعودية و لندن بالحديث عن شخصيّته.[۱]

نعم، لم يكن اتهام بعض الناس للشيخ عبدالكريم الزنجانى بدافع الجهل و الغباء فحسب، بل بدافع الحقد و الحسد كذلک، و قد اغتالوا شخصيته و رفضوه بأشنع الطرق. و يبدو أنّ جزءاً من هذه الأحداث تزامنت مع الثورة الدستورية، و معارضة حجّة الإسلام الملاقربان‌علی الزنجانى لذلک فى إيران، و كذلک معارضة آية الله السيّدمحمدكاظم الطباطبائى اليزدى، صاحب العروة، و هما من اساتذة الزنجانى.

كما أنّ تدريس الفلسفة فى الأجواء المغلقة فى تلک الفترة و خاصّة منطقة النجف؛ و التدخل فى الشؤون السياسية فى ظلّ أجواء الجمود و العزلة؛ و التعاون و التواصل مع أهل السنّة؛ و خلافه مع بعض علماء النجف و ايران؛ و فى الاخير– و هو المهم– المؤامرة البريطانية لتشويه سُمعته، هى التى لعبت دوراً مهماً فى التهجم عليه.

يُعتبر الشيخ شخصية عظيمة لعبت دوراً لايمكن تجاهله فى اعتراف الازهر بالمذهب الإمامى باعتباره مذهباً عريقا من مذاهب المسلمين، و قد ساعده على ذلک الشيخ محمود شلتوت رئيس « جامعة الأزهر» آنذاک ، لكن تمّ تجاهل هذا الدور الهامّ للأسباب المذكورة ، و قد عاش رجل الثقافة و السياسية و العلم و الاخلاق و السلام و الجهاد فى الفترة الثانية من حياته، متوقفا عن العمل و منشغلا بالتحقيق و التأليف فى الفقر و العزلة .

كان الشيخ الزنجانى قائداً مجاهداً مناهضاً للاستعمار، و قد لعب دوراً هامّاً فى إصدار حكم الجهاد الصادر من قِبل صاحب العروة.

و ممّا يثير الاهتمام أنّ « محمّد حسن كليددار آل طعمة» و « سلمان هادى آل طعمة» كانا من بين الذين اتّهموا الشيخ فى رسائلهم.

و ذكر مؤلف كتاب « الشيخ عبد الكريم الزنجانى، دراسة تاريخية» أنّ مصادر الشخصين فى اتهاماتهما هم « عبدالرزاق آل وهاب» و « المِس بيل» فى كتاب « فصول من تأريخ العراق

---

۱. كما مرّ ودّع الشيخ الزنجانى الحياة الفانية مساء الأربعاء قبل غروب الشمس بنصف ساعة بسبب سوء التغذية و الجوع المستمر. و قد منحه الناس هدايا ثمينة و مبالغ كبيرة لكن رفض قبولها، و عندما جاء ابن أخته آية الله السيّد أبوالفضل النجفيان بعد وفاته من زنجان إلى النجف للقيام بالإجراءات اللازمة، وجد أوراق اختصاص السيارة له و ما شابه ذلک بين الاسناد و الكتب!

القريب»؛ و « إبراهيم شمس الدين القزوينى» الذى لم يَذكر اسم الشيخ صراحةً أو تلويحاً، لكن المتحدثين و الكتّاب اعتمدوا على الإشاعات فى تفسير أقوال هؤلاء.[۱]

قال « كامل سلمان الجبورى» للمؤلف المذكور، أنّه أورد الشيء المنقول عنهما (محمدحسن و سلمان هادى) فقط و لم يفحص عن صحّته!!

كما تحدث سلمان‌هادى آل‌طعمة عن سهو قلمه، و قدقدّم نصّ توبته بتوقيعه لمحمد الجزايرى مؤلف كتاب « الشيخ عبد الكريم الزنجانى، دراسة تاريخية»، و فى نفس السَنة أنشد قصيدة فى مدح الامام الزنجانى فى ذكرى الأربعين لرحيله.[۲]

***

ثم تعد رحلات الزنجانى العلمية و الإصلاحية إلى الهند و باكستان و القوقاز و سوريا و لبنان و الأردن و مصر و فلسطين، و خطبه الهامّة عن وحدة المسلمين و العودة إلى العصر الذهبى للإسلام، و منها خطبته النارية فى فلسطين أمام الصهاينة فى ۱۹۳۶م؛ من مفاخر الشيخ المميزة.

يروى الاستاذ السيّدمحمد الحسينى الزنجانى، عن والده، أنّ آية الله السيدمحمدهادى الميلانى تحدث عن شخصيته الجهادية و قوّته فى التعبير و حل مشاكل الناس؛ و كان من الذين امتدحوه.[۳]

و يعتقد آية الله الشبيرى الزنجانى أنّه إذا كان لشخصين فى حوزة النجف القدرة العلمية و الأدبية للإجابة على شكوك المتنورين من تيار اليمين و اليسار، فاحدهما هو الشيخ عبدالكريم الزنجانى و الآخر صديقه الحميم الشيخ محمدحسين آل كاشف الغطاء.[۴]

كما يُنقل عنه ايضاً انّه كانت له فضائل أخلاقية بارزة كالاهتمام بشؤون المؤمنين و عدم النفاق فى حياته و عدم مبالاته بالدنيا و التحالف مع خصومه من أجل عزّة الإسلام و التشيّع.[۵]

۱. راجع نفس المصدر، ص۱۰۰.
۲. راجع نفس المصدر، ص ۱۰۱ و ۲۷۰.
۳. علی‌رضا مهران‌فر، زندگانی و اندیشه‌های مصلح بزرگ آیت الله شیخ عبدالکریم زنجانی: زنجان، اداره کل تبلیغات اسلامی، ص۹۲.
۴. یوسف خان محمدی، اندیشه‌های سیاسی شیخ عبدالکریم زنجانی: قم، بوستان کتاب، ص۳۵-۳۴.
۵. عبدالحسین علوان الدرویش، نفس المصدر، ص۱۹.

انتشر صيت آية الله الزنجانى من خلال أسفاره إلى الدول العربية و نقاشاته العلمية و خطبه فى « الجامع الأموى» و « المسجد الأقصى» و « الأزهر» و ... فاصبح اسمه مضرباً للمثل بين العرب و ذلک فى العلم و الحنكة.

نعم، كانت له أخلاق تحمد، و تعبير سحرى، و طبع لطيف، و نبوغ علمى و فلسفى، و شجاعة، و سمو الروح، و نمو فكرى، حيث ادى الى التحول الروحى فى الأزهر و مصر و العراق و باكستان و سوريا.[1]

اساتذته و اجازاته، و تلاميذه و آثاره العلمية

الف: الاساتذة و الاجازات

درس عبدالكريم الزنجانى فى سن المراهقة على يد والده العلامة الشيخ محمدرضا الذى كان الابن الوحيد للشيخ محمدحسن[2] و كان رجلاً عظيم الشان؛ و كما درس عندخاله إمام الجمعة الميرزا عبد الواسع.

و من اساتذته، حجّة الإسلام الملا قربانعلى الزنجانى (۱۳۲۹ هـ – ۱۲۳۵ هـ)، و هو كان المعارض الرئيسى للدستورية فى المنطقة، و لذلک – على الرغم من كبر سِنّه– اُعتقِل و نُفى إلى الكاظمية حتى توفى و دُفِن فيها، و كان معروفاً بالزهد و بأنّه من أصحاب الكرامات؛ و من المعروف أنّ الملاقربانعلى كان يَدرس و يتهجد طوال الليل، و لاينام إلا قليلا بعد طلوع الشمس، و كان يعمل بعد ذلک على تلبية شؤون الناس و القضاء و التعليم و الشؤون اليومية.[3]

ثم تعلّم الشيخ عبدالكريم الرياضيات عند الفيلسوف و العلامة الزاهد، وحيد دهره الميرزا إبراهيم الحِكمى (الرياضى الارثماطيقى) الزنجانى – و قد يُلفظ « الحَكَمى» عن خطأ–. و كان من تلامذة الميرزا إبراهيم، أمثال الميرزا أبى الحسن الرفيعى القزوينى، و العلامة الميرزا أبى عبدالله الزنجانى مؤلف شرح « بقاء النفس» للملا صدرا.

---

۱. راجع السيدابراهيم الموسوى، نفس المصدر، ص۳۷۳.

۲. نفس المصدر، ص۲۰۶.

۳. جاء فى كتاب « يک آسمان ستاره»، ص۱۴، انّ الملاقربانعلى كان تلميذا للملا زين العابدين السلماسى فى الأخلاق و السلوک و هو من تلامذة السيد الزكى محمدمهدى بحر العلوم. و أيضاً كان الملاقربانعلى من تلامذة الملاعلى قاربوز آبادى، والشيخ عبدالله السجاسى فى زنجان، و الشيخ الأنصارى (لمدة اثنى عشر عاماً)، و صاحب الجواهر، و الشيخ راضى النجفى، و السيد الكوه كمرى (السيد الترک) فى النجف الاشرف. و كان حجة الإسلام، من المحاصرين مع الشيخ فضل الله النورى.

ایضاً من أساتذة الشیخ عبدالکریم، هو المیرزا مجید الحِکمی الزنجانی من کبار علماء عصر القاجار فی الریاضیات و الفلسفة و الأدب و الإلهیات و العلوم الطبیعیة؛ کما درس الشیخ، شرح المنظومة عند السیّدحسین بن القنّاد الزنجانی؛ فکان الامام الزنجانی متضلعا فی الفلسفة و أفکار الفلاسفة الأوربیین، فلهذا أُطلِق علیه لقب « فیلسوف الشرق» و « ابن سیناء الثانی».

ثم ارتحل المترجم له الی النجف الأشرف و ذلک فی عام ۱۳۲۶ هـ و قد تشرّف بلقاء الأعاظم أمثال السیّد الطباطبائی الیزدی صاحب العروة، و الآخوند الخراسانی – و ذلک فی العامین الأخیرین من حیاة الآخوند–[۱]، و شیخ الشریعة الأصفهانی و المحقق الهمدانی صاحب « مصباح الفقیه»، و السیّد محمد الفیروز آبادی[۲] و...

و قد ترک الزنجانی قریب من ۹۰ أثراً علی الرغم من مشاغله العدیدة و أسفاره الکثیرة، و فی عام ۱۳۴۱ هـ نُشِرت رسالته العملیة و آنذاک لم‌یتجاوز عمره الشریف ۳۷ عاماً، و قلّده الشیعة من إیران و العراق و الهند و باکستان و أفغانستان و أفریقیا و الصین و غیرها.

قدقام صاحب العروة بإحالة مسائله إلی الإمام الزنجانی منذ عام۱۳۳۶هـ و اعطاه إجازة علیّة، کما أن السید الفیروزآبادی، منحه إجازة الاجتهاد الخطیة و الشفهیة و کما قام بذلک السید ابوالحسن الأصفهانی- رحمة الله تعالی علیهم اجمعین-.

و هذا متن اجازة السید الیزدی:

بسم الله الرحمن الرحیم

الحمدلله الذی اَکرمَ العلماءَ و جعَلَهم ورثةَ الأنبیاءِ و الصلوةُ و السلامُ علَی سیدِ الرسلِ و الأولیاءِ و علَی آلِه البررةِ الأزکیاءِ،

و بعدُ فَاِنَّ افضلَ اعمالِ اهلِ العلمِ مُدارَستُه و ذکرُه و تعمیمُه و نشرُه و إعلاءُ شأنِ حَمَلتِه و تنزیلُ کلٍ فی مَنزِلَتِه، و لمَّا کانَ العالمُ الفاضلُ و المجتهدُالتقیُّ العادلُ جامعُ المنقولِ و المعقولِ الشیخُ میرزا عبدُالکریمِ الزنجانیُّ – اَدامَ اللهُ برکاتِ وُجودِه– مِمَّن طالَ معهُ المُعاشرَةُ و کَثُرَت

۱. راجع محمدجواد جاسم محمد الجزایری، ص۵۱.

۲. راجع کریم نیرومند، ص۲۱۶؛ و یوسف خان محمدی، صص ۲۱–۱۸.

المُحاوَرَةُ و المذاكرَةُ فَاوقَفَتنَا منهُ علَى عِلمٍ كثيرٍ و فضلٍ غزيرٍ و احاطةٍ بالأحكامِ و اجتهادٍ فى مَسائل الحلالِ و الحرامِ واقفاً على دليلِها مُستنبِطاً فروعَها مِن اصولِها و قد استجازَ منّا اَن يَروىَ عَنّا ما نَرويهِ نحنُ عَن عُلمائنا الأعلامِ و اساتِذَتِنا الكرامِ فأجَزنَاهُ إجازةً عليّةً قضاءً لحقهِ و اعترافاً بِعلمهِ و فضلهِ مُؤكِّدينَ عَليهِ و عَلى اَنفسنا مَهما اَمكنَ العملَ بالإحتياطِ و تَجَنُّبَ طَرَفَي التفريطِ و الإفراطِ سائلينَ مِن الله تعالَى اَن يُوفِّقَهُ للإرشادِ و الهدايةِ كَما هوَ شأنُ امثالِه و اَن يُوَفِّقَ المؤمنينَ لِلأخذِ عن جَنابِه و المُراجَعةِ اِليه– سَلَّمهُ اللهُ تَعالَى– فِى الأحكامِ الشرعيةِ و الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

محمد كاظم الطباطبايى

و اليک متن اجازة السيد الفيروزآبادى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الّذى اكرمَ العلماءَ و جعَلَ مِدادَهم اَفضلَ مِن دِماءِ الشُّهداءِ و الصّلوةُ و السلامُ على اشرفِ الأنبياءِ محمد ﷺ و آلِه البررةِ الأزكياء. اَمّا بَعدُ فَاِنَّ العالمَ المتبحّرَ الجليلَ العاملَ و المجتهدَ الورعَ التّقىَّ العادلَ جامعَ المعقولِ و المنقولِ عينَ اَعيانِ العلماءِ الفحولِ قدوةَ الفقهاءِ الأعلامِ حجةَ الإسلامِ الشيخَ العظيمَ حضرةَ الآقا الميرزا عبدَالكريمِ الزّنجانىَّ – دامَ ظلُّه– حَرِيٌّ بِأَن يُجيزَ و أجَلُّ شأناً مِن أَن يَستَجيزَ. كيف! و هو – دام ظله– قَد تَربَّعَ مَنَصّةَ الإفتاءِ و القضاءِ و صارَ مَرجعاً لِلتّقليدِ مُنذُ زَمنٍ بعيدٍ بِإجازةٍ عَليّةٍ مِن سَيّدنَا الأستاذالأكبرِ آيةِ اللهِ العظمَى حضرةِ السّيّدمحمّدكاظم الطباطبائى اليزدىِّ – قُدِّسَ سِرُّه– لَكنّى أَرَدتُ اَداءَ بعضَ التّكاليفِ الواجبةِ بالتّنويهِ بِمَراتبِه السّاميةِ فى درجاتِ العلمِ و الإجتهادِ، و التّصريحَ بِلياقَتِه الكاملةِ و أهليّتِه التّامّةِ لِلإفتاءِ و الارشادِ. فَلِلنّاسِ أن يُقَلّدوهُ و يَقتَبسوا مِن عُلومِه الباهرةِ النافعةِ و يَتَّبعُوا فَتَاوَيهُ و آرائَه السّاطعةَ فإنّهُ – دام ظِلُّه– مِن أدلّةِ الرَّشادِ و الحمد لله ربّ العالمين.

۴ صفرالخير ۱۳۴۵، محمد الحسينى الفيروزآبادى[1]

۱. جاءت صورتا الاجازتين فى الضمائم.

ثم المشهور أنّ صاحب العروة الذی منح عددا قلیلا من الفقهاء إجازةَ الاجتهاد؛ قال فی عام ۱۳۳۱ هـ – الذی کان الزنجانی فی العشرالثالث من عمره–: " یُعَادِلُ الزَّنجَانِیُّ بِعلمِهِ مِائَةَ مُجتَهِدٍ و بِتَقویهُ مِائةَ عادلٍ و بِعقلهِ مِائةَ وزیرٍ!"

خلال الحرب العالمیة الأولی عام ۱۳۳۱ هـ ، الزنجانی و کاشف الغطاء، تمکّنا من إقناع صاحب العروة، بإصدار فتوی الجهاد ضد بریطانیا، و ارسل السید الزعیم ابنه الأکبر، السید محمد لقیادة المجاهدین، و بینما کان الزنجانی و کاشف الغطاء فی مقدمة خط الجهاد، استشهد العالِم المجاهد السیدمحمد، ثم هَزم جیشُ المسلمین العدوَّ و أجبروهم علی الفرار.[۱]

ب: تلامیذه

کان لسماحة الامام الزنجانی القدرة الکبیرة علی تربیة الطلاب أیضاً، و کان لدیه تلامذة من العدید من البلدان، و کان عدد تلامذته قریب من خمسمائة طالب[۲]؛ منهم:

الابهری، السیدمحمد عبدالحسین (۲۰۰۴–۱۹۲۵م)، قم– فی الفقه و الاصول– مجتهدٌ

الاحسائی، الشیخ محمدصالح علی (۱۹۷۵–۱۹۰۰م)، الاحساء– فی الفقه و الاصول– مجتهدٌ

البلادی، البحرانی الشیخ حسین بن علی (۱۹۶۷–۱۸۸۴م)، البحرین– فی الفلسفة– مجتهدٌ[۳]

الجصانی، الشیخ محسن (۱۹۸۹–۱۹۰۰م)، النجف– الکفایة– مجتهد

جمال الدین، السیداحمد (۱۹۷۱–۱۹۰۳م)، النجف– الکفایة و الرسائل

الحسینی الزنجانی، السید احمد (۱۹۷۳–۱۸۹۰م)، سوریا و زنجان– الکفایة– مجتهد

الحسینی الزنجانی، السید عزالدین (۱۹۲۱م۲۰۱۱–)، – الفلسفة– مجتهد.

و قد دفن قریب من مقبرة الشیخ بهاء الدین العاملی فی الحرم الرضوی –علیه آلاف التحیة و الثناء–؛

الخاقانی، الشیخ علی (۱۹۷۹–۱۹۰۹م)، النجف– الفلسفة– محقق و شاعر

---

۱. نفس‌المصدر.

۲. عبدالحسین علوان الدرویش، ص۶۷.

۳. الشیخ علی البحرانی من علماء المبرزین فی محافظة القطیف و له « انوار البدرین فی تراجم علماء القطیف و الاحساء و البحرین». و القطیف کانت تسمی « الخطّ» و قد یقال: القطیف هی« النجف الصغری»، لکثرة العلماء و المدارس العلمیة الشیعیة هناک!

الخفاجی، الشیخ معین (۱۹۴۹م-...)، النجف- الفلسفة[۱]

الخونساری، الشیخ ابوالفضل احمد (۲۰۰۱-۱۹۱۸م)، اصبهان- الفلسفة- مجتهد

الخویی، السیدابوالقاسم (۱۹۹۲-۱۸۹۹م)، النجف- الفلسفة- من المراجع الکبار

سلطان القراء التبریزی، الشیخ جواد (۱۹۹۷-۱۹۰۱م)، تبریز- الفقه- مجتهد

الصائغ، الشیخ جعفر بدرالدین (۱۹۹۶-۱۹۲۹م)، لبنان- الفلسفة- مجتهد

الطباطبایی، السیدابراهیم (۲۰۰۳-۱۹۲۲م)، دبی- فی الفلسفة و الکلام- مجتهد

الطریحی، الشیخ محمدکاظم (۲۰۰۲-۱۹۲۰م)، النجف- الفقه- مجتهد

العلوش الحلّی، الشیخ حسن کاظم (۱۹۹۴-۱۹۳۰م)، حلة العراق- الفلسفة- مجتهد

القرشی، الشیخ باقر شریف (۱۹۲۷م۲۰۱۲-)، النجف - الکفایة و قلیل من الفلسفة

القطیفی الخطی، الشیخ عبدالحمیدعلی مهدی (۲۰۰۱-۱۹۱۳م)، القطیف- الکفایة- مجتهد

اللنکرانی، الشیخ مجتبی (۱۹۸۵-۱۸۹۷م)، النجف- الفلسفة- مجتهد

الموسوی، السیدابراهیم (۱۹۹۹-۱۹۲۶م)، سوریا و زنجان- الفقه و الاصول- مجتهد

النجفی، الشیخ محمدحسین (۱۹۳۲م-...)، باکستان- الفقه و الاصول- مجتهد

المحقق الخراسانی، (الدکتور العلامة) مهدی (۱۳۴۸هـ،۱۳۰۸هـش- ...)، و قد منحه الامام الزنجانی اجازة الاجتهاد فی عام ۱۳۷۰ هـ فی الثانیة و العشرین من عمر التلمیذ المشار الیه.[۲]

هدّو، دکتر حمید مجید، النجف- الفلسفة[۳]

السیّدإبراهیم الموسوی الصائینقلعه‌ای من أصحاب و تلامذة الشیخ المخلصین الاوفیاء، و مندوبه فی منطقة السیّدة زینب فی دمشق - التی أحیاها الإمام الزنجانی- و بعد وفاة الموسوی، تولّی السیّد أحمد الفهری الزنجانی صاحب الأخلاق الرفیعة و المیول العرفانیة و مؤلّف الأعمال القیّمة، هذه المسؤولیة حتّی نهایة حیاته و ذلک بأمر من الإمام الخمینی ره.

و کان من خیرة تلامیذ الزنجانی، الشیخ باقرشریف القرشی، و قد نُشِرت أعماله و مؤلفاته و

۱. راجع محمدجوادجاسم محمد الجزایری، نفس المصدر، صص۷۰ ۶۷- مع قلیل من التلخیص و الاکمال.

۲. قد جاءت صورة هذه الاجازة فی الضمائم.

۳. عبدالحسین علوان الدرویش، ص۵.

مخطوطاته و وصل عددها إلى ٧٠ عنواناً، و قد تُرجِمت بعض هذه الأعمال إلى اللغات الأوردية و التركية و الإنجليزية و الفرنسية و الألمانية و الإسبانية و الروسية.[١]

و الشيخ عبد الحميد القطيفى الخطى، و كانت له أنشطة ثقافية فاعلة فى منطقة القطيف، و كان مسؤولاً هناك عن الحكم بالفقه الجعفرى .

و الحومانى الذى أشاد فى كتاب « وحى الرافدين» فى الرسالة الخامسة بمدح نادر للشيخ، و ذكر أنّه كان تلميذاً للشيخ فى مادة الفلسفة.[٢]

ج- آثاره العلمية و التى- مع الاسف الشديد- لم تنل ايدينا الا القليل منها:

- *تفسـير القرآن الكريم:*

١. اسرار التنزيل

٢. تفسير آيات الاحكام

٣. رسالة فى تفسير آية الوضوء

- *علوم الحديث و الرجال:*

٤. رسالة فى توثيق « عمر بن حنظلة»

٥. رسالة فى عدم كفاية تصحيح الغير

٦. شرح مشكلات « الكتب الاربعة»

٧. «صحيح البخارى» و الكتب الاربعة

٨. معضلات علم الرجال

- *الفقـه:*

٩. تعاليم الاسلام

١٠. التعليقات على « تبصرة المتعلمين فى احكام الدين»

١. نفس المصدر، ص٧٩.

٢. محمدهادى الدفتر، ص١٥٩ و ١٦٠.

١١. التعليقات على « جواهر الكلام»

١٢. التعليقات على « نجاة العباد»

١٣. جامع المسائل در مهمات اصول دين و مذهب و فروع دين (بالفارسية)

١٤. الحقوق فى الاسلام

١٥. رسالة احكام الربا

١٦. رسالة احكام العلم الاجمالى فى افعال الصلاة

١٧. رسالة ذخيرة الصالحين

١٨. رسالة طريق النجاة

١٩. رسالة مناسک الحج (ترجمت بالفارسية و الاوردية)

٢٠. رسالة وسيلة النجاة (بالفارسية، ثم ترجمت بالاوردية)

٢١. السياسات [السياسة] الاسلامية

٢٢. شرح « المكاسب»

٢٣. الفقه الارقى فى شرح « العروة الوثقى» (هذا الكتاب من اهم كتب الشيخ الفقهية و انما الموجود جزء واحد منها و هو فى الواقع مقدمة لشرحه)

٢٤. فقه الاسلام

– اصول الفقـه:

٢٥. فلسفة الاجتهاد و التقليد

٢٦. الاصول العملية

٢٧. التعليقات على « الرسائل»

٢٨. التعليقات على « كفاية الاصول»

٢٩. حجية الظن الاطمئنانىّ

٣٠. حقائق الاصول

- الفلـــــسفة:

٣١. « ابن سينا» خالدٌ بآثاره و خصاله

٣٢. التعلـــيقات على « الاسفار»

٣٣. التعليقات على « الاهيات الشفاء»

٣٤. التعليقات على « حكمة الاشراق» للسهروردى الزنجانى

٣٥. تطور الفلسفة (و هو اهم كتب الشيخ فى الفلسفة، و لمّا نجده مع الاسف الشديد)

٣٦. التعليقات على « شرح الاشارات» للطوسى

٣٧. التعليقات على « منطق الشفا»

٣٨. التوفيق بين آراء اهل التحقيق

٣٩. حاشية « اللئالى المنظومة»

٤٠. دروس الفلسفة ١و٢

٤١. روح الفلسفة

٤٢. كتاب النفس

٤٣.« الكِنْدى» خالدٌ بِفَلسفتِه (رسالة الفيلسوف الكِندى)

٤٤. محاضرات فى الفلسفة (محاضرات الفلسفة)

٤٥. نظرة فى نظرية النسبية لِاينشتاين

- علم الكلام:

٤٦. الاديان و الاسلام

٤٧. برهان الامامة

٤٨. التعليقات على « الشوارق»

٤٩. الجواب (الاجوبة) عن اسئلة « دولت بندت رام الهندوسى»

٥٠. ردّ المذاهب المبتدعة

٥١. رسالة فى المعاد الجسمانى

۵۲. رسالة فی المعراج

۵۳. رسالة الوحی و الالهام [فی بیان الاشراق الشیعی]

۵۴. عصمة الانبیاء و الائمة

۵۵. کتاب التوحید (کتاب العقائد) او توحید الزنجانی فی اصول الدین

– *فی العلوم الغریبة و الریاضیة و غیرهما:*

۵۶. التعلیقات علی « تحریر اقلیدس»

۵۷. التعلیقات علی « شرح تذکرة البِرجَندی»

۵۸. التعلیقات علی « مفتاح الحساب»

۵۹. الکامل فی اصول عقد الأنامل

۶۰. الجامع فی الجفر و الرمل و الزایرجة و الاوفاق

– *فی المنطـق:*

۶۱. المنطق الحدیث

۶۲. التعلیقات علی « شرح المطالع»

۶۳. التعلیقات علی منطق « شرح الاشارات»

۶۴. شرح « الایساغوجی»

– *فی مباحث شتی:*

۶۶. صفحة من رحلة الامام الزنجانی و خُطَبه فی الاقطار العربیة و العواصم الاسلامیة (فی المجلدین و المجلد الثانی یشتمل علی خطب الزنجانی، و مؤلفه هو محمدهادی الدفتر)

۶۷. الاسلام دینُ الاجتماع

۶۸. التعلیم فی الاسلام

۶۹. التربیة الاسلامیة

۷۰. الاقتصاد الاسلامی

۷۱. منتخب الرسائل

۷۲. الاخلاق الاسلامية

۷۳. الوحدة الاسلامية او التقريب بين مذاهب المسلمين

۷۴. الاِعداد الروحی للجهاد الاسلامی فی فلسطين (الخطبة النارية)

۷۵. « الفرج بعد الشدة»

۷۶. المُثل العُليا، محاضرات الامام الزنجانی (لله الامثال العليا)

۷۷. الی دُعاةِ الوحدة و الاصلاح

۷۸. واجبُ الامة و واجبُ العلماء

۷۹. القران الكريم و علومُ الحياة

۸۰. ذكری مولدِ الرسول

۸۱. عظيمُ الاسلام علی بن ابی طالب عليه السلام

۸۲. النَهضةُ الحسينية

۸۳. المعجزة الخالدة

۸۴. فلسفةُ الخاتمية

۸۵. الاسلام و مُؤتمرُ السِّلمِ العامّ

۸۶. مربِّی البشر

۸۷. الاصلاح الدينی

۸۸. وَ إذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ...

۸۹. ليلةُ الإسراء

و هذا الفهرس هو اكمل الفهارس – الی الآن– لآثار الامام الزنجانی؛ رضوان الله تعالی عليه و جزاه عن الاسلام و اهله خير الجزاء و اوفر الجزاء.

المحقق الاقلّ، علی‌رضا مهران‌فر– زنجان ۱۴۴۵هـ

كلمة الناشر

فى الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله و الصلوة و السلام على خير خلقه محمّد و آله

يسرّنا أن‌نقدم إلى جمهرة الفقهاء و العلماء الأعلام الطبعة الثانية للجزء الأول من كتاب « الفقه الأرقى فى شرح العروة الوثقى» بعد أن مضت مدة بعيدة على نفاد نُسَخ طبعته الأولى.

و من الجدير، القول بأن هذا الكتاب هو الأول من نوعه فى ما أخرجته دور الطباعة من أسفار فى علم الفقه الإسلامى، و ذلک لأن مؤلفه الإمام آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الزنجانى هو أول من بحث صريحاً من دون تقية فى ما يتضمنه الفقه الإسلامى من حقائق علوم الحياة و إهتمّ متّجهاً إلى الحقائق الفقهية الراهنة من تعاليم الإسلام الخالد العام فى هذا الكتاب على سياق برهانى دقيق واضح للحس و العيان فى إسلوب سلس يفهمه حتّى القارئ العادى، و بذلک خدم الإسلام و علم الفقه خدمـة خالدة. و ليس هذا عليه بكثير فإنه الوحيد فى أقداره العلمية الفذة التى قدهيّأت له الإحاطة بالعلوم العقلية و النقلية بأسرهـا، و بدقائق أسرار التشريع الوارد فى كتاب الله المعجز الخالد و سنّة رسوله و خلفائه الأئمة الكرام عليهم السلام، كما هيأت له أن‌يظهر هذا الكتاب الممتاز بإحكام الوضع و إتقان البحث و حسن الترتيب و التعرض بما كان متروكاً فى كتب علم

الفقه فى محيط الجمود قبل نصف قرن فى حُلة بديعة شملت من علم الفقه كل حقيقة و نَأت عن كل نقيصة. و قد أُورد فى المقدمة من هذا الكتاب إثنا عشر مطلباً من أهم المباحث الدينية و المبادئ الفقهية التى توجّهت فى هذا القرن همم الكثيرين من علماء المسلمين فى الأقطار العربية و الإسلامية إلى الإشتغال بتفاصيلها و الإهتداء بالسنن الإسلامية الصحيحة و صوّر هـذه المطالب على صورة مبتكرة رائعة جمعت اليها حقائق دينية و علمية فيهـا ما يقنع المطالع بأن هذا الكتاب هو عصارة دراسات التشريع الإسلامى و أسراره المخزونة عند الراسخين فى العلم و خلاصة التجارب و الآداب و الحقائق التاريخية المتناثرة فى مختلف الكتب المعتبرة من سيرة الرسول الأعظم و سنّته و المأثورة عن وصيّه المعظم و آله الأئمة الأبرار عليهم السلام، و يتيح له أنيدرک أن علم الفقه قدتزحزح عن موقفه الجامد المحاط بظروف التقية و التقليد و المجاملة و البيئة القاهرة، الذى جعله هدفاً للأنتقاد فى القرون الأخيرة و أوجب انحطاط المسلمين.

مع العلم بأنه لايدعو إلى جديد أو تجديد و لكنه يرجع بالمسلمين عامة و فقهائهم خاصة إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً لا رغبة فى التأخر و الإرتجاع و لكن ليتمتعوا بأنوار الفقه الكامل و المدنية الإسلامية الزاهرة التى شعّت فترة من الزمن فى صدر الإسلام فأضاءت الكون بسراج وهّاج.

و هو لايدعوهم إلى التسامح فى دينهم بل يصرّح بأنّ التسامح فى الدين هو الذى أخفى جوهره اللامع و أوجب تخلل البدع فى تعاليمه التى عند بعض المسلمين، و سبب الإنتقاد و الإختلاف و التفرق شِيَعاً و أحزاباً، و يدعو المسلمين إلى التصلّب فى الدين الصحيح و رفض التسامح فيه و ما تركه من الآراء المفرقة و يحثهم على معرفة حقائق الإسلام على صورةِ ما أنزله الله على رسوله محمّد صلى الله عليه وآله لكى يصدقها العقل.

و هو يبرهن أيضاً على أن الإجتهاد فى زمن الغيبة من لوازم الدين الإسلامى العام الخالد، و لايجوز سدّ بابه لأنه رمز لخلود تعاليم الإسلام الثابتة بجوهرها التى لن تتغير أبداً، و هذا الخلود قائم على التجديد و التطور فى ملابساتها و أساليب أشكال تطبيقها على أساس العلم الصحيح بالكتاب والسنة، و التفكير البرهانى الحرّ المرتكز على ملكة الإجتهاد فى إستنباط الأحكام الشرعية للحوادث المستجدة فى العالم إلى آخر الدنيا عن أدلتها الإلهية.

و ينبغى التنبيه على أنه لميمكن أنيطلب من الإمام الزنجانى أن يعيد النظر فى مباحث هذا الكتاب الذى ألفه قبل نصف قرن[١]، لا لأنه يكره الرجوع إلى ما ألف أو أملى سابقاً فحسب، بل لأنه من ضيق الوقت و كثرة العمل و إزدحام الواجبات من الدرس و البحث و التأليف و القضاء و الإفتاء و أجوبة المسائل و قضاء الحوائج و السَهر على المصلحة العامة و شؤون المسلمين كافة بحيث يشفق عليه منها عارفوه من قريب و يتمنون أن يهيئ الله له بعض الراحة و الهدوء حيث لا راحة له فى غير الإستزادة من العمل و من النجاح الذى يلازم العمل، مضافاً إلى انه مدفوع إلى الأمام لايستطيع أن يقف او يستقر فضلا من أنيلتفت إلى ما مضى أو يعيد النظر فى كلام مضت عليه عشرات الأعوام، و هو لايجد وقتاً يمكنه من أداء واجباته اليومية الكثيرة التى يقتضيها مركزه الدينى الأعلى و يتطلّبها مقامه العلمى السامى على وجهها.

و من الجدير بالذكر أن بعض الأعلام أرادوا أنيظهر الإمام الزنجانى من الحرص على آثاره و مبتكرات آرائه و مؤلفاته أكثر مما أظهره إلى الآن لأن مؤلفاته و آرائه و كلماته قداستغلّت عند بعض الباحثين و المؤلفين و الكُتّاب إستغلالا يتفاوت فى الأمانة و الخيانة دون أنيشير المستغلون إلى ما إستغلّوا منها فأظهروا أنهم مبتكرون؛ فأجاب الإمام الزنجانى قائلاً:

" إنى أزهد الناس فى أنيعرف لى السبق إلى رأى من الآراء او عمل من الأعمال، و يدفعنى إخلاصى فى العلم و العمل إلى أنأبيح للناس أنيأخذوا و أنيستغلّوا، بل أجد سعادة لاتعد لها سعادة حين أراهم يأخذون و يستغلون آرائى، و ليس يعنينى أنيشيروا إلى أنها لى و إنما يعنينى أنأكون نافعاً لهم و للجميع و للإسلام و الإنسانية."

و صفوة المقال أن هذا الكتاب يكشف من سموّ الفقه الإسلامى ما لايكشفه كتاب غيره، و لانظنّ ان الفقه الإسلامى وجد مدافعاً عنه أكثر غيرة عليه و أدقّ نظراً فيه من الإمام الزنجانى، أثابه الحق على عمله الطيب.

و ان مباحث هذا الكتاب منتخبات جواهر ثمينة من علوم الدين. قُدّمت فى أنسب الظروف و الأحوال لِعامة العرب و المسلمين، بل الناس اجمعين، فان نفعت فذاک ما نبتغى و نتمنّى، – و المنة لله تعالى– و إلا فما هى بأعظم من كتاب الله العظيم الذى نبذه الناس ظهرياً، « و قال

١. و هذه المقدمة للطبعة الثانية فى سنة ١٣٨٠هجـ و كانت طبعته الاولى فى سنة ١٣٣٢هجـ .م

الرسول يا رب إنّ قومی اتخذوا هذا القرآن مهجوراً»، (الفرقان/٣٠) و ما يضرّون إلا أنفسهم لو كانوا يعقلون.

« ... فبشّر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئک الذين هداهم الله و اولئک هم اولوا الألباب» (الزمر/١٧و١٨).

الناشر

السيد محمدسعيد آل ثابت

كلمة ناشر الطبعة الأولى

فى سنة ۱۳۳۲ هجـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مرّت عدة أعوام بالمسلمين حافلة بأحداث جسيمة من إجتماعية و دينية و سياسية اوجبت تحوّلاً عظيما فى تأريخ الشرق الإسلامى، و ظهرت خلالها فتنة عمياء اوجدها وحى الكفار و عمّت الأقطار الإسلامية و كانت من ضحاياها عدة من أعلام المسلمين.

و بينما كان الإسلام يصرخ فى وجه كل مسلم و يندبه للجهاد فى سبيله و المسلمون بين مستسلم للحوادث و بين متحفزيهم و يحاذر أنيخفق و لميظفر بناصر قوى الإيمان و الإرادة، كامل العقل و التجارب لاتأخذه فى الله لومة لائم، إذ دوى هذا الشرق بإسم عظيم قيضه الله فى هذه الغمرة القائمة مصباحاً لآلاء يبعث بنور علمه إلى جميع الجهات فتنفذ أشعتها إلى القلوب فتنيرها و إلى النفوس فتجعل آفاقها وضّائة، و انحصرت فيه الرئاسة الإسلامية العامة الكبرى، فاستنقذ الإسلام من براثن البدع المستحدثة و احتفظ بِرَمقه الأخير، و هو « الإمام المجاهد آية الله العظمى السيد محمدكاظم الطباطبائى اليزدى» المرجع الدينى الأعلى فى هذا العصر، و مؤلف كتاب « العروة الوثقى فيما تعم به البلوى» الذى هو كنز جواهر علومه، و مستودع أسرار فقهه، و سجل إستنباطه و آرائه و أهم المصادر الفقهية و مرجع المجتهدين المستنبطين.

و إزدهرت فى عهده معاهد النجف الأشرف العلمية التى كانت منذ قرون و لاتزال تذكى فى

علماء الدين و طلاب علومه الشعلة المقدسة الخالدة و ترسل أشعة العلوم إلى مشارق الأرض و مغاربها، و التى تغص بالألوف من طلاب العلوم الدينية و الفلسفية العالية من جميع القارات، و بمئات الأعلام الفحول من أكابر الفقهاء و العلماء و الأساتذة الكبار و اعاظم المجتهدين الجاهزين للمناصب العليا و المستعدين لتربع منصة المرجعية العظمى يتقدمهم حجة الإسلام آية الله الإمام « الشيخ عبدالكريم الزنجانى» الذى هو الساعد الأيمن لرئيس المجتهدين السيد محمّدكاظم الطباطبائى اليزدى و تثنى للحجة الزنجانى وسادة بين يدى رئيس المجتهدين، و اصبح الزنجانى هو المرجع الثانى فى العلوم الدينية و الفلسفية و الأحكام الشرعية و الفتاوى الفقهية. فإن الإمام اليزدى يُرجع المشكلات اليه، و يدل عليه الخاصة و العامة ليسترشدوا برأيه و يهتدوا بهُديه؛ و لقد نوّه بهذا فى إجازته المكتوبة بخطّ يده و توقيعه و ختمه...

و كان من نتائج معاشرتهما الطويلة و مذاكرتهما الكثيرة، تأليف هذا الشرح المسمى بكتاب « الفقه الأرقى فى شرح العروة الوثقى » الذى يعتبر جزءاً راقياً من تأريخ الفقه الإسلامى و كماله و تطوّره الكائن فى جوهر عنصر هذا القانون السماوى الإنسانى الدائم الشامل الكامل، و مفتاحاً لتجديد اسلوب التأليف فى هذا الفقه، فإن هذا الكتاب يُرينا ألواناً جديدة من طرائق الإفصاح عن اسرار التشريع الإسلامى تحتلّ القلوب و الأرواح و يوجد فى مواضيعه آراء جديدة برهانية فى فهم الكتاب و السنة، و أفكار أبكار فى تصوير الحقائق الإسلامية على لوحة التشريح و التحليل فى ضوء الأدلة الشرعية و العقلية لميسبقه إليها سابق فيما نعلم، مصوغة فى اسلوب جميل جذاب، بإيجاز يفوق فى وضوحه كل إطناب، و كثير منها تحف لمتفتق رتق سمع و لميدرس مثلها فى جمع، و فى بعضها يحس القارئ أن ضوءاً جديداً منبثقاً عن كتاب الله و سنة رسوله ﷺ قد سطع على موضوعات قديمة مألوفة، فإذا الحقائق الفقهية و الأسرار التشريعية المحتجبة وراء ستار من الأساليب الملتوية المعقدة قد تجلت واضحة جلية.

ولنكتف بهذا الإجمال، و نتفادى من تفصيل المقال، لكىيتسنى للقارئ الكريم التأمل الصامت فيما تقع عليه العين من روائع هذا الكتاب. فإن الأجدى عليه أنيتسلاها نظراً مِن أنيتروّاها خبراً.

و الله ولى التوفيق

(الناشر)

مقدمة

الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف أنبيائه

و خاتم رسله محمّد و آله الطاهرين.

أما بعد: فيقول المفتقر إلى رحمة ربه الغنى عبد الكريم الزنجانى – ختم الله له بالحسنى–: إنّ من نِعم الله – عزَّ و جلَّ– علىّ أنيخصنى فى عنفوان شبابى السيد السند، و الفقيه الأوحد، المرجع الدينى الأعلى للمسلمين، استاذ الفقهاء و المجتهدين الأعاظم « السيد محمّدكاظم الطباطبائى اليزدى» – مد ظله– برغبته السامية المؤيدة لإقتراح جماعة من عيون العلماء الأعلام و ثلة من فحول الفقهاء العظام، على أن أُعلّق على مؤلَّفه الشهير كتاب « العروة الوثقى فى ما تعمّ به البلوى» تعليقاتٍ توضح مداركه و مقاصده و تكمل أهدافه و فوائده، بعد أن طالعنى ببعض آرائه فيه و إستأنس برأيى القاصر و إستورى زنَدى الفاتر و هو مع ذلك صاحب الرأى الذى إنتهت اليه الأصالة، و القول الذى اندمجت فيه الدقة مع الجلالة، فحمدتُ الله على ما أنعم نعمة لانُحصى شكرها و لانَنسى ذكرها و لمأجد من إجابتهم مفيصاً، فشرعتُ فى التأليف فى مطلع العقد الرابع[1] من القرن

---

١. أى اول العشر الرابع من القرن الرابع عشر هجـ (عام ١٣٣١ هجـ) و هو فى السابع و العشرين من عمره الشريف! م

الرابع عشر الهجرى، حامداً لله – جلّ شأنُه– و مصلياً على نبيه الخاتم ﷺ و مسلِّماً على وليه الذى نلوذ بجوار قدس روضته فى النجف الأشرف – زادها الله شرفاً– و على أولاده الأئمة الأطهار، و مُبتهلا إلى الله – عزّ و جلّ– أن ينفع به الإسلام و المسلمين و يجعله ذخراً لى فى يوم الدين و يوفقنى لإتمامه، إنه خير موفق ومعين.

و الحمد لله ربّ العالمين.

مقدمة

فی بیان مقصد أساسی أهمّ، یلزم أنیعرفه طالب علم الفقه قبل الشروع فی دراسة مباحثه، نضع صورة موجزة منه أمام المقصود، فی اسلوب مشرق مقتبس من کتاب الله المعجز الخالد و سنة خاتم رسله ﷺ تسموا إلی سوامق من الصور الصحیحة، و توجز الحقیقة الراهنة عن فقه الإسلام و نطاقه الأوسع المحیط بعالم الإنسان و عظمة أهدافه العامة الشاملة الخالدة الدائمة المتکفلة لنوع البشر، سعـادة الدارین الدنیا و الآخرة، عسی أنیتبصّر بها الطالب و یعرف أن علم الفقه ثریّ جداً إلی حدّ الأعجاز و إن کان الوضع القدیم القائم فی تألیف الکتب الفقهیة الذی هو من بقایا آثار « عصور التقیة» یجعل من الصعب إبرازه فی جمیع تفاصیله علی أسلوب یرضی جمیع مطامع العقول فی هذا العصر، و یهتدی بنورها فی ظلمات الشکوک التی نشأت عن خطأ الفکرة من شرقیة و غربیة فی فهم الفقه الإسلامی و أسالیبه الإعجازیة فی جمیع الشؤون الأخرویة و الدنیویة، و طمت فی هذا الزمن الأخیر حتّی أیأست أهل الثقافة من کفایة هذا الفقه لمنح نوع الإنسان حیاته الکاملة الأبدیة فی آخرته و دنیاه، و حملتهم علی حصر دین الإسلام فی المعابد و المساجد علی غرار سائر الأدیان، بل نبذه فی أحسن معاقله و المضی فی أغراضهم الدنیویة.

و إن المؤلفین من فقهائنا الأعلام - قدس الله أسرارهم- الذین مِن بَحرهم نَغترف، و بکل الفضل لهم نعترف، و لهم سابقة التأسیس و فضیلة التقدم، و منهم التعلیم و وظیفتنا منهم التعلّم، قد

أوسعوه بحثاً و درساً و تأليفاً حسبما سمح لهم عصرهم، و إقتضاه زمنهم، و إضطروا بحكم التقية إلى إقتفاء أساليب فقه العامة الذى سيطر على العالم الإسلامى منذ أوائل القرن الثانى الهجرى، و عنى بقشور الفقه الإسلامى الجامدة، أكثر مِن لبابه الأصيل الطرىّ الممتد العام الخالد، لغرض فصله عن أغراض السلطة الزمنية التى كانت للخلافة الإنتخابية القائمة على أساس تأويل « آية المشورة» من دون التفات إلى صريح قوله تعالى « و شاوِرهم فِى الأمر» (آل‌عمران/١٥٩)، لا فى وليّ الأمر!، و قوله تعالى: « و أمرُهم شُورى بينَهم» (الشورى/٣٨) لا أميرُهم.

ثم صارت تلك السلطة لسلاطين الجور، فكان إستنباط فقهائهم مقصوراً على ما ينزل من الحوادث فى العبادات و المعاملات و بعض العقائد المذهبية فقط، لتجنُّبهم عن البحث فى شؤون المسلمين الدنيوية و سائر شؤون الدولة الإسلامية حذراً من السلطة المسيطرة، و لم‌يكونوا يتخيّلون مسائل لم‌تقع و يُقدّرون وقوعها و يبحثون عن أحكامها كما فعل المتأخرون و كان من بعض آثار هذا الجمود ظهور الضعف العام فى إنتاج الفكر الإجتهادى حين إستنباط الأحكام الشرعية. و إنتهى الأمر إلى فصل الدين من الدنيا، خلافاً لأغراض شارع الإسلام الشاملة للدين و الدنيا جميعاً .

فاضطرّ فقهائنا الأعلام أيضاً بحكم التقية إلى التأليف على طبق إسلوب فقهائهم، و إبتعدوا عن التصريح بل التعرّض فى مؤلفاتهم الفقهية بكثير مما له علاقة بشؤون الحياة الدنيا من تعاليم الإسلام، جَرياً على رغبات السلطة الزمنية الجائرة، و اقتصروا فى كتب الفقه على ذكر أحكام العبادات و المعاملات بمعناهما الأخص و التزموا بالتحذّر الشديد فى مباحث الجهاد و الحدود و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و أمثالها، و رغم ذلک التكتّم و التحذّر الشديد، نال بعضهم سعادة الشهادة، فقُتل الشهيد الأول و صُلب و أُحرقت جثّته الشريفة، ثم قُتل الشهيد الثانى و الشهيد الثالث و أمثالهم، قدس الله أسرارهم و جزاهم الله عن دين الإسلام خير جزاء المخلصين لدينهم.

فلا غرو فى إستمرار طابع الكتب الفقهية على شكله القديم حتّى القرون الأخيرة التى منّ الله تعالى فيها على أهل المذهب الحق بالكيان الثابت، فحينئذ أخذت المؤلفات الفقهية فى تطوّر تدريجى كان يتقدّر على مقدار تقلّص السلطة الجائرة فى بعض البلاد الإسلامية، و أخذ كل فقيه يؤلّف فى ناحية من علم الفقه كانت مألوفة فى عصره، أو ذات أهمية فى نظره، و الأحرى فى

ناحية إختصاصه فی بعض أبواب علم الفقه الذی إشتهر تعریفه بأنه « هو العلم بالأحکام الشرعیة الفرعیة عن أدلتها التفصیلیة»، و مرادهم من « الفرعیة» ما یتعلق بکیفیة العمل بلا واسطة، و البحث فی علم الفقه عن الأحکام الخمسة و هی الوجوب و الندب و الإباحة و الکراهة و الحرمة؛ و عن الصحة و البطلان، من حیث کونها عوارض لأفعال المکلفین من حیث الإقتضاء و التخییر، و أفعال المکلفین من نوع الإنسان تعمّ الأفعال الفردیة و الأفعال الإجتماعیة، من حیث هی خاضعة لأحکام الشرع الإسلامی القویم.

فأصبح لعلم الفقـه أبواب و أقسام و أجزاء حسب تنوّع أفعال المکلفین من فردیة و إجتماعیة، و دنیویة و أخرویة، و دینیة و زمنیة، أو فردیة فی منشأها و إجتماعیة فی نتائجها؛ فی التألیف و التعلیم و الإختصاص، نظیر علم الطب الباحث عن عوارض بدن الإنسان من حیث الصحة و المرض، و لکنهم قسموه علی أقسام و أنواع و أجزاء، حسب تنوع الأمراض و تعدد أجزاء البدن، لغرض سهولة التألیف و الدراسة و التخصص فی کل قسم منها مستقلاً.

و مِن المؤسف أنّ جوهر ذلک الطابع القدیم المبتنی علی فصل الدین و شؤون الآخرة عن شؤون الدنیا و الزمان، لم‌یتغیر فی المؤلفات الفقهیة و لم‌یفکر فقیه واحد فی و ضع کتاب جامع لجمیع أجزاء الفقه و أبوابه من عبادات و معاملات و حقوق و تربیة و تعلیم و أخلاق و إقتصاد و إجتماع و أمثالها من الأنظمة الزمنیة علی جانب الشؤون الأخرویة بعناوینها الصریحة المتمایزة!

و لکن بعض الأعلام الأفذاذ من فقهائنا العظام أمثال آیة الله العلامة الحلی و الخواجة نصیرالدین الطوسی و الشیخ بهاء الدین العاملی و المحقق الخونساری و المحقق القمی - قدس‌الله أسرارهم- جمعوا فی العمل بین السلطتین الدینیة و الزمنیة بأنهم أذنوا لمن توثقوا من عقیدته و عدله من ملوک الإمامیة فی أن‌یقوم بالحکم الزمنی تحت رعایة علماء الدین و إشرافهم و توجیههم عملا بقاعدة « المیسور لا یسقط بالمعسور» و فی حمایة تلک السلطة الزمنیة المشروعة قاموا بواجبهم الدینی فی نشر الإسلام الصحیح و الفقه الجامع لموجبات السعادة فی النشأتین. و لا ینقصه إلا التنظیم و تمییز المسائل الزمنیة و الدنیویة و تنسیق مباحث علوم الحیاة المبعثرة فی أبواب الفقه، بوضع علائم علیها و جمعها و تنظیمها فی أبواب مخصوصة فی علم الفقه، و کان السبب لهذا النقص أنهم -رضوان الله علیهم- إنصرفوا بجمیع قواهم إلی التألیف فی علم الکلام و فی إثبات أصول الإیمان التی کانت محجوبة بسیطرة الظلم و الطغیان عن العالم

الإسلامى لإعتقادهم بأنها أهم من الفروع العائدة إلى شؤون الحياة الدنيا و أجدر بالنشر.

فليكن اسلوبنا فى هذا الكتاب أنلانكترث بالتقية، و نُبيّن حقائق فقه محمّد و آل محمّد ﷺ و نكسوها حُلة من البيان تقرّبها إلى الأذهان، و تتقبّلها القلوب قبل الآذان، و تخرج بها عن التعقيد و الإلتواء و الجمود، و قصر النظر لكىتنفسخ هنـاک شبهات المشككين و ترتسخ فى النفوس أسس أصول العقائد و فروع الدين، و نختصر فى ما أسهب فيه الفقهاء و نسهب فى ما أوجزوا، أو أهملوا، مع إعذارهم فى الإيجاز أو الإهمال حيث ألجأتهم اليه قساوة الظروف، و مصالح الأوقات و الأزمنة و ضرورة الأوضاع الشاذة، و صعوبة الأحوال، و على الله الإتكال.

«إنّ هذِه تذكرةٌ فمَن شاءَ إتخذَ إلى ربِّه سَبيلا»[1] و

«إنَّ فى ذلکَ لَذِكرى لِمَن كانَ له قلبٌ أو ألقَى السَّمعَ و هُـو شَهيدٌ»[2]

١. المزمل/١٩.

٢. ق/٣٧.

المطلب الاول

فقه الإسلام و علوم الحياة

إعلم أنّ الفقه الإسلامى أكمل التشريعات الإلهية و أفضلها و أتمها و أجلها و أعظمها و أشملها و أشرفها و أوسعها نطاقاً فى الأحاطة بكل ما يَحتاج اليه نوع الانسان على اختلاف عناصره إلى آخر الدنيا من الأحكام التعبدّية و الشرايع الدينية و الأنظمة الزمنية و الدساتير العامة و القواعد الشاملة و النواميس الفطرية و الحقوق الطبعية و الوضعية و قوانين الأخلاق و التربية و التعليم، و روح مناهج العلوم الإجتماعية و الإقتصادية و لباب حقائق سائر العلوم التى يرجح الناس إليها فى تحقيق العناصر التى تتقوّم بها الحياة كل ذلک على نهج فطرى مألوف و أسلوب طبيعى سهل عملى يدور على محور المُثل العليا للدين و للحقيقة الإجتماعية الكبرى من دون تَزاحُم بينها فى التطبيق، بحيث يمكن أن يعتبر ما جاء فى هذا الفقه ببساطة فطرية و فى مصادره الإلهية التى فيها تبيان كل شيء من الحقائق الراهنة أصلاً و أساساً للعلوم الحادثة فى الملة، التى جاءت بعده بقرون فى هذا العالم، و إتخذت من وضع الواضعين أو المترجمين صوراً و أشكالا قديمة أو حديثة و مصطلحات علمية مخصوصة، و وضعوا لها أسماء و أصولا قرّرتها هذه العلوم لا الحقيقة نفسها، و لأجل ذلک تخالفت هذه العلوم الحديثة فى مرحلة التطبيق.

فعلم الإقتصاد الحديث مثلا و هو علم المنفعة و زيادة الإنتاج و يحض على الأثرة لايجتمع

مع علم الأخلاق الذى يحض على الإيثار و التضحية و التآزر؛ و علم الأخلاق الحديث يقول على الإطلاق، « هذا حسن فيجب أن‌تفعله و لاتفعل سواه»؛ و أما علم النفس الحديث الذى يبين لنا كيف نفكر، كما أن علم المنطق يبين كيف ينبغى أن‌نفكر فيقول لكل فرد عليحدة « إن كان فى مقدورک أن‌تفعله فإفعله، و إن‌لم‌تفعل فأنت ملوم، و إن لم‌يكن مقدوراً لک فأنت معذور»، فيتنافيان.

و ذلک لأن علم الأخلاق الحديث يعنى بالحكم على تصرفات الناس من ناحية الخير و الشر، و يحدد معنى الفضيلة و الرذيلة حداً ناقصاً، و يحث الناس على إتّباع الأولى و تجنُّب الثانية، و يحملهم على نشد المثل العليا للسلوک من غير ادنى اعتبار لتعدد جوانب كيان الفرد البشرى تكويناً، و لا لظروف الفرد التى تدفعه إلى التصرف تصرفاً خاصاً قدلايرضى هو بأن‌يقوم به إذا تغيّرت الظروف و بدون أىّ تقدير لطبيعة البيئة و سلطانها على نفس الفرد، و هو كذلک يتجاهل الفوارق بين عقلية الأفراد و الجماعات و الأجناس و نزعاتهم، و سائر إستعداداتهم التى تتحكم فى سلوكهم.

و أما علم النفس الحديث فيرى أن الفضائل و الرذائل هى مسائل إعتبارية تختلف قيمتها بأختلاف ظروف الأفراد و طبيعة البيئات و الدرجة التى وصلت اليها من العلم و الثقافة و التهذيب، فسرقة الفرد الواحد شيئاً من ملک غيره رذيلة و جريمة يعاقب عليها القانون الوضعى فى البلاد المتمدنة بهذه العلوم الحديثة و لكن إغتصاب دولة عظمى بلداً صغيراً و الإعتداء على حريته يعدّ فى نظرهم نصراً سياسياً يتغنون به، فعلم النفس الحديث لايدرس نتيجة التصرف فى ذاتها و لايحكم عليها من ناحية الفضيلة أو الرذيلة، و إنما هو يدرس إستعدادات الشخص التى توجه سلوكه، و الظروف التى تحيط به فتحدد تصرفاته و تتحكم فيها، و هو يعتبر الرذائل أموراً اعتبارية نسبية و نقائص خلقية أو أمراضاً نفسية تجب معالجتها. فالتخالف موجود بين العلوم الوضعية أنفسها و منشأ هذا التخالف أنها علوم ناقصة مبتورة ضيقة مادية محضة و حالكة بل وَبال على البشرية كما أن الإختراعات الحديثة محصورة فى عالم الجماد و لاتتجاوزه إلى عالم النبات فضلا عن عالم الحياة.

و أما حقايق هذه العلوم و نتائجها و أغراضها المقررة فى الإسلام فهى متوافقة جداً و لايوجد أقل إختلاف بينها فى مرحلة العمل. فإن الدين الإسلامى مؤسس على واقع الفطرة الإنسانية و على أن حياة الإنسان الجسدية لاتنفصل عن حياته الروحية و العقلية، و مشاعره الروحية

لاتنفصل عن واقعه المادى مادامت النفس الناطقة المجردة ذاتاً و المفتقرة إلى جوارح البدن فى أفعالها، متعلقة بالبدن فى نشأة الدنيا، و تفكيره العقلى مرتبط بالجميع. فتشريعات الإسلام كلها من العبادات و أنظمة الحياة مفيدة للروح و مفيدة للجسد معـاً، و لأجل ذلک أصبحت تعاليمه فى العبادات و المعاملات، و أساليبه فى التربية و التعليم و الأخلاق، و أنظمته فى الإقتصاد و الإجتماع و الحقوق و السياسة و الحرب و السِّلم و نحوها متناسقة و متآلفة لدرجة الإعجاز. فإن الإسلام لايفصل فى تشريعاته بين الجسم و الروح و العقل، بل يأخذها مترابطة فى واقع الحياة و فى المطالب و الحاجات و يرسم لها دستوراً على ذلک المتحد، و يجارى الفطرة فى تركيبها المجموعى، و يعالج بتشريعاته حاجات النفوس و حاجات العقول و حاجات الأبدان فى وقت واحد و بعمل واحد، و يستظهر هذا مِن الكلمة المأثورة، « صوموا تَصحُّوا»[1]، يعنى ان الصوم الذى هو عبادة توقيفية و تعبدية محضة و يجب فعله إمتثالا لأمر الله تعالى و للتقرب إليه، و يبطل إذا قصد به الحمية أو الصحة، فلهذا الصوم أثر وضعى و خاصية لازمة تتحقق بفعله من دون أنيقصد حصولها به، و هى الصحة، فالصوم مفيد للروح و للبدن معاً. و كذلک الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر، و هى عمود الدين و معراج المؤمن، و هى تشمل الروح و الجسم فى آن واحد.

و هكذا يتمشّى القول فى الإقتصاد الإسلامى، فإن الإسلام يحتم على الفرد المكلف أنيسعى للرزق و أنيفكر فى منفعة نفسه و يطلبها بشرط أنلاتضر غيره، و المنفعة بهذا الشرط صورة عملية للعدل الذى هو رأس مكام الأخلاق، كما أن العدل صورة خُلقية للمنفعة.

و الإقتصاد و الأخلاق المقرران فى الإسلام متفقان فى مكافحة كل مَن يميل إلى الإسراف و التبذير، و فى تشجيع انظمة التوفير لمكافحة الفقر الذى كاد أنيكون كفراً، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، و كل عمل للدنيا بقصد الخير يتجه به الإنسان إلى الله و يقصد به التقرب إلى الله تعالى فهو فى عرف الإسلام عبادة بالمعنى الأعم للعبادة، و « إنما الأعمالُ بِالنيات» و « لِكلِّ امرئ ما نَوَى»[2]، و « و إنَّه لِحبّ الخَيرِ لَشديدٌ» (العاديات/٨) ، و المادة فى نظر الإسلام مقدمة لتهذيب النفس و تقوية

١. نقل عن النبى الاعظم ﷺ فى « دعائم الاسلام»، ج١، ص٣٤٢، و « عوالى اللئالى»، ج١، ص٢٦٨، و « الدعوات»، ٧۶/ ح ١٧٩ و عنه « البحار»، ٥٩/٢۶٧، ح۴٥.

٢. كلا القولين فى ضمن حديث واحد عن النبى الاعظم فى مصادر الامامية و العامة، اما الشيعة ففى البحار، ج۶٧، تتمة ابواب مكارم الاخلاق، باب٥٣، النية و شرائطها ....، عن عوالى(غوالى) اللئالى، ج١، ص٨١، عن النبى الاعظم ص. و كذا يوجد الحديث فى الوافى، ج۴ ، و المستدرک، ج۴ و ج١، و منية المريد، و تهذيب الاحكام، ج١، و دعائم الاسلام، ج١ و ... . م

الروح، و أما حب الدنيا المجردة من هذا القصد و النية فهو فى الإسلام رأس كل خطيئة، و سبيل لنيؤدى إلا إلى غايات منكرة من الجمود فى العقل، و الخبث فى النفس، و إلى التعسف و النكاية، و الفجور فى الحكم و المعاملة، و الفساد العريض، و الحرب الضروس.

ثم إن زيادة الإنتاج لغرض الخير تساعد على نشر التربية الخلقية التى فيها تظهر الرابطة الإسلامية بين العِلمين، النفس و الأخلاق، لأن معالجة مرضى الأخلاق و هدايتهم إلى الطريق القويم و الصراط المستقيم تحتاج إلى معرفة طبايع نفوسهم و دراسة نزعاتهم و ميولهم، فالدواء لابد أنيكون على قدر الداء و على مقدار استعداد جسم المريض و منزلته فى النمو، و المريض مرضاً خلقياً مريض النفس فلا بد لمن يريد علاجها أنيعرف استعدادها و منزلتها فى القوة و الضعف، و ليس من يقول أن علاج الطفل مثل علاج البالغ، أو أن علاج الشاب مثل علاج الشيخ، و من الحمق أنيُصدر المعالج أحكاماً خُلقية متساوية على الأطفال و البالغين و العقلاء و مضطربى الأعصاب.

و سنشير فى المطالب الآتية إلى بعض ما جاء الإسلام به فى تشريعاته من حقائق علوم الحياة الدنيا على غرار آداب و كيفيات و أشكال و أساليب للأعمال و الأفعال لا بعنوان الإسم الذى وضعه البشر لكل عِلم مِن هذه العلوم، لان هذا الإسم يناسب النظريات الناقصة و يسبب الإختلاف فى الإعتبارات و يجلب التزاحم، و يناسب الطبقة الراقية و لايفهمه الجميع، و أما حقائق هذه العلوم المقررة فى الإسلام فإنها تورث صلاح النفس و تكامُلَها و تبلغ بالفرد إلى المعارف الإلهية و السعادة الدنيوية و الأخروية، فالعلوم الإسلامية كاملة و لكن العلوم الحديثة ناقصة و التنافى بين النقص و الكمال سيزول اذا تَكامل العلم الحاضر الناقص. و « لله الامرُ مِن قَبلُ و مِن بعدُ» (الروم/۴).

و يوضح ذلک أن الاسلام لغرض مكافحة الفقر، جعل الفقراء و المساكين بمنزلة الشركاء مع الاغنياء فى مقدار الزكاة و لكنه لميطلق عليهم اسم الشركاء بل اعتبرهم موارد لصرفها. فأمر مالک النصاب بدفع مقدار الزكاة عيناً أو قيمة إلى الفقراء و المساكين و غيرهما من الموارد المبيَّنة فى القرآن الكريم، و المفهوم منه أن شارع الإسلام قرّر حقاً للفقراء متعلقاً بمالية المال الزكوى، و هذا ليس من الإشتراكية البشرية المستحدثة كما زعمه الجاهلون بالحقائق الإسلامية.

و من المعلوم أن الإسلام دين العدالة و من لوازمها المساواة و الحرية بمدلولها المحدود فى

الإسلام و لكن لم‌ترد فى القرآن الكريم ألفاظ المساواة و الحرية و الوطن و الادب و الراية و الإستقلال و الإشتراكيـة و نحوها من الألفاظ المتداولة بين الامم المتمدنة و الامم المقلدة لها لكى–لاينتهى الناس إلى الفوضى فى تفسيرها، و إنما وردت مفاهيمها المحدودة المتناسبة مع دين الفطرة العام الخالد.

عود إلى بدء:

و الحاصل أن الفقه الإسلامى، قانون إلهى جامع لجميع مناهج الحكمة العملية الإسلامية العظمى، و تشريع عام أبدى يوصل نوع الإنسان إلى كماله الأعلى، و إلى السعادة المزدوجة فى الآخرة و الدنيا، و هو المظهر الحسى للإسلام فى الأمة الإسلامية التى هى مجموعة شعوب العالم فى نظر الشارع، و هو خلاصة التعاليم الإسلامية المقررة فى كتاب الله المعجز الخالد الذى فى أيدى الناس، و لم‌تَنَله يدُ التحريف بالزيادة أو النقصان اصلاً، و فى سنة رسوله خاتم الانبياءﷺ التى جعلها الله مرجعاً فى العقائد و التشريع مثل كتابه المنزل. و لذلک أجمع المسلمون على أن السنة مفتاح للقرآن، و النبراس الذى يهتدون به إلى كشف حقائقه، و الوقوف على دقائقه، فإن القرآن ينبوع الشريعة و عماد الدين، و المصدر الأعلى للأحكام الدينية، و قد حوى عِلمَ كل شىء، قال الله تعالى: « ما فرَّطنا فِى الكتابِ مِن شَىءٍ» (الانعام/٣٨)، « و نزَّلنا علیکَ الکتابَ تِبیاناً لِکلِّ شىءٍ» (النحل/٨٩)، « الیَوم اکمَلتُ لَکُم دِینَکُم» (المائدة/٣)، و منصب الرسالة منصب التبليغ عن الله تعالى و البيان لأوامره و نواهيه، قال الله تعالى: « یا أیُّها الرَّسولُ بلِّغ ما أُنزِلَ إلیکَ مِن ربِّکَ و إنلَم‌تَفعل فَما بَلَّغتَ رِسالَتهُ وَ اللهُ یَعصِمُکَ مِن النّاسِ» (المائدة/٦٧) ، « و أنزَلنا إلیکَ الذّکرَ لِتبینَ للناسِ ما نُزّلَ إلیهِم» (النحل/٤٤)، فمِن ثَمّ كانت السنة واجبة الإتّباع، و نحن اذ نستمسک بالسنة و نعمـل بها إنما نعمل بكتاب الله، و لم‌يكن النبى ﷺ فى ما يصدر عنه مِن قول أو فعل أو تقرير إلا صادراً عن الوحى، «و ما يَنطِقُ عَن الهوَى* إن هُو إلا وَحىٌ يُوحَى» (النجم/٣و٤)، إلا أن الوحى قسمان، وحى مَتلوّ و هو القرآن، و غير متلوّ و هو السنة، و مَن أراد حقيقة الحكم من كتاب الله فليستضئ بسنة رسوله ﷺ و قد ضل أقوام و أضلوا، لأنهم نبذوا سنة الرسول ﷺ و قالوا، فى كتاب الله تبيان كل شىء فما حاجتنا بالسنة؟ و ظنوا خطأ أنّ نَظرَهم المجرد يكفيهم فى الوصول إلى مقاصده، و الله تعالى يقول: « هُو الّذى أنزلَ علیکَ الکتابَ مِنهُ

آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكِتابِ و أُخَر مُتَشابِهاتٌ فأمّا الّذينَ فى قلُوبِهم زَيغٌ فَيتّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنهُ إبتِغاءَ الفِتنةِ و ابتغاءَ تأويلِه و ما يَعلمُ تأويلَهُ إلا الله» (آل‌عمران/٧)، فلا مسوغ لهؤلاء القوم أن‌يقفوا عند ظواهر الكتاب و لايسترشدوا بنور النبوة و هدى الرسالة، و القرآن يأمر بإتّباعها و يتوعّد على مخالفتها، قال الله تعالى: « و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و إحذروا» (المائدة/٩٢) و قال تعالى: « مَن يُطعِ الرَّسولَ فَقد أطاعَ الله» (النساء/٨٠) و قال: « وَ ما آتاكُم الرَّسولُ فَخُذوهَ و ما نَهاكُم عَنهُ فَانتَهُوا» (الحشر/٧) و قال – جلّ شأنه–: « فَليَحذَرِ الّذينَ يُخالِفونَ عن أمرِه أن‌تُصيبَهُم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليمٌ» (النور/٦٣)؛ و هذه الآيات أدلة كافية على حجية السنة و وجوب الرجوع اليها، و قد تَحدثَت النبوة عن ذلک ممـــا أوتيَت مِن الغيب، و نَعى رسول الله ﷺ على مَن ردّ سنة صحيحة فقال ﷺ: « يوشک رجل منكم متكئاً على أريكته، يحدّث بحديث عنّى فيقول: " بيننا و بينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حرام حرّمناه"؛ ألا و إن ما حرّمه رسول الله مثل الذى حرّم الله."»

ثم لا خلاف لأحد مِمن يُقام لرأيه وزنٌ فى أن السنة اذا ثبتت و صحت عن رسول الله ﷺ يجب الأخذ بها و العمل على مقتضاها و لكن دون اثباتها خرط القتاد، فإن الأمة العربية كانت أمّيّة كما يشير اليه قوله تعالى، « هُو الَّذى بَعثَ فى الأُمِّيينَ رَسولاً مِنهُم» (الجمعة/٢)، و الأمى بحكم إعتماده على قريحته و ضعف تعويله على غيرها، أقدرُ على الحفظ و أقوى عليه من الكاتب، و من هنا إتّكل الصحابة فى السنة على حفظهم و سيلان أذهانهم و توقد قرائحهم فلم‌يكتبوها، و لم‌يأمرهم النبى ﷺ بكتابتها كما كان يأمرهم بكتابة القرآن، بل على العكس من ذلک كان ينهاهم عن كتابتها، سيما كُتّاب وحيه الذين كانوا يكتبون القرآن فى صحف لتُحفظ فى بيت النبوة، ففى بعض الصحاح أنه ﷺ قال لهم: « لا تكتبوا عنّى غير القرآن»، فلو أنه أجاز لهم كتابة الحديث لم‌يؤمن ان‌يختلط القرآن بغيره، و استثنى من ذلک على‌بن‌ابى‌طالب ؑ فأمره بأن‌يخط فى صحيفةٍ كل ما أملاه رسول الله ﷺ من الحلال و الحرام و تعاليم الإسلام، و كتب على ؑ ايضاً فى صحيفة أخرى عن إملائه ﷺ الديات و العقل و فكاک الأسير، و روى النسائى انه كان مكتوباً فيها، « المؤمنون تتكافأ دمائهم و هم يدٌ على مَن سواهم و يسعى بذمتهم أدناهم. ألا لايقتل مسلم بكافر و لا ذو عهد فى عهده، مَن أحدث حدثاً فعلى نفسه او آوى محدثاً فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين.»

و مهما يكن من الأمر، فإن الذى كتب على عهد رسول الله ﷺ من السنة قليل جداً عند المسلمين و ذلک لشيوع الأمّيّة و خوفهم اختلاطَ السنة بالقرآن، و لئلاينصرف الناس بحفظ السنة عن حفظ القرآن، و انضمّ إلى تلک الأسباب فى العصرين التاليين اشتغال المسلمين بالفتوحات و الشؤون العامة و ما جدّ من الإضطرابات و الفتن، و ظل الأمر كذلک حتّى أوائل المائة الثانية حيث وُفّق علماء المسلمين إلى تدوينها، هذا مضافاً إلى ما سجّله التأريخ فى كتب الفريقين من أن رواية الحديث لم‌تكن شايعة فى العصر الأول شيوعها فيما بعد و ذلک لأن أبابكر و عمر كرها للناس كثرة الرواية، خشية الكذب على رسول الله ﷺ و خشية أن يصدهم ذلک عن القرآن؛ بل أخافهم عمر فى ذلک و رهّبم منه، و روى « الحافظ الذهبى» فى « تذكرة الحفاظ» قال: " و من مراسيل ابن ابى مليكه أن الصدّيق جمع الناس بعد و فاة نبيهم فقال: " إنكم تتحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها و الناس بعدكم اشدّ اختلافاً فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً فمن سألكم فقولوا: بيننا و بينكم كتاب الله فاستحلّوا حلاله و حرِّموا حرامه".

و سئل ابو هريرة، أكنت تحدّث فى زمان عمر هكذا؟ فقال: " لو كنت أُحـدّث فى زمان عمر مثل ما أُحدِّثكم لَضربَنى بخفقتـه".

و روى عن قرظة ابن كعب قال: " خرجنا نريد العراق فَمَشى معنا عمر إلى « حراء» فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: " أتدرون لم مشيت معكم ؟"، قالوا: " نعم، نحن اصحاب رسول الله مشيت معنا"، فقال: " إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كَدَويّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جوّدوا القرآن و أقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ إمضوا و أنا شريككم".

و لكن هذا التفريط ادّى إلى الإفراط فى بدء العصر الأموى، فَشاع وضع الحديث عن النبى ﷺ و أوجب ذلک أن علياً عليه السلام كان يستحلف الراوى.

و الحاصل أن السنة لم‌تكن مدوّنة، و لم‌يَتيسّر لفرد او افراد أن يجمعوها كلها حفظاً و كيف يسهل ذلک؟ و قد مكث النبى ﷺ من مبعثه إلى وفاته ثلاثاً و عشرين سنة و هو يحدّث و يفعل و يرى افعالا يقرّها او يُنكرها، و أحوال الصحابة كانت مختلفة من حيث السبق إلى الإسلام و التأخر، و كثرة ملازمة النبى ﷺ و قِلّتها، فنتج من ذلک أنّ علم السنة كان موزّعاً بينهم فمنهم المُقلّ و منهم المُكثِر، و أيّاً ما كان فما يَعلمه أحدهم أقل مما يجهله لذلک كان يسأل بعضهم بعضاً، و لكن تنوّعت طرقهم و إختلفت الطرق و لمّا تُوفّى رسول الله ﷺ تفرّق أصحابه

فى البلاد، فأخذ أهل كلّ بلد عمّن لديهم من الأصحاب و كان هذا من أهم أسباب الإختلاف بين المذاهب الإسلامية و أئمتها، فأصبح من الواجب أنيفحص عن صحيحها و يؤخذ بأصحّها.

نعم، دَوّن علىٌّ عليه السلام فقط بخطّ يده كلَّ السنّة عن إملاء رسول الله صلى الله عليه و آله و كان اكثرَ ملازَمةً للنبى صلى الله عليه و آله من غيره و قد أشار عليه السلام إلى تعهد رسول الله صلى الله عليه و آله إياه بخطبته التى تسمى بـ« القاصعة» و فيها يقول: « و قد علمتم موضعى من رسول الله صلى الله عليه و آله بالقرابة القريبة، و المنزلة الخصيصة، وَضعَنى فى حِجره و أنا ولَد، يضمّنى إلى صدره و يكنفنى فى فراشه، و يمسّنى جسده، و يشمّنى عرفه، و كان يمضغ الشىء ثم يُلقمُنيه، و ما وجد لى كذبة فى قول و لا خطلة فى فعل، و لقد قرَن الله به صلى الله عليه و آله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يَسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالَم ليله و نهاره و لقد كنتُ أتّبعه إتّباع الفَصيل أثر أُمّه، يرفع لى كل يوم من أخلاقه عَلَماً و يأمرنى بالإقتداء به، و لقد كان يجاور فى كل سنة بـ« حراء» فأراه و لا يراه غيرى، و لميجمع بيت واحد يومئذ فى الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه و آله و خديجة، و أنا ثالثهما أرى نور الوحى و الرسالة، و أشمّ ريح النبوة و لقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحى عليه – ص –، فقلت: " يا رسول الله ما هذه الرنّة؟"، فقال: " هذا الشيطان قدأيِسَ من عبادته، إنک تسمع ما أسمع و ترى ما أرى، إلا أنک لستَ بنبىّ و لكنّک لَوزير و إنّک لَعلَى خير."».

و فى كتب الفريقين أن علياً عليه السلام قال: " و الله ما نزلت آية إلا و قدعلمتُ فيمَ نزلت و أين نزلت و عَلى مَن نزلت، إن ربى وهب لى قلباً عقولا و لساناً ناطقاً."

و قيل لـ« عطاء»: " أكان فى أصحاب محمّد صلى الله عليه و آله أحد أعلم من علىّ؟" قال: " و الله ما أعلمه"؛ و قالت عائشة : " أما أنه (تعنى علياً) لَأعلم الناس بالسنة"؛ و قال رسول الله صلى الله عليه و آله : « أنا مدينة العلم و على بابها».

و الحاصل أن سنة رسول الله صلى الله عليه و آله قد رواها المسلمون بمختلف الطرق و لا شک فى أن أصحَّها ما وصل الينا عنه صلى الله عليه و آله بما صحّ لدينا من طريق أهل بيته الذين هم أدرى بما فى البيت و أولاده الائمة الهداة الدين هم سُفن النجاة، و هذا يظهر جلياً من الجمع بين الحديثين النبويين المستفيضين عند جميع المسلمين – على اختلاف مذاهبهم–، أحدهما، قوله صلى الله عليه و آله : " سَتفترق امتى من بعدى إلى ثلاث و سبعين فرقة، فرقة منها ناجية."

و فی تفسیر « الرازی»[1] : « أما الإعتقادات فقد جاء فی الخبر المشهور قولهﷺ: ستفترق أمتی علی ثلاث و سبعین فرقة، کلُّهم فی النار إلا فرقة واحدة.»

و الثانی، قوله ﷺ« مثل أهل بیتی کمثل سفینة نوح مَن رکبها نجی و من تخلّف عنها هوی.»

و یدل علیه حدیث الثقلین المشهور عند جمیع المسلمین و المروی عن النبی ﷺ بسند متواتر و هذا نصه: « إنی تارک فیکم الثقلین إن تمسکتم بهما لن تضلّوا بعدی، کتاب الله و عترتی أهل بیتی، و إنهما لن‌یفترقا حتّی یردا علیّ حوضی.»

و رواه « أحمد» فی مسنده بهذه العبارة: « إنی تارک فیکم ما إن‌تمسکم به لن تضلوا، کتاب الله و عترتی أهل بیتی، و إنهما لن‌یفترقا حتّی یردا علیّ الحوض.»

و لا یخفی أن إفراد الضمیر الراجع إلی الموصول المفسَّر بالإثنین و هما کتاب الله و عترة رسوله ﷺ نص صریح فی أنهما فی حکم الواحد فی الحجّیة و فی لزوم التمسک بها معاً فی أحکام الإسلام، و هذا نظیر قوله تعالی: « و جَعلنا إبنَ مریمَ و أمَّهُ آیةً» (المومنون/٥٠)، و کان حق العبارة، « آیتین»، لأنهما اثنان، و لکن القرآن عبر عنهما بلفظ مفرد، لأن جهة الإعجاز فیها واحدة، إذ وَلدت مریم من دون زوج و وُلد عیسی من دون أب، فکذلک جهة الحجیة واحدة فی کتاب الله و فی العترة الطاهرة المحیطة بجمیع السنة النبویة ﷺ، و العالِمة بأسرار کتاب الله المعجز الخالد، و العارفة بأسرار التشریع الإسلامی و الرابطة الحقیقیة بیننا معاشر المسلمین و بین من خوطب بالقرآن الکریم.

و لأجل ذلک جعل الله – عز و جل– مودتهم أجراً لرسالته فقال تعالی شأنه: « قُل لا أسئلُکُم علیهِ أجراً إلا المَودَّةَ فِی القُربیَ» (الشوری/٢٣) ؛ و قد روی فی « الصحیحین» و « أحمد» فی مسنده و « الثعلبی» فی تفسیره عن « ابن عباس» – رضی الله عنه– : « قالوا: " یا رسول الله مَن قرابتک الذین وجبت علینا مودتهم؟" قال ﷺ « علی و فاطمة و ابناهما». و فی بعض الکتب « و أبنائهما»، فیشمل « الأئمة الإثنی عشر» الذین عززوا رسالته من بعده حتّی تمکنت من هیمنتها علی العالم، و أقاموا معالم الوحی و الهدی و منائر الإخلاص، و قاموا علی رسالته تعزیزاً و حفظاً و حرصاً، و دفعوا عنها کل غائلة تضطرّهم للتضحیة فی سبیل تلک الرسالة بأعز ما

١. الجزء الاول، ص٣ .

عندهم من النفس و النفيس، و الإنحراف عن طريقهم منشأ النقص و الإختلاف الذى حدث فى فهم الدين الإسلامى لا فى صميم الدين، و تتلخص النقائص فى جهل بعض المسلمين بدينهم الإسلام و تأريخه الصحيح، و إهمال بعض آخر العمل بمقرراته، و تبديلها بالنظم و التقاليد التى جاء الإسلام لتحطيمها، و قلبِها رأساً على عقب و هذا الإنحراف عن صراط الدين القويم أهم أسباب تُدَهور الأمم الإسلامية. و ليست أسباب تَدَهوُرِها فى تعاليم الإسلام نفسه كما زعمه الأجانب بإعتبارهم أنها تصد عن الأخذ بكل جديد و تَبُثّ فى ذَويه مذاهب الجبر إلى أبعد ما ترمى إليه من الاستسلام للقدر المحتوم. فاتهموا الإسلام نفسه بإحداث هذا التحجّر المستعصى فى أمم المسلمين، فإنّ هذا إفتراء على الإسلام و منشأه جهل الأجانب بتلك التعاليم الإسلامية العامة الخالدة التى قررها الخالق العادل كقانون عملى عام شامل دائم أبدى لجميع البشر إلى آخر الدنيا و متغلغل فى جميع أعمال الإنسان و حركاته و سكناته. فلا مندوحة من لزوم تطور أساليب تطبيقها بتطوّر الزمن طبق ما ورد فى كتاب الله و سنة رسوله ﷺ لايجعل مجرد المماثلة و المناسبة منشأً للقياس مع ملاحظة أنّ جمع الشارع بين المتخلفات فى الحكم و تفريقه بين المؤتلفات يكشف عن عدم العبرة بالإستحسان و أشباهه، و لا فى ما لايستقل العقل بإدراک الحكمة و المصلحة و الملاک القطعى للحكم الشرعى. و قد ورد فى الصحيح، « ما لكم و القياس إن الله لايُسئل كيف أحلّ و كيف حرّم ؟» و « أول من قاس ابليس»[1] و لعل بعض ما ذكرناه هو السبب الذى دفع خواص المؤمنين الكاملين من المسلمين إلى أنيقصدوا من الشهادة بكلمة التوحيد معناها الأتم الأكمل الجامع لجميع مراتب التوحيد، أى التوحيد فى الذات، و التوحيد فى الصفات، و التوحيد فى الأفعال، و التوحيد فى الآثار، و يعتقدون أن معناها، أشهد أن لا إله إلا الله الواحد فى ذاته، و الواحد فى صفاته، و الواحد فى أفعاله، و الواحد فى آثاره، مِن دون شريک له فى ذلک كله.

و كذلک يقصدون من كلمة الشهادة بالرسالة ايضاً معناها الأتم الأكمل الجامع، أى أشهد

١. « زبدة التفاسير للكاشانى»، ج٢، ص٤٩٨ عن ابن عباس قال: " قاس ابليس فاخطأ القياس و هو اول من قاس ..." ؛ و « مقتنيات الدرر» للحائرى الطهرانى، ج٤، ص٣١٤ : « ... هو اول من قاس فكفر بقياسه...»؛ و « مجمع البيان المختصر»، ج١؛ و «كشف الاسرار» للميبدى و ... . و من الامام الصادق فى ضمن حديث أنه قال لابى حنيفة:« لاتقس فإن اول من قاس ابليس». « نور الثقلين»، ج٦، ص٦؛ « جامع الاحاديث»، ح١٠٤٠٨٠؛ « الكافى»، ج١، كتاب فضل العلم، باب البدع و الراى و المقاييس؛ و « الوافى»، ج١؛ و « تفسير الصافى»، ج٢؛ و « تفسير البرهان» ج٢و ج٤؛ و « البحار»، ج٤٧؛ و « عوالم العلوم»، ج٢٠؛ و ... . م

أن محمّداً رسول مبعوث من الله بالرسالة العامة الخالدة و أنه قد بلغ رسالته كاملة كما أمره الله و إستحق أجر الرسالة الذى جعله الله تعالى منحصراً فى مودة على و فاطمة و أبنائهما الأئمة الطاهرين ﷺ و يرمزون بذلک إلى أن الشهادة بالرسالة متضمنة للتنويه بالإمامة.

توضيح المقال أن من مقررات الفلسفة الإسلامية و علم الكلام أن « التوحيد الذاتى» مدلول كلمة « لا إله إلا الله» و هو فى مصطلحهم « التوحيد العام»، إذ يجب الإعتقاد به على جميع أفراد البشر، و بإنضمامه إلى الشهادة بالرسالة يتحقق الإسلام بشرط الإعتقاد بالمعاد و العمل بكل ما جاء به النبى ﷺ و « توحيد الصفات مع الذات» هو « توحيد الخواص» و هو مدلول كلمة « لا هو إلا هو» و به يتحقق الإ يمان، و « التوحيد الفعلى»، « توحيد خاص الخاص»، و هو مفاد كلمة « لا حول و لا قوة إلا بالله» و به يكمل الإيمان، و « توحيد الآثار»، « توحيد أخص الخواص» و هـو مفاد « لا مؤثر فى الوجود إلا الله» و به يتحقق المَثل الأعلى للإيمان و الإسلام.

فلو قال الموحد فى شهادته بالتوحيد، « أشهد أن لا إله إلا الله، و لا حول و لا قوة إلا بالله» مثلا بقصد الشهادة على كمال الإيمان، لا ينكر عليه بأنه بدعة لإضافته جملة على كلمة التوحيد التوقيفية، بل يحبّذ فعله و يمدح عليه، و يضاعف أجره و ثوابه، فهكذا يتمشى القول فى الشهادة بالرسالة اذا أدّاها مسلم مفصِّلا مدلول تركيبها و قال: « أشهد أن محمّداً رسول مبعوث من الله و أنه بلغ رسالة ربه كاملة فاستحق أجرها المنصوص عليه فى كتاب الله و سنة رسوله، و هو المودة فى القربى و هم علىّ و فاطمة و أبنائهما»؛ فلا وجه لإستنكاره.

فالشهادة الثالثة لهذا الغرض مكملة و موضحة للشهادة الثانية و ليست بدعة كما زعمه الناقصون. و لايخفى أنّ هذا لايوجب تفريقاً بين المسلمين، لأن امير المؤمنين على عليه السلام أوضح بسيرته و أعماله و أقواله ما ينبغى لشيعته مِن المماشاة و المداراة مع كافّة اخوانهم المسلمين و قال فى خطبته المعروفة بـ« الشقشقية» : « و لكنى أسففت إذ أسفوا و طِرتُ إذ طاروا.»

المطلب الثانى

الإسلام هو المَثل الأعلى للدين

المُثل العليا:

الكمال المطلق لايكون إلا لله وحده ـ و لله المثل الأعلى ـ و أما المثل العليا للموجودات الإمكانية، و أنواع الكائنات فى عالم الوجود، و المبادئ و العقائد و الأديان و الشرايع و العلوم و الانظمة و سائر المقررات العقلية، قوى تكون من كمالات نسبية و درجات نهائية للكمال النوعى تضع الموجود المتصف بها فى أعلى مستوى يمكن أنيصل اليه، و المثل الأعلى ضرورى فى كل نوع من انواع الموجودات إذ عليه يرتكز ناموس الإرتقاء و يستهدفه الإنتخاب الطبيعى بإذن الله و تتوخاه فلسفة بقاء الأصلح فى معترک تنازع البقاء التى هى سنة الله فى الكون، « و لَن‌تَجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً» (الاحزاب/۶۲ و الفتح/ ۲۳).

و المثل الأعلى غاية كل حركة إرادية و نهاية كل حركة طبيعية بمقتضى نظرية الحركة الجوهرية التى هى الأساس العلمى الصحيح لنظرية النشوء و الإرتقاء المؤدى إلى اثبات و جود صانع حكيم واجب الوجود للعالَم من المبدعات و المخترعات و الكائنات و المواليد الثلاثة التى أشرفُها نوع الإنسان المخصوص بالنفس الناطقة و العقل الذى هو منبع شرفه و كرامته، قال الله

تعالى: « لَقد خَلقنا الإنسانَ فى أحسَنِ تَقويم» (التين/۴) و قال: « و صَوّرکُم فأحسَنَ صُورَکُم» (غافر/۶۴) و قال: « ثُمّ أنشَأناهُ خَلقاً آخَرَ فَتبارکَ اللهُ أحسَنَ الخالقِين» (المومنون/۱۴) و قال تعالى: «و لَقد کرّمنا بَنى آدَم» (الإسراء/۷۰).

غريزة الشعور الدينى:

التديّن مرتكز على اصل نفسانى فطرى قائم على اكرم ميول النفس الناطقة و أرقاها فى الإنسان و الاديان الإلهية كلها قد اعتمدت فى الإنسان على أصل راسخ من غريزة الشعور الدينى ـ « فِطرةَ اللهِ الّتى فَطرَ النّاسَ عَليها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللهِ ذلکَ الّدينُ القيّم» (الروم/۳۰) ـ و دفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها ذات مدبرة حكيمة ترقب النيات و تحكم الضمائر، و أنّ هذه الحياة صائرة إلى غاية من المسؤولية و المجازاة، و لقد صرّح علماء تأريخ الأديان بأن الشعور الدينى من الغرائز البشرية فإنه فطر عليه منذ نشأته الأولى و انّه من الخواص اللازمة لطبائعنا البشرية، و من المستحيل ان تتصور ماهية الإنسان دون ان تتبادر إلى اذهاننا فكرة الدين؛ و ان غريزة الشعور الدينى هى التى دفعت عقل الإنسان الفطرى السليم إلى التفكير فى مبدء حياته و مصيرها، و ساقته إلى التعبد و الخضوع للأديان الإلهية المتوافقة فى الجوهر الدينى الثابت الخالد المتكون من الإيمان بالمبدء و المعاد، و المتخالفة فى الصور و الأشكال حسب اختلاف استعداد البشر لغرض تدرّجه فى مدارج الإرتقاء إلى كماله الممكن.

المثل الأعلى للدين:

إن الله تعالى شأنه شرع دين الإسلام لعباده بعد تهيئتهم للكمال الدائم بواسطة الشرائع السماوية السابقة. نعم ترقت الأقوام البشرية جِيلا فجيلا و كان لها فى كل مرحلة من مراحل سيرها دين يناسب قوماً منها، حتّى إذا بلغت الإنسانية رشدها و إستعدت لقبول أحسن الصور الدينية و أرقاها، إقتضت حكمة الله – عز و جل– ضرورة لزوم التحول فى وسائل إرتباط جميع الاقوام البشرية عامة، فبعث الله خاتم أنبيائه ﷺ فى مركز الشرق المتوسط الذى كان بمثابة قلب العالم المعمور حينئذ بدين الإسلام العام الخالد الذى هو المثل الأعلى للدين، لكى يجمع به

مجموعة الاقوام البشرية كافة تحت راية إلهية واحدة. فكان ديناً وسطاً عرف لكل من الجسم و الروح حقه، و بنيت أحكامه على الإعتدال من غير إفراط و لا تفريط، و كان نظاماً إلهياً كاملا و كافياً لتحقيق السعادة المزدوجة لنوع الإنسان فی الدارين و الفوز فی النشأتين، و كان نشوء الإسلام و إرتقائه بسرعة خارقة هو المثل الأعلى لناموس النشؤ و الإرتقاء، قال الله – عز و جل–: « إنّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلامُ» (آل‌عمران/١٩) و قال تعالى: «قُل يا أيُّها الناسُ إنّی رسولُ اللهِ اليكُم جَميعاً» (الاعراف/١٥٨)، على نهج القضية الحقيقية الشاملة لجميع الافراد المحققة وجودهم و المقدرة وجودهم إلى آخر الدنيا.

فالإسلام يمتاز عن سائر الأديان الإلهية بإستجماعه عناصر الخلود و عموم الدعوة و إستهدافه سعادة الدنيا و الآخرة لنوع البشر، فلقد أسست تعاليمه الأصلية ـ أی أصول الدين ـ على صرائح العقول الفطرية السليمة عن شوائب الاوهام، فلاينكر العقل أصلاً مِنها إلا إذا انحرف العقل عن الفطرة، او وقع تحريف فی الأصل. و قد ثبت فی العلوم الطبيعية أن المحيط لايمكن أنيحدث تغييراً فی العقل نعم يمكن أنيحدث نضوجاً و كمالا فيه، فلذلک لن يتغير حكم من الأحكام التی إستقل العقل بها ما دامت الدنيا باقية، فليس من الممكن إلى الأبد تغييرٌ فی أصل من اصول دين الإسلام المقررة طبق حكم العقل السليم.

و كذلک أُسست تعاليم الإسلام الفرعية على مقتضيات الفطرة و الغرائز الطبيعية فی الإنسان التی تثبت فی كل زمان و تصلح لكل قوم. و لا شک فی أن العقل و الطبيعة لازمان ذاتيان لوجود كل فرد من الإنسان على إختلاف عناصره و من الممتنع زوال كل واحد منها إلى آخر الدنيا و هذا هو السر الإلهی فی كون الإسلام ديناً عاماً و خالداً و صالحاً لكل عصر و زمان و موافقاً لكل أمة، و لايقبل النسخ ما دامت الفطرة الإنسانية موجودة و باقية فی الدنيا و هو ناسخ و مكمل لما سبقه من الأديان. و يؤيده أن فی مرحلة إمتثال الاحكام الشرعية المقررة لأفعال المكلفين قد روعی إستلهام طبيعة المكلف و مزاجه و الأكتفاء بما يلائمهما، فَشُرب الشای مثلا مباح فی نفسه، و قديحرم إذا كان مضرّاً، و قديجب إذا إنحصر فيه علاج مرض، و قديكره اذا كان مؤثراً فی مناعة المزاج بحيث يعجزه مكافحة جراثيم الأمراض حين المصادفة، و قديستحب اذا كان مفيداً فی علاج مرض و لمينحصر العلاج فيه، و كذلک الحال فی العبادات. فقد جعل للصلاة

التى هى عمود الدين و معراج المؤمن، كيفيات متعددة تختلف بحسب اختلاف احوال المكلفين من القدرة و العجز و الصحة و المرض و الضرر و الحضر و السفر و أمثالها، و جاز إفطار صوم رمضان اذا كان مضراً ثم القضاء بعد زوال الضرر و المرض.

قال شيخنا الانصارى - قدس سره- فى مسئلة استحباب التفقه فى مسائل التجارات ما نصه: " ثم انه لا اشكال فى أن كلا من طلب العلم و طلب الرزق ينقسم إلى الأحكام الأربعة أو الخمسة، و لا ريب أن المستحب منهما لايزاحم الواجب، و لا الواجب الكفائى الواجب العينى ... ".

و يناسب المقام توضيح الفرق بين أسرار تشريع الأحكام الشرعية و بين حكمة التشريع و علل الاحكام؛ و ملخصه أنه قد قرّر أن الجهة الغير المطردة إنما تصلح أن تكون حكمة لتشريع حكم مطرد اذا كانت نوعية فيكون اشتمال شيء فى نوعه على تلك الجهة مقتضياً لتشريع حكم مطرد على ذلك النوع، كما لو فرض كون النبيذ مسكراً فى نوعه موجباً لتحريمه، أو كان ما يشتمل على تلك الجهة بحيث لايتميز عما لايشتمل عليها فى نفس الأمر و لاينضبط نوعه و يكون كالإحتياط فى موارد الشبهة مصادفاً تارة و غير مصادف اخرى من دون ضابط فى البين، كما فى تداخل الانساب بالنسبة إلى تشريع العدة، و حينئذ تصلح الجهة الغير المطّردة أن تكون ملاكاً لتشريع حكم مطرد و يكون مناط الحكم فى الأول، هو الجهة النوعية المحفوظة فى النبيذ مثلا و لو مع عدم فعلية إسكارها، و فى الثانى، امكان الإشتمال على تلك الجهة بحسب العادة، و يكون امتناع التوصل اليها إلا بإطّراد الحكم، هو مناط إطراده فى الحقيقة، فهذا القبيل من العلل الشرعية التى ينقصها الإطراد و الإنعكاس مع الحكم، يقال له فى مصطلح الفقه « حكمة التشريع» فما ورد من علل الأحكام اذا كان بياناً لحكمة تشريعها، فلا تكون مطّردة و لا منعكسة، و أما اذا كان تعليلا للحكم بمناطه فهو فى اصطلاح الفقهاء « علة الحكم الشرعى». فان كان ما علل به الحكم بعنوانه الشامل للمورد و غيره، هو موضوع الحكم النفس الأمرى و كان وروده على المورد بتوسط انطباقه على ذلك العنوان، و التعليل به للدلالة على ذلك، كان من قبيل الواسطة فى العروض، و حينئذ تكون العلة المنصوصة فى قوة الكبرى الكلية الشاملة للمورد و غيره بجامع واحد، و يكون التعليل بها من قبيل الإحتجاج بالأوسط فى ثبوت الأكبر للأصغر، و منحلا إلى قياس بصورة الشكل الأول، و كان الحكم المعلل جارياً من القياس المذكور مجرى

النتيجة، كما فى « العالم حادث لأنه متغير» فيدور الحكم مداره وجوداً و عدماً و تكون مطّردة بعمومها و منعكسة بمفهوم التعليل، بخلاف ما اذا كان واسطة فى الثبوت، فإن مرجع التوسط فى الثبوت إلى كون الواسطة هى الجهة المقتضية لموضوعية الموضوع لحكمه، و مقتضاه دخلُ خصوصية المورد إما فى علية العلة أو فى معلولها أو فيهما جميعاً فلايبقى مجال لِأنتطّرد و تكون واسطة للثبوت فى غير المورد أيضاً إلا بدليل آخر يدل على ذلک لا نفس هذا التعليل و إلا لزم الخلف. و أما إنعكاسها فينحصر فيما كان شمول الحكم لآحاد وجودات موضوعه تابعاً للإشتمال على علته، و أما العنوان العام الشامل لجميع الأقسام فهو عبارة « أسرار التشريع الإسلامى» التى تندرج فيها الجهات المطردة و المنعكسة التى هى علل الأحكام الشرعية و غيرها التى هى حكمة التشريع.

المطلب الثالث

الإسلام دين الفطرة الإنسانية

قال الله تعالى شأنه: «... إنّى خالقٌ بَشراً مِن طينٍ
فَإذا سَوّيتُه و نَفختُ فيهِ مِن رُوحى فَقعُوا لهُ ساجِدينَ.» (ص/٧١و٧٢)

إعلم أن الإنسان إنما إمتاز من سائر انواع الحيوان بتركيبه التعلقى من البدن و الروح أى النفس الناطقة المتعلقة بالبدن، و هى بإعتبار إدراكها الكلياتِ عقل، و لايخفى أن النفس كالحياة، عجزَ العلمُ الطبيعى عن فهمهما، و لايعرفهما غير خالقهما، « ألايَعلمُ مَن خَلقَ و هُو اللَّطيفُ الخَبيرُ» (الملک/١۴).

و يتجلّى فى كيان تركيب الإنسان الإرتباطى، صُنع الله الدقيق المعجز. فقد مزج بين الجسم المادى و بين النفس المجردة عن المادة ذاتاً و المتعلقة بالبدن مزجاً إرتباطياً راسخاً نشأت منه صورة وحدانية قائمة على مجموع الروح و العقل و الجسم من حيث هى مترابطة على نحو الإتحاد التعلقى، و هى منبع خواص الإنسان و مزاياه الخارقة و إستعداده لبلوغ الكمال الأعلى. و قدبلغ تعلق النفس بالبدن و ارتباطه بها إلى درجة من الشدة و الإستحكام تقضى بأنّ الطفل ينمو و يزداد حجمه فكذلک يزداد معه النمو المعنوى التجردى لنفسه الناطقة و يزيد ادراكها العقلى فى ناحيتَى النظر و العمل حسب المراحل المتناسبة متدرّجاً من مرتبة الإستعداد و العقل الهيولائى

إلى درجات العقل بالملكة ثم العقل بالفعل ثم العقل المستفاد، و هذه هى الفطرة الإنسانية « فِطرةَ اللهِ الّتى فَطرَ الناسَ علَيها» (الروم/٣٠).

فتكامل النفس الناطقة مرتبط بتكامل البدن لأنها و ان كانت مجردة عن المادة ذاتاً لكنها محتاجة فى العمل و التأثير إلى آلات مادية هى جوارح البدن الذى تعلقت به و قواه التى هى قوى النفس، فإنها فى وحدتها كل القوى، و لايمكن إنفصال بعضها عن بعض آخر فى التكامل و الأفعال و النتائج، و كذلک لكل من الروح و البدن و العقل، حاجات مترابطة لايفصل بعضها من بعض فى واقع الحياة بل مجموع واحد فى كيانه و مطالبه، و بهذا الإتحاد تتحقق للإنسان خلافة الله فى الأرض المشار اليها بقوله تعالى، « إنّى جاعِلٌ فِى الأرضِ خَليفةً» (البقرة/٣٠).

و هذا هو السر فى أن الإسلام الذى هو دين الفطرة لايفصل فى تشريعاته بين الجسم و الروح و العقل، بل يأخذها مترابطة، و يرسم لها دستورها على ذلک المتحد و يجارى الفطرة فى تركيبها المجموعى، و يعالج حاجات النفوس و حاجات العقول و حاجات الأبدان فى وقت واحد، و يشمل تشريعه الكيان البشرى من جميع جوانبه المترابطة على نحو الإتحاد، و يساير الفطرة إلى أبعد الحدود، و بهذه الميزة إمتاز الإسلام بالتشريع الكامل للكيان المتكامل، المسجل فى الفقه الإسلامى، و كل ما يعالج به الاسلام حاجات الجسد من أحكام أو قوانين أو أنظمة أو أعمال، فهو مقيد فى علاج الروح أيضاً، فتشريعاته الأرضية الخالصة من زواج و إرث و تنظيم إقتصادى و حرب و سلام و سياسة و ادارة و نحوها كلها تقوم على أساس العقيدة مرتبطة بها ارتباط الجسد بالروح و العقل، و كلها جاءت فى القرآن ممتزجة بالتوجيه إلى الله – عزّ و جلّ– و خشيته و تقواه، بل كل عمل صالح يتجه به الإنسان إلى الله و يقصد به التقرب إلى الله فهو فى عرف الإسلام عبادة بمعناها الأعم، و « إنما الأعمال بِالنّيات» حتّى أن الأكل و الشرب بقصد التقوّى لعبادة الله، مقدمة لعبادة الله التى هى وسيلة لإصلاح النفوس و تهذيبها، و كذلک كل ما قرّره الإسلام لعلاج حاجات الروح من التوجيهات الروحية الخالصة و العبادات بالمعنى الأخص و هى التى لاتصح إلا بقصد التقرب بها إلى الله تعالى كالصوم و الصلوة و نحوهما فهى مقيدة فى علاج حاجات الجسد ايضاً، ففى الحديث « صوموا تَصِحّوا» و الصوم عبادة دينية تعبدية توقيفية يقصد بها التقرب إلى الله تعالى بترويض النفس و الجسد لرفع الإنسان بروحه من حضيض الحيوانية إلى أرفع مقام أدبى و معنوى يليق بكرامته الإنسانية، و تبعث فى المسلمين لغة الإحساس التى

بها تنبعث من صميم نفس الصائم عاطفة ليست فى طوق اللغة و لايغنى فى تذوّقها الوصف فتخلق فى النفوس عناصر الشفقة و الرحمة و الرأفة و الإيثار إلى جانب قوة الإرادة و رباطة الجأش و عناصر الرجولة و التدريب على الخشونة و القدرة على مغالبة الشهوات و مكافحة الأهواء[١]، و من خواص الصوم صحة البدن و المزاج و هى تحصل به من دون قصدها به، فإن الصوم بقصد الحمية لصحة البدن باطل، فالعبادة الإسلامية التى تقع بقصد التقرب إلى الله و الإخلاص ليست فائدتها مختصة بالروح و إنما هى انطلاقة روح و حركه عقل و حركة جسم، و تظهر هذه الحقيقة بوضوح فى الصلوة التى تقام للتقرّب بها إلى الله تعالى و الإخلاص له فقط، و هى معراج المؤمن و عمود الدين، و السر فى جميع ذلک أن الدين الإسلامى مؤسس على واقع الفطرة الإنسانية؛ قال الله تعالى: « فِطرةَ اللهِ الّتى فَطرَ الناسَ عَليها ... ذَلکَ الدِّينُ القَيِّم» (الروم/٣٠) و أن حياة الإنسان الجسدية لاتنفصل من حياته الروحية و العقلية، و مشاعره الروحية لاتنفصل عن و اقعه المادى، و تفكيره العقلى مرتبط بالجميع، و تشريعات الإسلام كلها من العبادات و المعاملات و أنظمة الحياة مفيدة للروح و مفيدة للجسد، و لذلک أصبحت تعاليمه فى العبادات و المعاملات و أساليبه فى التربية و التعليم و الأخلاق و أنظمته فى الإقتصاد و الحقوق و الإجتماع و غيرها متناسقة و متآلفة لدرجة الإعجاز، و بهذا إمتازت تعاليم الإسلام عن البحث العلمى المتخصص بطبع الإنسان أو جسمه أو نفسه علىحِدة مع إيهام الباحث أن البحث عن الإنسان، و الحال أن الإنسان مجموعها المترابط بلا إنفصال.

و بهذا يمتاز التشريع الإسلامى ايضاً عن تشريعات الدين العيسوى المخصوصة بحاجات الروح فقط، و عن تشريعات الدين الموسوى المحصور فى نطاق الجانب المادى فقط من كيان الإنسان.

فظهر من هذا البيان الموجز أن الإسلام « دين» إلهى عام خالد يصل الإنسان بربّه، و « شرع» قويم ينظم علاقات الناس بعضهم ببعض، و « أخلاق» سامية ترفع الإنسان إلى أسمى غاية من مراحل الكمال، و « سياسة» سماوية تحدد صِلات المسلمين بغيرهم من الأمم، و يشمل كل شأن من الشئون الدنيوية الخاصة و العامة و العالمية كما ينير أمام المسلم السبيل فى كل ما يتعلق بالأمور الدينية الأخروية، ثم هو بعد ذلک عقيدة و عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، و هو لايعرف

١. جاءت نفس هذا البيان فى « المثل العليا». م

الفوارق الإقليمية و الشعوبية، و هو يمزج بين السلطتين الدينية و الدنيوية بحيث يشملها الدين الإسلامى جميعاً، و هو دين الفطرة و دين الطبيعة.

و لذلک قَرّر فى تعاليمه كل ما تتطلبه طبيعة الإنسان، بصفة أنه مدنىّ بالطبع، من أنظمة إجتماعية و أخلاقية و تربوية و إقتصادية و حقوقية و جزائية و حربية و إدارية و سياسية، كما قرّر المُثل العليا لأصول العقيدة و المبادئ و العبادات و ساير ما تتطلّبه نفسه و روحه و عقله على جانب ما يتطلبه جسمه.

و لو أدرک الناس كافة روح الإسلام و فقهوا كُنه ما يرمى اليه لَما بقى علَى وجه الأرض من يدين بدين آخر، لأنه مطلوب كل روح، و مَرمى كل قابلية، و أنشودة كل إستعداد، و مطمأن كل إحساس، و منتهى كل عقل من معنى الدين و الإيمان، و هو لم‌يكلِّف الإنسان من العقائد و المبادئ إلا بما لو تُرِک و شأنَه لَتعلّق به مِن نفسه لأنه نتيجة قوى عقله و عواطفه و غرائزه و فطرته.

و لولا أن الإسلام دين ينطبق على كل قابلية و إستعداد، و يلائم كل عقل و عاطفة و إحساس، لَما كلّف الخالق العادل به جميع خلقه، و لَما جعله دينا خالداً لاينسخه دين إلى يوم الدين.

المطلب الرابع

الأساس لفهم أصول الإسلام و إستنباط فروعه

للإسلام فی أصول الدین مذهب واحد، فإنه خوّل العقل الفطری السلیم عن شوائب الأوهام کامل سلطانه و لم‌یشترط للنظر العقلی وِجهـة معینة و لم‌یحدّ له حداً مخصوصاً مقرراً، بل ترک العقول السلیمة حرّة لبلوغ الحقیقة المجردة فی العقائد و فی عالم الوجود و التکوین من مبدء و جود العالم إلی مصیره و نهایته – أی معرفة المبدء و المعاد– حسبما تتطلبه غریزة الشعور الدینی فی الإنسان و هذا التخویل إن شوهد فی الفلسفة و الحکمة و العمل و کان من مقوماتها و هو الذی ضمن لها الإحترام العام و الحظوة بالخلود و دوام الإرتقاء، فلم‌یشاهد قط فی دین من الأدیان ما عدی الإسلام، فإنها وضعت للنظر فی أمور الدین و العقائد تقالید لایمکن تعدّیها بوجه من الوجوه، حتّی قال بعض الباحثین فی الأدیان: « تَقرأ قاموس الکتاب المقدّس[1] فلاتجدُ فیه کلمة العقل و لا ما فی معناها من أسماء هذه الغریزة البشریة المیزة للإنسان عن سایر الحیوان، کاللُّب و النُّهَی، لا لأن هذه المادة لم‌تذکر فی کتب العهدین مطلقاً، بل إنها لم‌ترد فیها أساساً لفهم الدین و لا دلائله و الإعتبار به، و لا أن الخطاب موجّه الیه و قائم به و علیه، و کذلک ألفاظ التفکر و التدبر و النظر فی العالم التی هی من أعظم و ظائف العقل.»

---

۱. ویلیام هوردرن، قاموس کتاب مقدس، تهران: اساطیر، ۱۳۶۸ش؛ بطرس عبدالملک، الکساندر تامپسون و ابراهیم مطر، قاموس الکتاب المقدس، قاهرة: دارالثقافة؛ جیمز هاکس، قاموس کتاب مقدس، بیروت: ۱۹۲۸م و چاپ افست، تهران: ۱۳۴۹ش. م

و بهذا الإمتياز المخصوص بالإسلام تندمج أصول هذا الدين الحنيف من طريق العقل فى روح الأمم من مختلف عناصر البشر فتتوحّد ميولها الدينية الأصلية على جانب ميولها العلمية و الفلسفية، لأنّ مصدر الجميع هو العقل، و يندفعون بذلک نحو الطاعة الحقيقية لأوامر الله و نواهيه فى جميع حركاتهم و سكناتهم، فتدوم الصلة بين دين الإسلام و بين العلم و الفلسفة و تترسخ عقيدة الناس كافة بشريعة الإسلام فى الأصول و الفروع رغم جميع التطورات المقدرة لهم و الرقى الذى ينال عقولهم إلى الأبد و يشهد بذلک أن إعتماد الاسلام على العقل هو الذى حفز المسلمين إلى الجِدّ فى تحصيل العلوم و التنقيب عن المعارف و إلى وضع الفلسفة الإسلامية و كثير من العلوم و إبداعها و إنشائها.

و أما فروع دين الإسلام فلها أساس واحد و هـو ما جاء فى كتاب الله الكريم و سنة رسوله ﷺ و لها هدف واحد مقصود لشارع الإسلام فى جميع الأحكام الشرعية، و هو تربية الفطرة الإنسانية و إقامتها على طريق التكامل فى توحيد شعوبها فى الغرائز الفطرية و الميول الجِبلية و وصولها إلى السعادة فى الدنيا و الآخرة.

و أما الإختلاف فى الإجتهاد و فى طريق الإستنباط و تخريج الأحكام الشرعية عن أدلتها الدينية لغرض الوصول من أقرب الطرق و أوثقها إلى واقعها لتحصيل الهدف الشرعى المقصود للشارع فلا بأس به ما لميخرج عن حدود تعاليم الكتاب و السنة بالركون إلى الرأى البشرى و إلى القياس الوهمى و الإستحسانات الفارغة التى تضيع الإسلام و تضيع المسلمين معه.

فمن الغريب ترحيب بعض المذاهب الإسلامية بالخلافات الخارجة عن حدود كتاب الله و سنة رسوله ﷺ حتّى جعلوا الخلافات علماً أسموه « علم الخلاف» فكانوا يتدارسونه كما يتدارس « أصول الفقه» لتحصيل ملكة السريان العقلى و الوهمى فى سرائر المسائل المعقدة و سرى الترحيب بهذا الخلاف إلى عوامهم أيضاً فقالوا « إختلافهم رحمة» فإنا لله و إنا اليه راجعون!

و هذا القسم من الخلاف هو الذى أراده أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله:

« تَرد علَى أحدهم القضيةُ فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم تَرد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلک عند الإمام الذى إستقضاهم، فيصوّب آرائهم جميعاً، و إلههم واحد و نبيهم واحد و كتابهم واحد، أفأمرهم الله تعالى بالإختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان على إتمامه؟! أم كانوا شركائه فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى ؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسولﷺ عن تبليغه و أدائه؟! و الله سبحانه يقول: « ما فَرّطنا فِى الكِتابِ مِن شَىء» (الانعام/٣٨). و قال، فيه تبيان كل شىء و ذكر أن الكتاب يصدّق بعضه بعضاً، و أنه لا إختلاف فيه، فقال سبحانه: « و لَو كانَ مِن عِند غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ إختِلافاً كَثيراً» (النساء/٨٢) و إنّ القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق لا تفنى عجائبه [و لاتنقضى غرائبه] و لا تُكشف الظلمات إلا به.»[١]

و أما إختلاف الإجتهاد عند الإمامية الإثنا عشرية القائلين بفتح باب الإجتهاد لزوماً ففائدته تشخيص أقرب الطرق الشرعية الموصلة إلى واقع الحكم الشرعى و إلى أهداف الكتاب و السنة و واقع الغرض الشرعى، و لقد رحّب الإسلام بهذا الإجتهاد لثقته بأن ما أبهم علَى واحد فى أمر من الامور قدينكشف لآخر و ما استعصى على ناظر من الباحثين قدينقاد لغيره فلايحرمون من مزايا الاجتهاد فى تصيُّد الحقائق الدينية و هى من السعة، بحيث لو تجرد الناس كلهم للبحث عنها لما كانوا مغالين فى ذلک و شجع الكافّة على الحصول على هذه الدرجة و لميسدّ على احد مجال الجهاد فى ناحية الاجتهاد و لميخص الاجتهاد بجنس أو صنف واحد و لكن فتح مجاله حتى أمام الارقّاء و الموالى و مَن فى حكمهم و هذا مالميسجله دين لاهله من سعة الصدر الى اليوم.

و مما يجب أنيدوّن لهذا الدين من المفاخر الخالدة فى هذا الباب، تقريره أن المجتهد يؤجر و إن اخطأ. فهذا الاصل الاسلامى يعتبر من افعل المنشطات لإعمال العقول و تبارى الرويات فى فهم الكتاب و السنة اللذَينِ اليهما ترجع سائر ادلة الفقه، و يدل على أن مقصد هذا الدين هو الوصول الى الحقائق العالية التى بمعرفتها يمتاز اعلم المجتهدين الذى يجب تقليده على

١. ورد هذا الخبر ببعض الاختلاف فى الالفاظ فى « نهج البلاغة» خ ١٨، و غرر الحكم و غيرهما. م

كافة المسلمين و فى كل عصر، لا الإنحصار فى دوائر ضيقة و الجمود فيها فيجىء ناموس الرقى فيدفعهم للخروج منها فيوقر فى نفوسهم أنهم خرجوا على الدين و يكون التنازع فى صدورهم مثاراً لشبهات و شُكوک لاتقف بهم عند حدّ، ثم يؤول امرهم الى نَبذ الدين ظهرياً.

المطلب الخامس

نشوء الفقه الإسلامی و إرتقائه

إعلم أن تأريخ الفقه مساوق لتأريخ التشريع الإسلامی، و مبدئه بعثة خاتم الأنبياء ﷺ و نزول القرآن و الوحی عليه و كان تكامله تدريجياً حسبما تقتضيه سنة الله فی التكوين و التشريع من حكمة التدرّج علی ناموس الإرتقاء حتی بلغ أقصی غاية الكمال فنزلت الآية الشريفة « اليوم أكملت لكم دينكم...» (المائدة/۳) ـ بيد أن الفتن و الحوادث التی غيّرت وجه التأريخ الاسلامی العام غيرت ايضاً وجه التأريخ الاسلامی ـ و روعی فی التشريع الاسلامی ما قرره العقل المستقل من أن الإنتقال من الإفراط فی المادية التی هی روح الشرک الی التوسط و الإعتدال اللذَينِ بنی الإسلام عليهما يتطلّب توسيط التفريط لكیَحصل التوازن، فإهتمّ الإسلام فی بدء التشريع بالعبادات التوقيفية كالصلوة و سائر ما يختص بأمر الآخرة و الروح لِتثبيت عقيدة التوحيد التی هی أساس أركان الاسلام، و هی المؤدّية الی الإعتقاد بالمعاد، و تأجّلت التشريعات الزمنية و ما يعود الی شؤون الحياة و أمور الدنيا التی هی مزرعة الآخرة، الی حين اللزوم فيما بعد الهجرة الی المدينة و لذلک فی العصر الأول و فی صدر الإسلام كان يطلق إسم « الفقه» علی علم الآخرة و معرفة دقائق آفات النفوس و مُفسدات الأعمال و مُصلحاتها و قوة الإحاطة بحقارة الدنيا و شدّة التطلّع علی نعيم الآخرة و إستيلاء الخوف مِن الله علی القلب، و مكارم الأخلاق. نعم نشأ الفقه

الاسلامى فى زمن صاحب الرسالة و هو الزمن الذى نشأت فيه الشريعة الإسلامية و أُنشئت الأحكام الإلهية، مع العلم بأن شريعة الإسلام بُنيت على رعاية مصالح العباد فالتشريع المكّى مجمل قَلّما يتعرّض القرآن فيه لأحكام تفصيلية، و أما التشريع المدنى فقد عرض القرآن فيه لكثير من التفصيلات لاسيّما ما يتعلق بالمعاملات و أمور الحياة و شؤون الدولة الاسلامية و لذلک تَرى أن مُعظم آيات الأحكام الفرعية مدنية، و ليس فى المكّى من الأحكام إلا ما يقصد به حماية العقيدة كتحريم ما لم‌يذكر اسم الله عليه من الذبائح.

و أما تدوين علم الفقه؛ فأول من دوّن علم الفقه الاسلامى هو على‌بن‌ابى طالب عليه السلام أملاه رسول الله صلى الله عليه و آله و خطّه علىّ –ع– على صحيفة و فيها كل حلال و حرام و جميع تعاليم الإسلام، و إسمها« الجامعة» ففى « أصول الكافى» كتاب الحجة، باب ذكر الصحيفة و الجفر و الجامعة و مصحف فاطمة عليها السلام عن « بكر بن كرب الصيرفى» قال: " سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: « ان عندنا ما لانحتاج إلى الناس و إن الناس لَيحتاجون إلينا و ان عندنا كتاباً إملاء رسول الله و خطّ علىّ صحيفة فيها كل حلال و حرام.»"

و فى الحديث الأول من الباب المذكور عن « ابى بصير» قال: " دخلت على ابى عبد الله عليه السلام فقلت له: " جعلت فداک إنى اسئلک عن مسألة، هاهنا أحد يسمع كلامى؟" قال: " فرفع أبوعبدالله ستراً بينه و بين بيت آخر فاطلع فيه، ثم قال: « يا أبامحمد سَل عمّا بدا لک.» قال:" قلت: جعلت فداک إن شيعتک يتحدّثون أنّ رسول الله علّم علياً باباً يفتح منه ألف باب." قال: « يا أبا محمد، علّم رسول الله علياً ألف باب يفتح من كل باب ألف باب.» قال:" قلت: هذا والله العلم." قال: " فنكت ساعة فى الأرض، ثم قال: « انه لَعِلم و ما هو بذاک.» قال:" ثم قال: « و عندنا « الجامعة». قال: "قلت: جُعلتُ فداک و ما الجامعة؟" قال: « صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله و إملائه من فلق فيه و خط على بيمينه، فيها كل حلال و حرام و كل شىء يحتاج الناس اليه حتى الأرش فى الخدش،» و ضرب بيده الىَّ فقال: « تأذن لى يا أبامحمد؟» قال:" قلت: جعلت فداک إنما أنا لک فاصنع ما شئت." قال: " فغمزنى بيده و قال: « حتى أرش هذا،» كأنه مغضب. قال:" قلت: هذا و الله العلم ...".

و فى الحديث الرابع عشر من « باب البدع و الرأى و المقاييس» من كتاب فضل العلم من

الجزء الأول من أصول الكافی عن « أبان عن ابی شیبة» قال: " سمعت ابا عبد الله علیه السلام یقول: « ضلَّ والله ابن شبرمة عند الجامعة إملاء رسول الله و خط علی بیده، إن الجامعة لم‌تدع لأحد کلاما، فیها علم الحلال و الحرام، ان أصحاب القیاس طلبوا العلم بالقیاس فلم‌یزدادوا من الحق إلا بعداً، إن دین الله لا یصاب بالقیاس.»"[1]

و لِعلیّ علیه السلام صحیفة أخری فی الدیات کان یعلّقها بقراب سیفه، و قدنقل « البخاری» منه فی کتابه « الجامع الصحیح» المجلد الأول باب کتابة العلم، و فی المجلد الرابع باب إثم من تبرء من موالیه.

ثم ألف « ابو رافع القبطی» مولی رسول الله صلی الله علیه و آله کتاب « السنن و الأحکام و القضاء» و إسمه « ابراهیم» ، و قیل: « أسلم»؛ ثم ألف « علی‌بن‌أبی رافع» مولی رسول الله کتاباً فی فنون الفقه، الوضوء و الصلوة و سائر الأبواب، و تفقه علی أمیرالمؤمنین علیّ و جَمعه فی أیامه و کان من خواصه و کاتبه، و کانوا یعظمون هذا الکتاب، و لـ« ثابت بن هرمز» کتاب جامع فی الفقه، جمعه عن إملاء الإمام زین العابدین علیه السلام ، ثم انتشر علم الفقه و شاع تدوینه فی الکتب فی عهد الصادقین علیهما السلام منها کتاب « جامع أبواب الفقه» « لعلی بن أبی حمزة سالم البطائنی» مِن تلامیذ الامام الصادق علیه السلام و منها کتاب مبوّب فی الحلال و الحرام لـ« ابراهیم- بن أبی یحیی المدنی الأسلمی» المتوفی سنة ۱۸۴هـ عن إملاء الصادق علیه السلام، و منها کتاب « شرایع الایمان» لـ« محمدبن‌معافی‌بن‌جعفر»، و منها کتاب « الفقه و الأحکام» لـ« ابراهیم‌بن‌محمد الثقفی»، و منها کتاب « الجامع فی أبواب الفقه» لـ« الحسن‌بن علی‌بن‌محمد الحجال»، و کتب اخری مفهرسة فی کتب الفهارس، کتاب « فهرست الشیخ أبی‌جعفر الطوسی»، و « فهرست ابی‌العباس النجاشی»، و « فهرست أبی‌الفرج إبن الندیم»، و « رجال العقیلی»، و « ابن الغضائری» و غیرهم.

و لایخفی ان الفقه نشأ علی اسلوب شبیه بمتون الروایات مرتب علی أبواب بتقدیم الأهم فالأهم مع ذکر الأدلة الشرعیة.

و ینبغی التنبیه علی أن الاحکام المنسوبة إلی الشرع منها ما یتعلق بالعمل من دون واسطة و

---

۱. فی بعض المصادر: « ضلّ علم ابن شبرمة ... ». و هو عبدالله بن شبرمة کان قاضیاً علی الکوفة للمنصور و کان یعمل بالقیاس. و الحدیث یوجد فی الکافی و بصائر الدرجات و مصادر کثیرة اخری. و فی بعضها جاء بعد « ... علم الحلال و الحرام»: «... إن اصحاب القیاس طلبوا العلم بالقیاس فلم یزدهم من الحق الا بُعدا و ان دین الله لایصاب بالقیاس.» م

تسمى فرعية؛ و منها ما يتعلق بالاعتقاد و تسمى أصلية و إعتقادية، و كانت الأوائل من العلماء ببركة صحبة النبى ﷺ و قرب العهد بزمانه و سماع الأحاديث و الاخبار من الائمة الاطهار ﷺ و مشاهدة الآثار مع قلة الوقايع و الاختلافات و سهولة المراجعة الى الثقات مستغنين من تدوين الأحكام و ترتيبها أبواباً و فصولا، و تكثير المسائل فروعاً و أصولا، الى أن اتسعت رقعة المملكة الاسلامية و دخلت أمم شتى من مختلف عناصر البشر فى حظيرة الاسلام و ظهر إختلاف الآراء و الميل إلى البدع و الأهواء، و كثرت الفتـاوى و الواقعات و مسّت الحاجة الى زيادة نظر و إلتفات، فأخذ أرباب النظر و الاستدلال فى إستنباط الأحكام و بذلوا جهودهم فى تحقيق عقائد الاسلام و أقبلوا على تمهيد أصولها و قوانينها و تلخيص حججها و براهينها و تدوين المسائل بأدلتها، و أطلقوا على العلم بها إسم « الفقه الأكبر» لان الفقه معرفة النفس ما لها و ما عليها، و لإشتماله على جميع تعاليم الاسلام من أصلية و فرعية بأقسامها من عبادات و أحكام و معاملات و أخلاق و حقوق و اجتماع و اقتصاد و تربية و تعليم و نحوها، ثم إنتشر الاسلام سريعاً و إتسعت الامصار و تفرقت الصحابة فى الاقطار و اختلط العرب بالعجم، ففسدت فيهم ملكة اللسان، و فشى اللحن و حدثت الفتن، و اختلفت الآراء و كثرت الفتاوى فى مسائل الدين فخافوا على القرآن أن–يستغلق فهمه و يصعب إستنباط الدين منه، فاضطروا الى تدوين شىء من العلوم اللسانية التى تساعد على حفظ اللغة و بقاء القرآن مفهوماً و يحفظون به لسانهم و دينهم، و لم‌يتعد ذلک قواعد النحو و الصرف و متن اللغة و البلاغة و بعض الأحاديث و أقوال طائفة من فقهاء الصحابة فى التفسير و جرت ريح العلم هكذا رخاءاً فى صدر الاسلام.

ثم أخذت على ناموس الارتقاء فاشتد الاقبال على الدرس و التحصيل و راجت بضاعة التدوين و التأليف فى العلوم الاسلامية و هى علوم التفسير و القراءات و الحديث و الفقه و أصول الفقه و الفرائض و الجدل و الكلام، و أفردوا العقائد الأصلية بالتأليف و خصوه باسم « علم التوحيد و الصفات» لغرض تسهيل التعليم و التعلم، ثم أسموه بإسم « علم الكلام» لان مباحثه كانت مصدرة بقولهم « الكلام فى كذا» و لانه يورث قدرة على الكلام فى تحقيق الشرعيات كالمنطق فى الفلسفيات، و قالوا فى تعريفه: " الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن أدلتها اليقينية."

ثم أطلقوا على معرفة الشرعيات الفرعية اسم « علم الفقه» و قالوا فى تعريفه: " الفقه هو العلم بالاحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية". ثم اتسع سلطان المسلمين فى القارّات و دانت

لهم الممالک العظیمة و فرغوا من وضع علوم الدین و اللغة فتاقت نفوسهم الی الاشتغال بعلوم الامم المتمدنة قبلهم، فنقلوا الی لسانهم معظم ما کان معروفاً عند الامم الراقیة فی ذلک العهد، و لم یغادروا لساناً من ألسنة تلک الامم من غیر أن ینقلوا منه شیئاً و إن کان اکثر نقلهم من الیونانیة و الفارسیة و الهندیة، فأخذوا من کل امة أحسن ما عندها. فکان اعتمادهم فی الفلسفة و الطب و الهندسة و المنطق و الأخلاق و النجوم علی الیونان، و فی الطب و العقاقیر و الحساب و النجوم و الأقاصیص علی الهنود و فی الفلاحة و الزراعة و التنجیم و الطلاسم علی الأنیاط و الکلدان و فی الکیمیاء و التشریح علی الفرس، فکأنهم ورثوا أهمّ علوم الآشوریین و البابلیین و الفرس و الهنود و الیونان. فأخذوا فی النظر و التلخیص و الشرح [حتی][1] إذا کسبوا ملکاتها أخذوا یتدبّرون کل علم یدرسونه منها و یحققون مسائله بکل ما أوتوه من قوة عقل و صحة فهم و ثقافة اسلامیة و قرآنیة. و قد تمکنوا بذلک من اصلاح کثیر من الأغالیط التی أحدثتها الترجمة و کذلک الأغلاط التی و قعت للیونان أنفسهم و استطاعوا أن یضیفوا الی هذه العلوم الدخیلة آراءاً مبتکرة جدیدة و أفکاراً صالحة من عند أنفسهم و بذلک دخلوا فی طور التألیف و التکمیل و الإختراع، و قد مزجوا ذلک کله و عجنوه و استخرجوا منه علی ضوء الثقافة الإسلامیة علوم التمدن الاسلامی و الفلسفة الإسلامیة الخالدة التی تعتبر مُثلا علیا لتلک العلوم، و قد نبغ فی کل علم منها طائفة کبیرة من علماء المسلمین. فمن الذین نبغوا فی الفلسفة « أبونصر الفارابی» و « ابن سینا» و « نصیرالدین الطوسی» و « یعقوب الکندی» و « الغزالی» و « ابن رشد» و « صدر المتألهین» و غیرهم ...

و من أراد التفصیل فلیراجع الی الجزء الأول من کتاب « دروس الفلسفة » من مؤلّفاتنا.[2]

و حینئذ أفرد بعض العلماء الأخلاق الإسلامیة بالتألیف، و لکن ما کان مِن مباحث الأخلاق مندمجاً فی المسائل الفقهیة أبقُوه علی شاکلة مسائل علم الفقه فی بعض الکتب الفقهیة، مثل کتاب « النخبة» لمؤلفه الفقیه الشهیر و المحدث الکبیر صاحب « الوافی» الجامع لـ« الکتب الأربعة» مع شرح أحادیثها المشکلة، « المحقق الفیض» - قدس سره- و هذا نصه: " کتاب الطهارة، باب التعداد؛ الطهارة طهارتان، طهارة الباطن و طهارة الظاهر، و طهارة الباطن إما مِن جریمة

۱. هذه الکلمة اضیفت بالقلم فی نسخة مکتبة آیة الله السیدعزالدین الحسینی الزنجانی، أظن أنها بخطه الشریف- رحمة الله علیه-. م
۲. قد تمّ بعون الله تعالی و توفیقه- و لله الحمد- تصحیح کتاب « دروس الفلسفة» و استخراج بعض المصادر و التعلیق علیه، و طُبع بمقدمة قیّمة مفصّلة قدّمها الحکیم المحقق سماحة الاستاذ الدکتور الصدوقی« سها»- حفظه الله تعالی-. م

الجوارح أو ذميمة القلب أو شغل السر بما سوى الله. ثم ان كانت من قبيح ففرض و إلا فنفل. و طهارة الظاهر إما من الخبث أو التفث أو الحدث. ثم ان كانت لواجب مشروط بها ففرض و إلا فنفل ..."

المطلب السادس

التربية الإسلامية

و لها مراحل

- المرحلة الأولى؛

عنى شارع الإسلام ـ الذى هو دين الفطرة و الطبيعة ـ بقانون الوراثة الذى هو قانون فطرى و طبيعى تخضع له جميع قوى الإنسان و غرائزه و مداركه المادية و العقلية و الأدبية و مَآله الى إنتقال الصفات النفسية التى للآباء الى المولود، و إنتقال انواع الشعور التى تتأثر بها الأم الى الجنين، و اليه الإشارة فى قوله تعالى حكاية عن « نوح» - عليه السلام- الذى هو « أبو البشر الثانى» و قام على رأس النوع الإنسانى بعد الطوفان: « رَبِّ لاتَذَر على الأرضِ مِن الكافرينَ ديّاراً إنّکَ إن تَذرهُم يُضلّوا عِبـادکَ و لايَلِدُوا إلا فاجِراً كفّاراً» (نوح/٢٦و٢٧)، و قال رسول الله ﷺ: « تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس»[١]، و قال ﷺ: « إياكم و خضراء الدّمن. قالوا: و ما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء فى منبت السوء».[٢]

و يؤيد كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى خطبته أمَّ البنين قانون الوراثة.

---

١. كنزالعمال، ح٤٤٥٥٧. م

٢. الكافى، ج٥، باب اختيار الزوجة، ح ٤؛ و فى معانى الاخبار: « ... فى منبت سوء»، ج١، باب معنى خضراء الدمن؛ و من لايحضره الفقيه، ج٣. م

و قرر فى الفقه الإسلامى، أن على المسلم أن‌يتخير لنطفته و أن‌يختار البكر العفيفة العاقلة المعروفة بالطهر و العفاف، المشهورة بالأخلاق الفاضلة و السجايا النبيلة، السليمة البدن، القوية العضلات، المشغوفة بحب الدين، الخفيفة المهر، و أن‌يجتنب العقرة الدنسة اللجوجة العاصية الذليلة فى قومها العزيزة فى نفسها، الحصان على زوجها، الهلوك على غيره، حتى لايتعرض لسوء أخلاقِ أولاده بمعاشرة أمهات خبيثات، لأن الأم هى المربية الطبيعية للطفل فى سنواته الأولى بل و فى شهور الحمل و من ساعة الولادة؛ و حتى لايطغى سيل الشر فتجر المخالطة الى محاكات الخاطئين، فإن قانون الوراثة ناموس طبيعى و الوراثة كهربائية خفية تنتقل بتيارها فى مراحل النسل الممتد فيتكوَّن مِن أثرها شىء فى الدم و معنى فى الروح، إذ لا شک فى أنه ليس فى العالم أسلوب من أساليب التربية يستطيع أن يخلق لفرد ينابيع جديدة لحياة جديدة، و أن‌يصبه لوقته فى أى القوالب أراده، لان كل ما له من القوى الراهنة و ما هو عليه من القابليات يرجع عهده الى ميلاده و طفولته و ما إكتسبه من ميراث أبويه بل آبائه و من تقاليد أسرته و تقاليد قومه و مقتضيات بيئته و ما طبعته هذه التقاليد الموروثة فى صميم معناه من أسباب الترقى و الإنحطاط و البقاء و التلاشى؛ و كذلک الأمّة المتكونة من هؤلاء الأفراد لايمكن أن‌تقطع من ماضيها و يفترض أنها خلقت لساعتها، لأن فى ذلک الماضى مصادر كل القوى التى يراد إستخدامها لترقيَتِها و إبلاغها إلى غاية مرجوّة.

ثم عزّز الإسلام قانون الوراثة بأمور إكتشفت العلوم الحديثة أهميتها فى تكوين النسل المرغوب فيه، منها أن يقول حين همّه بالزواج: « أللهم إنى أريد أن‌أتزوج أللهم فقدر لى من النساء أحسنهن خَلقاً و خُلقاً و أعفّهن فرجاً و احفظهن فى نفسها و مالى و أوسعهن رزقاً و أعظمهن بركة، و قيّض لى منها ولداً طيباً تجعله لى خلفاً فى حياتى و بعد موتى»، يقوله بعد صلاة ركعتين و التحميد.

و منها أنه يقول حين دخولها عليه: « أللهم على كتابک تزوجتها و فى أمانتک أخذتها و بكلماتک إستحللت فرجها، فإن قضيت لى منها ولداً فإجعله مباركاً سوياً و لاتجعل للشيطان فيه شركا و لا نصيباً»، يقوله بعد أن‌يأخذ بناصيتها و يستقبل بها القبلة.

و منها أنه ينبغى أن‌يصلى ركعتين و يأمرها أيضاً بذلک و يحمد الله و يصلى على النبى ﷺ و يقول: « اللهم ارزقنى إلفها و وُدّها و رضاها و إجمع بيننا بأحسن إجتماع و أيسرِ إئتلافٍ

فإنک تحب الحلال و تکره الحرام».

و منها أنه يقول وقت المباشرة: « بسم الله الرحمن الرحيم أللهم ارزقنی ولداً و اجعله تقياً زكياً ليس له فی خَلقـه زيادة و لا نقصان و إجعل عاقبته الی خير»؛ و للإنزال يقول: « أللهم لاتجعل للشيطان فی ما رزقتنی نصيباً».

و لقد ثبت فی العلوم الحديثة أن لأحوال الوالدين و ما ينعقد عليـه ضميرهما فی حال المباشرة و أثنائها مدخلية عظيمة فی وضع خلقة الجنين و أخلاقه و طبعه و مزاجه، و مَن رزقه الله ذوق الفقاهة لايَفوته أنّ الإسلام يعالج حاجات الجسد و حاجات الروح جميعاً فی آن واحد، فساعة الجسد الخالصة لايفصلها الإسلام عن الروح، ان كانت طعاماً أو شراباً فهی باسم الله تعالی و حمده و شكره، و الصلة بالله صلة روحية و تقربٌ اليه، و ان كانت متعة جنس حلال – فهی كذلک– يأتی بها بأمر الله و بكيفية قررها الله و يقرأ عليها اسم الله، ثم يثاب و يؤجر عليها لانها بهذا القصد و النية عبادة بمعناها الاعم و مقربة الی الله تعالی. و روی عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن فی بُضع احدكم لاجراً.» قالوا: " يا رسول الله يأتی أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر؟!"، قال: « أرأيت لو وضعها فی حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلک اذ وضعها فی حلال فله عليها أجر».

و كذلک ساعة العبادة ليست تهويمة روح خالصة و إنما هی انطلاقة روح و حركة عقل و فكر، و هكذا يتمشی القول فی نظم الإقتصاد الإسلامی و الإنتاج المادی و التنظيمات الأرضية البحتة لايعالجها الإسلام منفصلة عن الكيان الروحی فی مجموعه، فلايعترف بأن هناک قوانين اقتصادية منقطعة عن الصلات الروحية و النفسية، أو أن هناک قوانين مادية لاتتصل بقوانين الروح و الأخلاق. و لذا لايتنافی الإقتصاد الإسلامی مع الأخلاق الإسلامية؛ و تشريعاته الأرضية الخالصة من زواج و طلاق و إرث و تنظيم اقتصادی و سلام و حرب و سياسة و نحوها كلها تقوم علی أساس العقيدة مرتبطة بها إرتباط الجسم بالروح و العقل، و كلها تجیء فی القرآن و السنة ممتزجة بالتوجيه إلی الله و خشيته و تقواه، و توجيهاته الروحية الخالصة أی العقيدة و المعرفة و العبادة بمعناها الأخص التی هی غاية الخلق « و ما خَلقتُ الجنَّ و الإنسَ إلا لِيعبُدون» (الذاريات/٥٦) ، كلّها مفيدة لإصلاح الحياة و إن الله غنی عنها، « و مَن جاهدَ فإنَّما يُجاهِدُ لِنَفسِه إنَّ اللهَ لَغنیٌّ عَن العالَمينَ» (العنكبوت/٦) و إنما هو مِن كرم الله تعالی و فضله أن يجعل العبادة

التى هى غاية الخلق، هى الوسيلة لإصلاح النفوس و تهذيبهـا و إصلاح الحياة، ثم من فضله تعالى و كرمه السابغ أن‌يثبت الناس على العبادة و الأعمال و هى عمل يعمله الإنسان لنفسه و الله غنى عن العالمين.

و منها أن يؤذّن فى أُذن المولود اليمنى بأذان الصلاة و يقيم فى اليسرى. قال ﷺ « إنها عصمة من الشيطان الرجيم».

و هذا الأذان و هذه الإقامة إعلام للروح المتعلقة بالطبيعة قبل أن‌يتناولها أشياء الحياة بأن الإيمان مبدئه و أن الإيمان أول لون انصبغت به و تنتقش صورة فصولهما فى لوحة ذهن الطفل اللاشعورية مثلما تسجل الصور فى آلة التصوير، فتظل أنشودة نفس الطفل اللاشعورية و يمتد أثرها الى حين تكوّن شعور فى ضميره يفيض بعد حين بأحاسيس الفضيلة ثم لاتختلف عليه، و بعد الأذان و الاقامة يبدأ الوالد بإختياره إسماً حسناً و جميلاً لولده ليكون عنواناً حسناً له طيلة حياته.

و بهذا كله مهد الاسلام لتربية الطفل قبل نشوئه و تكوّنه و ميلاده، و أعدَّ جواً صالحاً و تُربة صالحة لنشوء الطفل و تربيته الصالحة و ارتقائه على طبق الناموس الطبيعى الذى هو سنة الله فى الكون و لن‌تجد لسنـة الله تبديلا.

فيتدرج الجنين فى السير الطبيعى و الارتقاء فى الدرجات تستهدفها المعدات التى أعدها الاسلام برعايته قانون الوراثة و تقريره الشرائط اللازمة التى هى مبادئ السعادة لتكميل إستعداده اللاشعورى ليقبل بعد شعوره التربية المنزلية الصالحة و التعليم المدرسى و التخلق بمكارم الاخلاق الفاضلة ثم ينتهى الى الكمال الانسانى و السعادة التامة الابدية.

و لعل هذا هو المعنى من الكلام المشهور « السعيد سعيد فى بطن أمّه و الشقى شقى فى بطن أمه»[1] و لا دلالة فيه على الجبر كما قد يتوهم، لوضوح أن الأثر الطبيعى للسعادة و الشقاوة الطبيعيتين لايتجاوز عن مرحلة الخطور الذى هو أول مبادئ صدور الفعل الإختيارى عن الإنسان، و من ملائمة الخاطر فى الذهن للطبع يتولد الميل و الرغبة و الشوق الى الخاطر بالطبع من دون إرادة و اختيار ثم يؤدى الشوق بتقويته الاختيارية الى العزم به و من اختياره تأكيد العزم يحصل الجزم الموجب لإنبعاث العضلات المؤدّى الى صدور الفعل الإختيارى. فان

۱. انظر فروع الكافى، ج۸، توحيد الصدوق، تفسيرنورالثقلين، ج۲، تفسيرالتبيان، ج۶ و بحارالانوار، ج۵. م

الجزئين الأخيرين من أجزاء العلة التامة الموجبة لصدور الفعل من الانسان إختياريان و هما العزم ثم الجزم، هذا فى الفعل بالمباشرة، و أما فى الافعال التوليدية فيحتاج أخيراً أيضاً إلى أسباب غير اختيارية كالأمطار بعد نثر البذر مثلا ثم إشراق الشمس و نحوه، و لايسع المقام لتفصيل الكلام.

– المرحلة الثانية:

تبتدأ التربية الاسلامية للأطفال من البيت و المنزل و يتصدّاها الابوان فإنهما مسؤولان عن مستقبل طفلهما، و انهما لعِلمهما بطبيعة الطفل الذى يربّونه و قيمة المواد التى يدرسان بها يتوفقان اكثر من غيرهما بإحداث اكبر ما يمكن من التغيير و التهذيب فى طبيعة الطفل الأولية حتى ينتفع منهما بما يجعله انساناً صالحاً للمجتمع و نافعاً لنفسه. فالطفل عن طريق هذه التربية المنزلية يتدرب على النظام و الآداب الصالحة و يحصل على اكبر قسط من المعلومات النافعة، و يكتسب الكثير من المهارة العقلية و البدنية عن طريق التعليم و التقليد و الارشاد، فيحسن إستثمار أفكاره و إستخدام عضلاته. ثم هو أخيراً يستبدل بأفكار الطفولة المشتّتة و مطالبها الجامحة مثل الرجولة العليا و مبادئها الثابتة مستعيناً بقواه و نزعاته الموروثة و استعداداته الطبيعية و تحصيلاته المنزلية و المدرسية.

و لايخفى أن الطفل بعد معرفته وجوب طاعة الوالدين عليه و إهتمام الاسلام فى استنكار عقوق الوالدين لدرجة الشرك بالله « و قَضَى ربُّک ألّاتَعبُدوا إلا إيّاهُ و بِالوالدَينِ إحساناً» (الإسراء/٢٣) يخضع لهما و يقبل تربيتهما الاسلامية، فالعناية بالأولاد و تربيتهم تربية صالحة من اكبر واجبات الآباء و الأمهات التى يفرضها نظام الاجتماع و الأديان عامة و تعاليم الاسلام خاصة، كما أن إهمالهم و التفريط فى تربيتهم من اكبر الجنايات الاجتماعية و الدينية، لانهم المدرسة الطبيعية المسؤولة عن خطأ أبنائهم فى المجتمع، و لم‌تمنحهم العناية الإلهية ليكونوا بمثابة زينة البيت يحرص عليها و تتلذذ النفس بالنظر اليها فقط و إنما خلقوا ليقضوا زمن الصباوة فى حجر الاسرة، و يقوم الآباء بواجباتهم فى ما يختص بتربية اولادهم بالمباشرة أو بإنابة غيرهم من رجال التربية و التعليم الإسلاميين فى هذه المهمة السامية، ثم يخرجوا منها أحراراً مؤمنين و مستقلين و رجالا مهذبين و مثقفين و مسلمين و يضافوا الى الرجال العاملين، فالأسرة اذاً مكلفة بتربية الطفل و تهيئته جسماً و نفساً و خُلقاً و ديناً للقيام بوظائفه المتنوعة فى خدمة المجتمع الاسلامى.

و لایخفی أن الاسلام اختار من اسالیب التربیة للطفولة أسلوبا یأخذ بالجسم و الروح و العقل و النفس جمیعاً بعمل مشترک من شأنه توزیع النماء علی هذه القوی، فلاتضعف قوة بسبیل الأخری، و هو من وراء ذلک یغمره بالحنان لیشعر بوجود ذاته و تتکون بذلک شخصیته الإستقلالیة، فیؤدّبُه سبعاً مع فسح المجال له فی اللعب البریء لأنه خیر عون علی إنماء جسمه، ثم اذا وصل الطفل الی السابعة من عمره وجب علی مربیه أنیأخذه بکثیر من الأعمال الجدیة و أن یسارع الی تعلیمه الکتاب و القرائة و القرآن بالتجوید الصحیح و أحکام العبادات الشرعیة و کیفیاتها الصحیحة و اللغات. فإنه یسهل فی الصغر علی الحدث، النطق الصحیح و یعینه علی سرعة تعلیق المفردات و التراکیب، کما ورد فی الحدیث: « علیکم بالأحداث»[1] و یعلّمه وجوه المعاملات و آدابها الشرعیة و الأخلاق الفاضلة و السباحة و السبق و الرمایة و الفروسیة، فان الریاضة البدنیة العامة جزء من منهج التربیة الاسلامیة فی نصوص الأحادیث النبویة ﷺ و یقصد به تقویة الجسم و ریاضته علی إحتمال المشاق و بذل الجهد کما یقصد بها قوة الأخذ بنصیب الإنسان من سعادة الحیاة، لأن جهاد الحیاة فی حاجة الی جسم وثیق متین البنیان.

و فی الحدیث الموثق عن الباقر و الصادق علیهما السلام: « إذا بلغ الغلام ثلاث سنین قل له سبع مرات: « لا إله إلا الله»؛ ثم یترک حتی یتم ثلاث سنین و سبعة أشهر و عشرین یوماً، ثم یقال له قل: « محمد ﷺ رسول الله»، سبع مرات؛ و یترک حتی یتم له أربع سنین، ثم یقال له سبع مرات قل: « صلی الله علی محمد و آل محمد»؛ ثم یترک حتی یتم خمس سنین، ثم یقال: أیُّهما یمینک و أیُّهما شمالک؟، فاذا عَرف ذلک، حُوّل وجهه الی القبلة و یقال له: « أسجد»؛ ثم یترک حتی یتم له ست سنین، فاذا تم ست سنین، علّم الرکوع و السجود؛ حتی یتم له سبع سنین، فإذا تم سبع سنین قل له « إغسل وجهک و کفیک»، فإذا غَسلهما، قیل له: « صلّ»؛ ثم یترک حتی یتم له تسع سنین، فاذا تمت له، عُلّم الوضوء و ضُرب علیه، و أُمر بالصلوة و ضُرب علیها، فاذا تعلّم الوضوء و الصلاة، غفر الله لوالدیه إنشاء الله تعالی».

فخلیق بالآباء و المربّین أنیتعهّدوا أولادهم فی ناحیة التربیة و التثقیف التی یتنازع فیها العاطفة و الواجب و کثیراً ما تتلاشی فیها المصلحة، أمام عاطفة الأمومة الجاهلة و تتلاشی شجاعة الرجل أمام عطف الامومة و رغبة الولد البهیمیة، و خلیق بأولئک أنینشؤوا اولادهم

۱. الکافی ج۸، ص۹۳، ح۶۶ عن الامام الصادق ع فی حدیث: « ... علیک بالأحداث فانّهم أسرعُ الی کل خیر». م

على الآداب الروحية كما أنشأوهم على الآداب المادية و أنيكونوا منهم رجالا متّزِنِى الجوانب لاتطغى فيهم ناحية على ناحية حسبما يقضى به أسلوب الإسلام فى التربية، فذلک هو الأجدر بالعقلاء و أليَق برحمة الآباء. و يجب أنيعنى كل العناية بالغرض الخلقى من التربية و أنتنال التربية الدينية نصيباً وافراً من عناية المربين.

و يجب على ولىّ الطفل أنيعلّمه أصول الدين الإسلامى و براهينها العقلية و الحسية حين بلوغه عشر سنين من عمره، لأنّ وجوب تعلم أصول الدين حكم عقلى لايمكن إشتراطه بالبلوغ الشرعى، بل لا بد انيكون شرطه عقلياً و العقل يشترط فيه التمييز الذى يحصل غالباً فى العاشرة كما إختاره شيخ الطائفة - قدس سره-.

- المرحلة الثالثة:

يجب الإلتفات إلى ان الطفل يفتقر إلى مراحل فى تربيته يضطلع بها عقل القائم على تكوينه و تلوينه، و أن الطفل إنما يفقه الصالح لحياته فى كل مرحلة و يجهل الصالح لتربيته فى المرحلة التى تليها، و إنما يعرفه القائم على صهره و تصفيته و تخضيعه لإتباع نظام التربية و دراسة العلوم الصالحة لاستعداده، مرحلةً مرحلة حتّى ينتهى به خضوعه إلى أوج الكمال، فإذا تعهده المربّى و هو طفل بما لايصلح لحياته إلا و هو صبى أو مراهق، أو علّمه علماً لايصلح لإستعداده، أو أوكَله إلى معلم غير صالح لتهذيبه، فكان من الطبيعى أنيضطرب الطفل إذا وعى شيئاً مِن علمٍ لمِيُخلق له إضطراباً نفسياً و عقلياً و روحياً.

و كذلک يجب الإنتباه على أن الأطفال و مَن فى مستواهم من ذوى العقليات البدائية التى تضعف عن الموازنة و التحكيم تميل بل تسرع إلى التصديق و الإيمان فى غير شک و لا ريب.

و المنطق الجازم هو الذى يأخذ سبيله إلى عقولهم و قلوبهم لِيملأ خلأها الساذج، و هذه الرغبة فى الإنسان الناشئة من غريزة الشعور الدينى الفطرية لاتفتأ ساعية إلى إرواء ظمئه الروحى و هى التى تجعل إستعداده للإيمان غير محدودة.

و ينبغى التنبيه على ما قرّر فى العلوم من أن لمرحلة الطفولة خاصيتين، إحداهما، الغرور، فيزعم الطفل أنّ جميع ما حوله و كلّ ما فى عالَم الوجود خُلق لأجله وحده؛ و الثانية، الضعف، فإن مُنع عن شىء يريده بكى، و بالتربية الاسلامية يتولد الضمير الدينى، و به يشرق نور المعرفة

على عقل الطفل لأوّل مرّة فى حياته ثمّ يرتقى إدراكه فيعلم أن كل ما فى عالم الوجود لم‌يُخلق له وحده، ثم يتدرّج فى سُلّم الترقى حتّى يصل إلى أعلى درجات الشعور الانسانى فيدرک أنه هو نفسه لم‌يخلق لذاته.

و من هنا يبدأ بمعرفة الواجب – تعالى شأنه– فيؤمن بالمبدأ و المعاد و التعاليم الإلهية.

و إذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الأذواق بفنون الجمال الحسّى، فإنّ التربية الإسلامية تدعو إلى تلطيف السرّ بمكارم الأخلاق و أنواع العبادات و الأذكار و الآداب و الرياضات الروحية و البدنية أيضاً إلى جانب ما أشير اليه بقوله تعالى: « قُل مَن حرّمَ زينـةَ اللهِ الّتى أخرَجَ لِعبادِه و الطيباتِ مِن الرّزقِ» (الاعراف/٣٢).

و لايخفى أنّ أصعب أدوار التربية، هو دور إنتقال الطفل من عهد الصباوة إلى الشباب حين تزول من نفسه عاطفة الطفولة و تزهـو نفسه بهذا العالم و مسرّاته، و يشعر باستغنائه و إستقلاله فى هذا الدور حين تضعف فى فؤاده تلک العواطف البريئة و يتسرّب إلى نفسه حب العالَم و يلعب بقلبه مظاهره و تمتلک اليه مفاسده و ينسى كل المبادئ و ينخدع قلبه بمناظره و مسرّاته، فتناديه الدنيا بلسان حالها فلايسع الطفل الشاب فى ذلک الدور حين تضعف فى نفسه عاطفة الطفولة و تدبّ فى صدره قوة الشباب و شهواته، إلا إجابة النداء و الإقبال على الدنيا. فتتبدل فضائل النفس و تموت إن لم‌يتدارک ولى أمره، فينتشله فى هذا الموقف الحرج من السقوط، و ذلک لايتم إلا بتوجيه عواطف الطفل الشاب الذى يشعر بها إلى الخالق تعالى و إلى تعاليم دينه الحنيف بالقول و العمل، و ربط حلقة الإتصال بينه و بين الله تعالى إمتثالا لقوله تعالى: « قُوا أنفسَكُم و أهلِيكُم ناراً وَقُودُها النّاسُ و الحِجارةُ عَليها مَلائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لايَعصُونَ اللهَ ما أمَرَهُم و يَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ» (التحريم/٦).

نعم يسعى عالَم الدنيا بكلّ طرق الغواية لينتزع الطفل، فإن لم‌يوجد فى هذا الوقت من يستطيع تغليب عواطفه الشريفة على شهواته، فقد ضاع الطفل، فتُصبح زخارف الدنيا والدَيه، و شهوات الجسد و الإستسلام لِهوى النفس، معبودَه و سيّدَه، فيجب على ولىّ أمره فى مفترق هذين الطريقين أن‌يطبق نظام التربية الإسلامية بحذافيره و يبذل أقصى جهـوده لتحويل عواطف الناشئ حتّى يبقى الحياة الإنسانية الإسلامية الأدبية و الأخلاق السامية الإسلامية ماثلة بينه و بين نفسه فالعَالم الذى يتطلع اليه الشاب اليوم بعين شبابه، هو غير ذلک العالَم الذى أوجده الخالق فى

فطرته الأولى و الذى وصفه الحكيم بقوله:

« ففى كل شيء له آية تدل عـــلى أنه واحدٌ»[١]

بل هو عالَم أفسدته يدُ الإنسان و صيرته مفسدة لمشاعره الخارجية و عواطفه الداخلية و هو عالَم مملوء بشباک الشر لإقتناص نفس الشاب، ما فطر عليه تركيبه البدنى، و لِرجاحَة كفّة البدن فى هذا الدور من العمر على كل قوة أخرى فيه، نراه سريع الإنقياد لشهوات الجسد، تؤثر عليه و تتغلب على نفسه المؤثرات المادية على إختلاف أنواعها و أشكالها، فنراه يصبو إلى ملذّات الحياة يزهو بزهوها و ينخدع بسرابها و ينصرف عن الحقائق و ينكر ما لايقع عليه الحس، و يفقد الإيمان بالله و برسله و بتعاليمه السماوية، و فى مثل هذا العالَم الفاسد ظهر الأستاذ « نورداو» فى نظرية تنازع البقاء و بقاء الأصلح، حيث قرر « بقاء الأحيَل» دون بقاء الأصلح، قال: " فإن الأصلح لايدوم طويلاً فى دنيا الأباطيل."

فيجب على ولى أمره أنيبذل أقصى جهوده فى تقوية روحه و معنوياته التى لايتم لنفسه و عقله التغلّب على قوة بدنه و شهوات جسده إلا بتدريبها و تهذيبها بتطبيق نظام التربية الإسلامية عليها بكل عناية و إهتمام، لكىلاينحدر الشاب فى تيار هذا العالم، تلعب به أمواج مطامعه و مفاسده، و تجرفه آثامه، و بذلک يقضى على نفسه و أخلاقه قضاءاً مبرماً فتزول من نفسه ملكة التعقل و التنبه الأخلاقى و بزوالها يزول رَوح الله من قلبه، فلايبقى له ما يحفظه من السقوط، و يوصد فى وجهه ابواب الفضايـل و مكارم الأخلاق و يسير به شهوات الجسد فى طريق بعيد يقطع كل إتصال و يفصم كل رابطة بين العقل و الضمير و بإنفصام عروة هذه الرابطة تنقطع كل علاقة بين الإنسان و خالقه و قطع هذه العلاقة الشريفة ضربة قاضية على نفسه الناطقة العاقلة التى هى المميز الوحيد للإنسان عن الحيوان، و بهذا يصير الإنسان حيواناً فى عالم الفكر بل أضلّ من الحيوان.

فيجب علينا أن نتبع سيرة النبى ﷺ و أساليبه التربوية الخالصة، فقد إعتمد عليها لإبلاغ الدين إلى الضمائر فى رسوخ و إستقرار مكين. فأخذ المسلمين بالترغيب تارة و بالترهيب أخرى، و أخذهم أحياناً برياضات دينية من شأنها أنتبعث الضمير الدينى المهذب و بذلک حقق الإختمار

١. هذاالبيت لأبىاسحاق اسماعيل‌بن‌قاسم‌بن‌سويدبن‌كيسان العنزى (١٣٠ ـ ٢١١ق/ ٧٤٨ ـ ٨٢٦ م)، الذى لَقّبه اعدائه بـ « ابى العَتاهية»؛ اوّله: « فيا عَجَباً كيفَ يعْصَى الالهُ – وَ اَم كيفَ يجحدُهُ الجاحِدُ– و لله فِى كلِّ تَحرِيكَةٍ – وَ تَسكينةٍ فِى الوَرى شاهِدٌ – وَ فى كُلِّ... ». م

فى طبقة بقيت لها ميزتها فى الدين و الإعتقاد ما تبقى على الأرض مسلمون، و يجب علينا أن نتخذ من المغريات المدهشات فى هذا العالم اليوم و من الآثار الحسية للعلم و الإختراع، طرقاً جديدة و براهين حسية سديدة و وسائل مبتكرة جديرة بأن يتقوى بها ايماننا و عقائدنا و توجيهاتنا لأولادنا. فالجالس فى المشرق على مرآة المذياع فى عصر الواحى سمعاً و بصراً و هو يرى فيها ما يجرى فى أقصى المغرب و يسمع ما يقال فيه كيف ينكر ما آمن به المسلمون الذين سبقونا بأجيال يوم كان العالم فى ظلمة دامسة من الجهل مما لايقع عليه الحس و لايهتدى إليه الفكر؟

(نبذة من الآداب الشرعية)

نذكرها بمناسبة لزوم رعايتها فى التربية الإسلامية

و نذكر الفرائض بصيغة الأمر لتتميز عن النوافل، و نحن نسوق اليک هذه الآداب بنوع من الإختصار ملتزمين فى التعبير بمتون الأخبار.

لن‌تصل أيها الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبک و جوارحک فى لحظاتک و أنفاسک من حين تصبح إلى حين تمسى. فاعلم أن الله سبحانه و تعالى مطلع على ضميرک و مشرف على ظاهرک و باطنک و محيط بخطراتک و خطواتک و سائر حركاتک و سكناتک و لحظاتک، و أنک فى مخالطتک و خلواتک متردد بين يديه، فلا يسكن فى الملک و الملكوت ساكن و لايتحرّک متحرّک إلا و جبار السماوات و الأرض مطلع عليه، فعليک أن‌تتأدّب ظاهراً و باطناً بين يدى الله تعالى تأدُّب العبـد المذنب الذليل فى حضرة الجبار القاهر، و إجتهد أن لايراک مولاک حيث نهاک، و لايفقدک حيث أمرک، و لن‌تقدر على ذلک إلا بأن توزع أوقاتک، و ترتّب أعمالک و أورادک من صباحک إلى مسائک كما سنذكر فهرسهاً لک:

آداب التيقظ

إذا إستيقظت من النوم فينبغى أن‌تجتهد لأن‌تستيقظ قبل طلوع الصبح و أن‌يكون أول ما يجرى على قلبک و لسانک ذكر الله تعالى فتقول على ذلک: « الحمد لله الذى أحيانى بعد أن

أماتنى و اليه البعث و النشور»، و تسجد تأسياً بالنبى ﷺ فإذا تمكّنت من الجلوس تقول: « حَسبى الربُّ مِن العباد حسبى الذى هو حسبى مُنذ كنتُ، حسبى اللهُ و نِعم الوكيل»، فإذا قمت قلت: « اللهم أعِنّى على هَـول المَطلع و وسِّع عَلَىّ المَضجَع و ارزُقنى خيرَ ما قبل الموت و ارزقنى خيرَ ما بعدَ الموت.»

و إذا لبستَ ثيابک فتَنوى بذلک إمتثال أمر الله تعالى فى ستر عورتک و تقول: « الحمد لله الذى كَسانى ما أُوارى به عورتى و أتجمّل به فى الناس» و إذا لبستَ نعلک تَبدء باليمنى و تقول: « بسم الله اللهم صل على محمّد و آل محمّد و وطئ قدمَىّ فى الدنيا و الآخرة و ثبتهما على الصراط يوم تزل فيه الأقدام» و إذا قصدتَ بيت الماء لقضاء الحاجة تقدّم فى الدخول، رجلَک اليسرى و تقول: « بسم الله أعوذ بالله من الرِّجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم» و لاتدخل حاسِر الرأس و تقول عند الكشف: « بسم الله».

و أستُر عورتَک عن الناظر و تنكئ على رجلک اليسرى و تقول للإستطلاق « الحمد لله الذى أطعمنيه طيباً فى عافية و أخرجه خبيثاً فى عافية» و إذا وقع نظرک اليه تقول: « اللهم ارزقنى الحلال و جنبنى الحرام» و عند الإستنجاء تقول: « اللهم حصن فرجى و أعفّه و أستُر عورتى و حرِّمنى على النار» و تستنجى بيدک اليسرى، و إغسل مخرج البول بالماء لايجزى مِن غيره بعد أنتَستبرئ منه بإمرار اليد أو الإصبع من أسفل القضيب و التنحنح و النتر و تقول عند الفراغ ماسحاً بطنک بيـدک اليمنى قائماً: « الحمد الله الذى أماط عنّى الأذى و هنّأنى طعامى و شرابى و عافانى من البلوى»، و تخرج مقدِّماً لرجلک اليمنى، و ينبغى أنيَتطهّر عقيب كل حدَث و ان لميُرد الصلاة ليكون على طهارة فى تمام أوقاته فإن لذلک أثراً قوياً فى تنوير القلب.

من آداب الوضوء

و إذا أردت الوضوء، تبدأ بالسواک، فإنه مطهرة للفم و مرضاة للرب، و صلاة بمسواک أفضل من سبعين صلاة بغير سواک، و تجلس مستقبـل القبلة و تقول عند النظر إلى الماء: « الحمد لله الذى جعل الماء طهوراً و لميجعله نجساً»، ثم تغسل يديک من الزندين مرة أو مرتين قبل إدخالها الإناء – إن اغترفت من إناء– و تقول: « بسم الله و بالله اللهم اجعلنى من التوابين و اجعلنى من المتطهرين»، ثم تمضمض ثلاثاً بثلاث أكُفّ من الماء و تقول: « أللهم لقنى حجتى يوم

ألقاک و أطلِق لسانی بذکراک»، ثم تستنشق کذلک ثلاثاً و تقول: « أللهم لاتحرمنی ریح الجنة و اجعلنی مِمن یَشُمّ ریحها و رَوحها و طِیبها». ثم إغترف بِیُمناک غرفة ناویاً الإتیان بالوضوء متقرباً به إلی الله تعالی مقارناً بالنیة، غسلَ الوجه مبتدئاً بأعلاه قائلاً: « بسم الله أللهم بَیّض وجهی یوم تسودّ فیه الوجوه و لاتسودّ وجهی یوم تبیضّ فیه الوجوه» و تمرّ یدک علی وجهک و تخلل الشَّعر و تَفتح عینیک. و حدّ الوجه طولا و عرضاً ما دارت علیه الإبهام و الوسطی مِن قصاص شعر الرأس إلی آخر الذقن. ثم خذ غرفة بیدک الیسری و إغسل بها الیمنی مبتدئاً بالمرفق بظاهر الذراع و المرأة بباطنها مُمرّاً یدک علیها، و خلِّل الشعر و السائر قائلا: « اللهم أعطنی کتابی بیمینی و الخلد فی الجنان بیساری و حاسِبنی حساباً یسیراً»، ثم خذ غرفة أخری بیدک الیمنی فاغسل بها الیسری کَأختها الیمنی قائلا: « أللهم لاتعطنی کتابی بشمالی و لاتجعلها مغلولة إلی عنقی و أعوذ بک من مُقطّعات النیران»، ثم إمسح بشرة مقدّم رأسک أو شعره الذی لایخرج بمدّه عن حدّه بمقدار ثلاث أصابع مضمومة بِبَلل یمینک قائلا: « أللهم غشنی برحمتک و برکاتک»، ثم إمسح ببقیة بلل الیمنی ظهر قدمک الیمنی من رؤوس الأصابع إلی الکعب – أی مفصل الساق و القدم– بکلّ الکف، ثم إمسح ببلل یسارک قدمک الیسری کذلک قائلاً: « أللهم ثبِّتنی علی الصراط یوم تزلّ فیه الأقدام و اجعل سعیی فی ما یُرضیک عنّی» و راعِ الترتیب و التوالی العرفیّ و تقول عند الفراغ: « الحمد لله رب العالمین».

و ینبغی وحدة الغسلات بل الإقتصار علی غرفة أو غرفتین، و الإسباغ بِمُدّ، و ترک الإستعانة و الماء المشمّس و الآجِن و سؤر الغیر المأمون و المستعمل فی رفع الحدث الأکبر، و أن تخطر ببالک عند الفراغ أنک طهّرت ظاهرک و هو مطرح نظر الخلـق. فینبغی أن‌تستحیی من مناجاة الله من غیر تطهیر قلبک و هو موقع نظر الرب تعالی شأنه.

من آداب غسل الجنابة

إن أصابتکَ جنابة مِن إحتلام أو وقاع تستبرئ بالبول و مِن البول و أزِل ما علی بدنک من قذر، و تسمّی و تغسل یدیک من الزندین ثلاثاً و إلی المرفقین أفضل، و تمضمض و تستنشق، ثم صُبّ الماء علی رأسک ثلاثاً و أنت ناوٍ الإتیان بغسل الجنابة لله و متقرباً الیه، ثم علی شِقک الأیمن ثم الأیسر، و تمرّ یدک علی أعضائک کلها، و خلِّل الشعر و الموانع و تقول: «

أللهم طهّر قلبی و تقبّل سعیی و اجعل ما عندک خیراً لی، اللهم اجعلنی من التوابین و اجعلنی من المتطهرین»، و إن ارتمست فی الماء إرتماسةً، أجزئک، و ینبغی أنلایکون راکداً، و ترک الإستعانة إلی آخَر، کما مرّ فی الوضوء.

من آداب التیمم

و إن عجزت عن الماء لِفقده بعد الطلب أو المانع من الوصول من سبُع أو حابِس أو کان الماء حاضراً لکنّک تحتاج الیه لِعطشک أو عطش رفیقک أو کان مِلکا لغیرک و لمیَبع إلا بثمن مُجحف، أو کان بک جراحة أو مرض تخاف منه علی نفسک، فاصبر حتّی یدخل وقت الفریضة ثم اقصد صعیداً طیباً علیه تراب خالص طاهر لین و انزَع خاتمَک ثم اضرب علیه بکفّیک مُفرّجی الأصابع ناویاً التیمم بدلا عن الوضوء أو عن الغسل متقرّباً به إلی الله مُسمّیاً، و إمسح الجبهة و الجبینین بها معاً مستوعباً من قصاص الشعر إلی طرف الأنف الأعلی و إلی الحاجبین و المسح علیهما، ثم إمسح بباطن الیسری تمام ظاهر الیمنی من الزندین و بالعکس، ثم اضرب ثانیة و امسح بباطن الیسری ظاهر الیمنی من الزندین و بالعکس للإحتیاط فی رعایة شرط العلوق.

من آداب المسجد

فإذا تطهّرت فتطیّب فإن رکعتین تُصلیهما متعطّراً أفضل من سبعین رکعة تصلیها غیرمتعطر. ثم تدعوا بدعاء زین العابدین علیه السلام الذی کان یدعوا به فی جوف اللیل جالساً مستقبل القبلة ثم تقوم إلی صلاة اللیل، إن کان بقی لک وقت و إلا تقتصر علی الوتر و رکعتی نافلة الفجر و إلا فالرکعتین تقرء فیهما بعد الحمد ما شئت من السور بقدر سعة الوقت و إن اقتصرت علی الفاتحة أجزئک، و لا تدَعِ الإستغفار فی قنوت الوتر.

ثم تتوجه إلی المسجد فعن الصادق علیه السلام : « من مشی إلی المسجد لمیَضع رجلاً علی رطب و لا یابس إلا سبّحَت له الأرض إلی الأرض السابعة» و لا تدعِ الصلاة فی الجماعة لاسیّما الصبح و العشاء، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بأربع و عشرین درجة، فإن کنت تتساهل فی هذا الربح فأیّ فائدة لک فی طلب العلم، و إنما ثمرة العلم العمل، فإذا سعیت إلی المسجد تمشی علی سکینة و وقار و تقول عنـد خروجک من بیتک « بسم الله الذی خلقنی فهو یهدین، و الذی [هو]

يُطعمنى و يَسقين، و إذا مرضتُ فهو يَشفِين، و الذى يميتنى ثم يُحيين، و الذى أطمع أن‌يغفر لى خطيئتى يوم الدين، ربّ هب لى حكماً و ألحقنى بالصالحين و اجعل لى لسان صدق فى الآخرين و اجعلنى من ورثة جنة النعيم و اغفر لأبى».[١]

فإذا أردت دخول المسجد فتعاهد نعلک أوّلاً و تُقدّم رِجلک اليمنى و تقول: « بسم الله و بالله و من الله و إلى الله و خير الأسماء كلها لله توكلت على الله و لا حول و لا قوة إلا بالله اللهم صل على محمّد و آل محمّد و افتح لى أبواب رحمتک و توبتک، و أغلق عنى أبواب معصيتک و اجعلنى من زوارک و عُمّار مساجدک و ممن يناجيک فى الليل و النهار و من الذين هم فى صلاتهم خاشعون و ادحر عنى الشيطان الرجيم و جنود ابليس أجمعين».

فإذا أردت أن‌تخلع نعليک تَبدء باليسرى قبل اليمنى بعكس لبسهما و تقول: « بسم الله الحمد الله الذى رزقنى ما أوقى به قدمى من الأذى أللهم ثبتهما على صراطک و لا تزلّهما عن الصراط السوى».

ثم تأتى بركعتى التحية للمسجد إن لم‌يدخل وقت الفريضة و إلا أجزئک الفريضة عنهما فإذا تحققت طلوع الصبح فتقول: « يا فالقَه من حيث ما أرى و مُخرجه من حيث أرى، صل على محمّد و آله، و اجعل أول يومنا هذا صلاحاً و آخِره نجاحاً». ثم يأتى بالكلمة النوحية الّتى بها سُمّى عبداً شكوراً عشر مرات و هى: « اللهم إنى أشهدک أنه ما أصبح بى من نعمة أو عافية فى دين أو دنيا فمنک وحدک لا شريک لک، لک الحمد و لک الشكر بها حتّى ترضى و بعد الرضا».

ثم تؤذن قائما مستقبلاً القبلة رافعاً صوتک متأنّياً واضعاً إصبعيک فى اُذنيک واقفاً على الفصول، غير ملتفت يميناً و شمالاً و لامتكلم فى أثنائه مصلياً على النبى ﷺ عند ذكره، ثم تفصل بينه و بين الإقامة بسجدة أو جلسة و تقول فيهما: « اللهم اجعل قلبى بارّاً و عيشى قارّاً و رِزقى دارّاً و اجعل لى عند قبر رسولک ﷺ مستقراً و قراراً». ثم تدعوا بما شئت و تسأل حاجتک فإنّ الدعاء بين الأذان و الإقامة لايُردّ.

ثم تقوم إلى الإقامة و تأتى بالآداب المذكورة سوى التأنى و وضع الإصبعين فى الأذنين و رفع الصوت فانه فيها أخفض، و تقول اذا فرغت منها و أنت مستقبل القبلة « أللهم إليک توجّهت، و مرضاتک طلبت، و ثوابک إبتغيتُ، و بک آمنت و عليک توكلت. أللهم صلّ على محمّد و آل

١. و هى مضمون الآيات القرآنية فى سورة الشعراء ٧٨ الى ٨۶. م

محمّد و افتح مسامع قلبى لذكرک و ثبتنى على دينک و دين نبيک، و لاتُزغ قلبى اذ هديتنى و هب لى من لدنک رحمة انک انت الوهاب».

فاذا سمعت أذان المؤذّن تقطع ما أنت فيـه و تشتغل بالجواب بمثل ما يقول، و لک أن تحولق فى جواب الحيّعلات ففى الحديث، « إذا قال ذلک من قلبه دخل الجنة». و ينبغى أن‌تحضر فى قلبک هول النداء يوم القيامة و تشعر بظاهرک و باطنک للإجابة و المسارعة و تكون مستبشراً بذلک فرحاً تأسياً بالنبى ﷺ حيث كان يقول: « أرحنا يا بلال».

فإذا أحرَم الإمام بالفرض فلاتشتغل إلا بالإقتداء.

من آداب الصلاة

إذا تفرغت للصلاة فتحضر قلبک و تفرغه من الوساوس و تنظر بين يدى من تقوم و من تناجى؟ و تستحيى أن‌تناجى مولاک بقلب غافل و صدر مشحون بوساوس الدنيا و خبائث الشهوات، و تعلم أنه مطّلع على سريرتک و ناظر إلى قلبک، و إنما يتقبل صلاتک بقدر خشوعک و تواضعک و تضرعک، و تعبُد الله فى صلواتک كانک تراه فإن لم‌تكن تراه فانه يراک، فإن لم‌تحضر قلبک بهذا الحضور لقصور معرفتک بجلال الله تعالى، فتقدّر أن رجلا صالحاً من وجوه الناس ينظر اليک ليعلم كيف صلاتک فعند ذلک تحضر قلبک و تسكن جوارحک، ثم ترجع إلى نفسک و تقول: « ألا تستحين من خالقکِ و مولاک؟! إذا قدّرتِ إطلاع عبد ذليل من عباده عليکِ و ليس بيده ضرّک و لا نفعک خشعَت جوارحُک و حسُنت صلاتک. ثم إنکِ تَعلمِين أن الله مطّلع عليک و لاتخشعين لعظمته؟! هل هو أقل عندک من عبد من عباده؟! فما أشدّ طغيانک و جهلک و ما أعظم عداوتک لنفسک!».

فعالِج قلبک بهذه التدابير عساه يحضر معک فى صلواتک، فانّه ليس لک من صلواتک إلا ما عقلتَ و أما ما أتيتَ به مع الغفلة، فهو إلى الإستغفار و التكفير أحوج.

و إعلم أن النية شرط فى الصلاة، و النية هى الإرادة الباعثة للعمل المنبعثة عن المعرفة كشهوة الطعام المنبعثة عن المعرفة بتحققه و دفعه لجوع الباعثة لإمتداد اليد اليه، و هى المراد بـ« الداعى»، و أما التلفظ بالنية و الخطور و الحديث النفسى ففائدتها تذكر ذلک الداعى و تلک الإرادة، و لولاها لم‌تبقَ له أىُّ فائدة، و العبادة تتوقف على النية، مثل تَوقُّفها على العمل، ففى

الحديث النبوى ﷺ المتواتر، « إنما الأعمال بالنيات» و فيه « لا عمل إلا بنِيّة» و ورد أيضا « إنّما لكل امرئ ما نَوى». و الأهمّ فى النية الإخلاصُ، قال الله تعالى: « مُخلِصين له الدِّين» (البينة/٥) و قال – عزَّ و جلَّ–: « إلا إبتِغاءَ وجهِ ربِّه» (الليل/٢٠).

و الإخلاص، تجريد النية عن الشوائب فالأعلى إرادة وجهه تعالى، و يعرف بالتفكير فى صفاته و أفعاله و المناجاة، ثم إرادة نفع الآخرة فهو حظ النفس و ورد فى الشرع أنّ حقيقة الإخلاص أن تقول: « ربى الله»، ثم تستقيم كما أمرت، تعمل لله وحده و لاتحب أنتُحمد عليه، و هو عزيز المنال جداً و لايتأتّى عن النفوس الأمارة بالسوء إلا بمجاهدات و لذا ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام : «تخليص العمل من الفساد أشد من طول الجهاد».

و ضد الإخلاص الرياء، و هو طلب المنزلة عند غيره تعالى بالعبادة، فيختص بعمل الظاهر، و يفوت الإخلاص بمثل قصة الحميّة فى الصوم، و التبرّد فى الوضوء، و التفرّج و التجارة فى الحج، و الخلاص من المؤنة و عن سوء الخلق فى العتق، و لكنّها غير الرياء، و ورد عن المعصومين عليهم السلام أن الرياء شرك خفى و أخفَى من دبيب النملة فى الليلة السوداء على الصخرة الصماء، و من آفاته ردّ العمل فإنه تعالى لايقبل إلا الخالص.

و اذا قمت إلى الصلاة، تقوم بالوقار و الخشوع مستقبلاً القبلة، واضعاً يديک على فخذيک بإزاء ركبتيک، مفرِّجاً بين قدميک بقدر ثلاث أصابع منفرجات إلى شبر، ناظراً إلى موضع سجودک، غير رافع بصرک إلى السماء، مُخطِراً ببالک أنها صلاة مُودِّع، و تأتى بين التكبيرات السبع بالأدعيـة الثلاثة، فبَعد الثالثة تقول: « أللهم أنت الملک الحق، لا اله إلا انت، سبحانک انى ظلمت نفسى. فاغفر لى ذنبى إنّه لايغفر الذنوب إلا أنت» و تقول بعد الخامسة: « لبيک و سعديک و الخير فى يديک و الشر ليس اليک و المَهدىّ مَن هديتَ، عبدک و ابن عبديک لا ملجأ و لا مَنجى منک إلا اليک، سبحانک و حنانيک، تباركت و تعاليت، سبحانک رب البيت» و تقول بعد السابعة: « وجّهت و جهى للذى فطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة حنيفاً مسلماً و ما أنا من المشركين إنّ صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله ربّ العالمين لا شريک له و بذلک أمرت و أنا من المسلمين»، ثم تقول: « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» مُتخافتاً بها.

ثم اقصد أداء فريضة الصبح تقرّباً إلى الله و قارِن النية بتكبيرة الإحرام رافعاً بها يديک

مستقبلا بكفيک القبلةَ ضامّاً أصابعک سوى الإبهامين، غير متجاوز بكفيک أذنيک، مبتدئاً بالتكبير حال إبتداء الرفع منتهياً بانتهائه. ثم إقرأ سورة الحمد قراءة صحيحة مُرتّلاً، و إجهر بها مراعياً للوقوف فى مواضعه، مُحضراً قلبک متدبراً معانيها، و تسكت بعدها بمقدار نفَس. ثم تقرء سورة كذلک و تَسكتُ بعدها كما تسكت قبلها، ثم ترفع يديک كَرفعِک فى تكبيرة الإحرام و تقول: « الله أكبر»، ثم إركع واضعاً يُمناک على رُكبتک اليمنى قبل يسراک على اليسرى مالئاً كفيک ركبتيک، مُلقماً لها بأطراف أصابعک منفرجات رادّاً لهما إلى خلف مستوياً ظهرک مادّاً عنقک مُغمضاً عينيک أو ناظراً إلى ما بين قدميک و تقول: « أللهم لک ركعت و لک أسلمت و بک آمنت و عليک توكلت و أنت ربى خشع لک سمعى و بصرى و شعرى و بشرى و لحمى و دمى و مخى و عصبى و عظامى و ما أقلته قدماى غير مستنكف و لا مستكبر و لا مستحسر»، ثم قل: « سبحان ربى العظيم و بحمده»، تقول: مرة واحدة أو ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً. ثم إنتصب و تقول: « سمع الله لمن حمده»، ثم تُكبّر قائما ثم إهوِ للسجود بخضوع و خشوع متلقياً إلى الأرض بكفيک قبل ركبتيک و تجنح فى سجودک بيديک باسطاً كفيک مضمومتى الأصابع حيال مِنكبيک و وجهک، غير واضع شيئا من جسدک على شيء منه، ممكّناً جبهتک من الأرض و أفضلها التربة الحسينية على صاحبها أفضل التسليمات، جاعلاً أنفک ثامن مساجدک السبعة مرغماً به، ناظراً إلى طرفه و تقول: « اللهم لک سجدت و بک آمنت و لک أسلمت و عليک توكلت و أنت ربى، سجد وجهى للذى خلقه و شقّ سمعه و بصره و الحمد لله رب العالمين تبارک الله أحسن الخالقين»، ثم قل: « سبحان ربى الأعلى و بحمده» مرّة أو ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً، ثم ارفع رأسک، و تجلس متورّكاً و تكبّر و تقول: « أستغفر الله ربى و أتوب اليه»، ثم تقول: « أللهم اغفر لى و ارحمنى و أجرنى و ادفع عنى انى لما أنزلت علىّ من خير فقير تبارک الله رب العالمين». ثم تكبر ثم اسجد السجدة الثانية كالأولى ثم ارفع رأسک، و تجلس متوركا هنيئة، و هى « جلسة الإستراحة» ثم قم رافعاً ركبتيک قبل كفيک معتمداً عليها قائلا: « بحول الله و قوته أقوم و أقعد و أركع و أسجد». فإذا إنتصبتَ فاقرء الحمد و السورة كما مرّ بيانه فى الركعة الأولى، و أفضلها التوحيد، ثم تسكتُ بقدر نفَس، ثم تكبر للقنوت و تقنت بكلمات الفرج و نحوها رافعاً كفيک تلقاء وجهک مستقبلا ببطنيهما السماء، ناظراً اليهما ضاماً أصابعها ما عدا الإبهامين، ثم ترفع يديک بالتكبير، ثم اركع و اسجد السجدتين كما مرّ، ثم اجلس للتشهد متورّكاً ناظراً إلى حجرک و تقول: « بسم الله و بالله و خير الأسماء لله الحمد لله

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريک له، و أشهد أن محمّداً عبده و رسوله، أرسله بالحق بشيراً و نذيراً بين يدى الساعة، و أشهد أن ربى نِعم الرب و أن محمّداً نعم الرسول، اللهم صل على محمّد و آل محمد، و تقبَّل شفاعته فى أمته و ارفع درجته، السلام عليک أيها النبى و رحمة الله و بركاته، السلام علينا و على عباد الله الصالحين، ثم تسلم ناوياً للخروج من الصلوة فتقول: « السلام عليكم و رحمة الله و بركاته»، قاصداً به الأنبياء و الأئمة و الحفظة ﷺ، مُؤمِياً بمؤخّر عينيک إلى يمينک.

من آداب صلاة الجماعة

يشترط فى إمام صلوة الجماعة « العدالة» و ينبغى أنيكون أفضل القوم فى العلم و القرائة، و أنيسوّى الصفوف أوّلاً و ينوى الإمامة لِيَنال الفضل و لايتأتّى منه نية الإمامة إلا إذا كان مطمئناً من عدالة نفسه، فإن لمينو الإمامة صحت صلاة القوم إذا نووا الإقتداء به و نالوا فضل الجماعة و صحت صلوته منفرداً و لاينال فضل القدوة و الجماعة، و يرفع الإمام صوته بالأذكار سوى الستّ الإفتتاحية المستحبة و دعواتها، و لايرفع المأموم صوته إلا قدر ما يسمع نفسه، و لايقرء خلف الإمام المرضِىّ، فإنه حرام إلا إذا لمريسمع فى الجهرية و لا همهمة، و يذكر الله فى السرّيّة حال قرائة الإمام، و لايتقدّم على الإمام فى شىء من الأذكار و الأفعال و لا المكان بل إما أنيساويه أو يتأخر عنه و التأخير أفضل، و ان كان واحداً قام عن يمين الإمام و لايقف وحده بل يدخل الصف أو يجرّ إلى نفسه غيره و يتمم الخلل، ففى الحديث « ما من خطوة أحب إلى الله من خطوة تمشيها تصل بها صفاً» و يدرک الركعة و الفضيلة بإدراک الركوع و يجعله أول صلوته فيتم ما بقى عليه فى أولَييهِ إن كانتا أخيرتى الإمام، و ان لحقه فى سجدتى الأخيرة نال الفضل و يستأنف صلوته، و إن كان فى التشهد الأخير يتبعه ناوياً و يقوم من غير تجديد نيته و لايخص الإمام نفسه بالدعاء فإنه خيانة، و لايقوم من مصلاه إلى أنيتمّ المسبوقون صلاتهم، و يصلى صلوةَ أضعَف مَن خلفَه فإنّ التخفيف فى الجماعة متأكد.

من آداب التعقيب

إذا فرغت من الصلوة تشرع فى التعقيب فإنه أفضل من الصلوة تنفلاً و أبلغ فى طلب الرزق من الضرب فى البلاد، و الأذكار الواردة فيه من الأئمة الطاهرين كثيرة جداً فليطلب من مظانّها،

و أفضلها تسبيح الزهراء عليها السلام و هو أفضل من صلوة ألف ركعة فى كل يوم – كذا ورد عن الصادق عليه السلام– و اذا وجدت من نفسک كلالاً فَاقطع التعقيب و لاتكلِّفها اكمالَه مِن دون ميلها اليه و إقبالها عليه، فإن التوجّه و الإقبال، روح العبادة و الدعاء.

و تجلس فى مصلاک بعد فراغک من صلوة الصبح إلى أن تطلع الشمس و ان لم‌تكن مشتغلاً بالتعقيب فإنه ستر من النار. قال بعض العلماء: " وليَكن أوقاتک بعد الصلوة إلى طلوع الشمس موزّعة على أربع وظائف، وظيفة فى الأذكار و التسبيحات تكرّرها فى سبحة، و وظيفة فى الدعوات، و وظيفة فى قرائة القرآن، و وظيفة فى التفكر فى ذنوبک و خطاياک و تقصيرک فى عبادة مولاک و تعرّضک لعقابه الأليم و سخطه العظيم، و تحاسب نفسک و ترتب بتدبيرک برنامج أعمالک و أورادک فى جميع يومک لتتدارک به تقصيرک، و تَنوِى الخير لجميع المسلمين و تعزم أن‌لاتشتغل نهارک إلا بطاعة الله تعالى و مرضاته، و تفصل فى قلبک الطاعات التى تقدر عليها و تَختار أفضلَها و لاتَدع التفكر فى قرب الأجل و حلول الموت القاطِع للأمل، و خروج الأمر من الإختيار و حصول الحسرة و الندامة بطول الإغترار."

فإذا فرغت من التعقيب فتسجد سجدتَى الشكر و تُطيل فيهما و تفترش ذراعيک و تلصق صدرک و بطنک بالارض و تبالغ فى التضرع و الدعاء، و تأتى بالأذكار المروية عن مولانا الكاظم عليه السلام، منها ما روى أنه عليه السلام كان يقول فيها بصوت حزين و دموعه تجرى: « عصيتک رب بلسانى و لو شئت وعزّتِک لأخرستَنى، و عصيتک ببصرى و لو شئت وعزتِک لَأكمهتَنى، و عصيتک بسمعى و لو شئت وعزّتِک لأصممتَنى، و عصيتک بيدى و لو شئت وعزّتک لَجزمتنى، و عصيتک بفرجى و لو شئت وعزّتک لَعقمتَنى، و عصيتک بجميع جوارحى التى أنعمتَ بها علَىّ و ليس هذا جزائک منى.» ثم يقول: « العفو»، ألف مرة، ثم يلصق خدّه الأيمن بالأرض و يقول ثلاث مرات بصوت حزين: « بؤتُ اليک بذنبى عملتُ سوءاً و ظلمتُ نفسى، فاغفر لى ذنوبى فإنه لايغفرُ الذنوب غيرک مولاى». ثم يلصق خده الأيسر بالارض و يقول ثلاث مرات: « إرحم من أساء و اقترف و استكان و اعترف.»

من أسرار تشريع الجماعة

ينبغى أن‌تعطف نظرک إلى أسرار تشريع الصلوات فى الجماعة و ما تضمَّنت من إستعراض

كلّ مَن بلغ الرشد من أربعمائة مليون مسلم، خمس مرات فى كل يوم و ليلة فى صفوف منتظمة بكل سكينة و وقار، الأمير بجانب المأمور، و الخادم بإزاء المخدوم، و الفقير بحذاء الغَنى، و الضعيف بجنب القوى، و الرفيع مع الوضيع، و السيد بصف المسود، و كل منهم منكسر لله، ذليل بين يدى رب عظيم قاهر دون ميزة لبعضهم و لا أفضلية فى ما بينهم، و كلهم يستقبلون الكعبة المكرمة و يتجهون إلى بقعة أشرقت منها شمس الهداية المحمّدية ﷺ و يتلون النشيد الإلهى و السبع المثانى، و يوجّهون قلوبهم و نفوسهم إلى المبدأ الواحد و المعبود الفرد، و فى ذلک و حدة الشعور و توحيد المشاعر و المفاداة فى سبيل نصرة الحق و الاعتزاز بالدين، و التمرين على النظام الإلهى و الطاعة و الإتّباع و الإنقياد للإمام – كجيش مرابط –، و فى ذلک تعويدهم على أساس العدل الإجتماعى و المساواة أمام قانون الشرع، و الحرّية المتعادلة، و الإئتلاف و صفاء النفس من كدر الشوائب، و تَحلّيها بجلائل المكارم و الخصال و أمّهات الفضائل، و عدم الإعتداء على أحد فى ماله و حقوقه، و هذا كاف لحفظ السلام العام، فإن النزاع إنما ينشأ من الإعتداء، مضافا إلى أن الخضوع و الخشوع لله تعالى يُزيلان الطمع و حبّ الدنيا و حبّ المادة الذى هو منشأ الحروب.

و بمقدمات الصلوة تشيد أُسس النظافة و الصحة و الثقافة و شرف الإنسانية، و تكافح المبادئ الفاسدة، إذ يتكرر للمصلّى أن من شروط صحة الصلوة، إباحة ماء الوضوء و الغسل و إباحة تراب التيمم و إباحة مصبّ مائهما، و إباحة لباس المصلى و ساتره و مكانه و ما يسجد عليه، فلو كان شيء منها مغصوبا بطلت الصلوة فيه. فيترسخ بذلک فى نفس المصلى و ذهنه أن الناس مختلفون فى القوى و الغرائز الطبيعية و الصفات الوراثية، و أن كل فرد من الإنسان يملک فوائد عمله و يختص بثمرات جهوده و نتائج قواه و غرائزه، كإختصاصه بتلک القوى و الغرائز المتفاوتة فى أفراد البشر بالفطرة و الطبيعة فيعتقد اعتقاداً يقينياً و حسياً بأن الاختصاص و مالكية الفرد من جملة الحقوق الطبيعية و الفطرية للإنسان، و أن إنكاره خروج على ناموس الطبيعة و الفطرة، و الناس جميعاً متفقون فى مقتضيات الفطرة، و الإسلام الذى هو دين الفطرة و الطبيعة قرّر هذا الإختصاص الطبيعى و الملكية الفردية و جعله من أهم تعاليمه، و لذا اعتبر انتزاع ملک الفرد بدون رضائه غصباً حراماً و مُبطلا للصلاة و العبادة. و بهذا يحفظ نظام المجتمع و نشاط الفرد فى العمل، و يتجلى العدل الإجتماعى. ثم تصير هذه العقائد الحقة و المبادئ الصحيحة ملكات

راسخة فى نفوس المصلين، بل يجدونها أموراً فطرية طبيعية حسية، فيستحيل أن تجد المذاهب الإشتراكية المتطرفة التى تقاوم الطبيعة و تنازع الفطرة و تناقض الإسلام و تنفى الإختصاص و تنزع الملكية من الفرد و تتداخل فى شؤون الإنسان بينه و بين ربه، إلى قلوب المصلين سبيلاً.

« إن الصَّلاةَ تَنهَى عَن الفَحشاءِ و المُنكَر» (العنكبوت/٤٥)

صدق الله العظيم و صدق رسوله النبى الكريم ﷺ

من آداب الأكل و الشرب

و ممّا تعمل فى صدر النهار التصدق بما تيسر و ان كان حقيراً، فإن البلاء لايتخطاها و يقى الله بها شرّ ما ينزل فى ذلک اليوم، و تقول: « ربَّنا تَقبَّل مِنّا إنَّک أنتَ السميعُ العليمُ» (البقرة/١٢٧)، و تمسح وجهک بماء الورد و تستعمل الطيب و تصلى على النبى و آله، کىلايصيبک فى ذلک اليوم بؤس و لا فقر.

ثم تتغذى بنية التقوّى على العبادة و عمل الخير، بآدابه و أدعيته، بأنتغسل يديک و تجلس على يسارک من غير تربع و تسمّى و تحمد الله على كل لون بل كل إناء و تقول عند الشروع فيه:" بسم الله و الحمد لله رب العالمين" أو تقول: " بسم الله ثقة بالله و توكلا عليه" أو تقول: " الحمد لله الذى يطعم و لايطعم، و يجير و لايجار عليـه و يستغنى و يُفتقر اليه. أللهم لک الحمد على ما رزقتنا من طعام و إدام فى يسر و عافية من غير كَدّ منا و لا مشقة. بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض و السماء، بسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض و لا فى السماء و هو السميع العليم. أللهم أسعدنى فى مطعمى هذا و أعذنى من شره، و أمتعنى بنفعه و سلمنى من ضره."

و تكرّر حمداً لله سبحانه أثناء الأكل و تبدأ بالملح و تختم به أو بالخلّ، و لاتأكل اللحم فى اليوم الواحد مرّتين، و تأكله فى كل ثلاثة أيام، و لاتتركه أربعين يوماً و لاتنهک العظام بل تبقى فيه بقية و تطيل الجلوس على المائدة، و تُصغّر اللُّقم و تُجوّد المضغ و تقلّل النظر إلى وجوه الجلساء، و تقول عند الفراغ: " الحمد لله الذى أطعمنا فى جائعين و سقانا فى ظمآنين و كسانا فى عارين و فضلنا على كثير من العالمين." و اذا أكلت اللبن فتقول: " أللهم بارک لنا فيـه و زدنا منه"، و إذا أكلت السمک فتقول: " أللهم بارک لنا فيه و أبدلنا خيراً منه".

ثم تخلل و تقذف ما خرج من بين الأسنان بالخلاف، و تأكل ما تشتهيه أهلک لا ما تشتهيه أنت دونَهم. و تقول لرفع المائدة: " الحمد الله رب العالمين اللهم اجعلها نعمة مشكورة" و تقول لأهل الطعام: " أللهم بارک لهم فيما رزقتَهم و اغفر لهم و ارحمهم. أللهم أطعم من أطعمنى و اسق من سقانى". و اذا شربت تقول عند الشروع: " الحمد لله منزل الماء من السماء و مصرّف الأمر كيف يشاء بسم الله خير الأسماء» و تقول بعد الشرب: " الحمد الله الذى سقانا ماء عذباً و لم‌يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبى". ثم تذكر الحسين عليه السلام و عطشه و تلعن قاتليه. و إن شربت بثلاثة أنفاس، تحمد الله فى كل نفَس، وجبت لک الجنة، إلا أن‌يكون حرّاً فبنفس واحد، و لا تكثر من شرب الماء فإنه مادة كل داء، و لاتشرب عِباً و لا من جانب العروة و لا من موضع الكسر بل تشرب مَصاً و لا من شفتک الوسطى، و قائماً بالنهار و جالساً بالليل، و احفظ بطنک عن تناول الحرام و الشبهة و احرص على طلب الحلال، فإذا وجدته فاحرص أن‌تقتصر على دون الشبع، فإن الشبع يقسى القلب و يفسد الذهن و يبطل الحفظ و يثقل الأعضاء عن العلم و العبادة و العمل، و يقوّى الشهوات و ينصر جنود الشيطان، و الشبع من الحلال مبدء كل شرّ، فكيف من الحرام، و ما من وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن مَلِيء من حلال.

و طلب الحلال فريضة على كل مسلم و مسلمة، و العبادة و العلم مع أكل الحرام كالبناء على السرقين، و إذا قنعت بما تيسر لک من الملبس و المطعم و إكتفيت بضروريات المعاش و تركت التلذذ بالكماليات و الزوائد، لم‌يعزّک من الحلال ما يكفيک، فالحلال كثير.

فعليک بمعرفة الحلال و الحرام فإنها فريضة كالصلوات الخمس، و الله ولى التوفيق .

من آداب طلب الرزق

يصرف المسلم باقى أوقاته فى تحصيل العلم النافع و فى طلب الرزق الحلال، فكما أن الصلاة و الصيام و الحج عبادات كلف الله تعالى بها عباده ليتقرّبوا بها اليه، كذلک طلب الرزق الحلال بزراعة أو صناعة أو تجارة أو عمل و كسب، واجبٌ كلف الله تعالى به عباده ليتقربوا به اليه ، فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: « قال صلى الله عليه وآله : « العبادة سبعون جزءا أفضلها طلب الحلال» و قال عليه السلام: « من طلب الرزق فى الدنيا إستعفافاً عن الناس و سعياً على أهله و تعطفا على جاره لقى الله – عز و جل– و وجهه مثل القمر ليلة البدر»، و عن الصادق عليه السلام : « أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « أوحى

الله – عز و جل– إلى داود عليه السلام إنک نعم العبد لولا أنک تأكل من بيت المال و لاتعمل بيدک شيئا. فبكى داود أربعين صباحاً، فأوحى الله – عز و جل– إلى الحديد أن لِنْ لعبدى داود، فَألانَ اللهُ له الحديد و كان يعمل فى كل يوم دِرعاً فيَبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة و ستين درعاً، فَباعَها بثلاثمائة و ستّين ألفاً و إستغنَى عن بيت المال» و عنه عليه السلام: « إشترى رسول الله عِيراً أتَت مِن الشام. فاستفضل فيهـا ما قضى دَينه و قسَّم فى قرابته لقول الله – عز و جل–: « لاتُلهِيهِم تِجارةٌ و لا بَيعٌ عَن ذِكر اللهِ» (النور/٣٧).

فالمسلمون منذ عهد النبى صلى الله عليه و آله كانوا يتّجِرون و لكنهم لميكونوا يَدَعون الصلاة فى ميقاتها، و هو أفضل ممن حضر الصلاة و لميتّجر، و عن أبىحمزة قال: " رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل فى أرض له قد إستنقعت قدماه فى العرق. فقلت: " جعلت فداک! أين الرجال؟"، فقال: « قد عَمل بِالبيل فى أرضه مَن هو خير منّى و مِن أبى.» فقلت: " من هو؟"، فقال: « رسول الله و أمير المؤمنين و آبائى كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، و هو من عمل النبيين و المرسلين و الأولياء و الصالحين». و قال الصادق عليه السلام: « إنى لَأعمل فى بعض ضياعى حتّى أعرق و إن لِى مَن يكفينى، لِيعلم الله – عز و جل– أنى أطلب الرزق الحلال». فلو كان ترک الكسب خيراً لكان الأنبياء و الأولياء أولى به.

و قال عمربن‌يزيد للصادق عليه السلام: " لأقعدنّ فى بيتى و لأصلينّ و لأصومنّ و لأعبدنّ ربّى، فأمّا رزقى فسيأتينى"، فقال عليه السلام: « هذا أحد الثلاثة الذين لايُستجاب لهم». و قال له عليه السلام آخر: " أُدعُ الله أن‌يرزقنى فى دعة"، فقال عليه السلام: « لا أدعوا لک، أُطلب كما أمرک الله – عز و جل–». و قال له عليه السلام آخر: " إنا لنطلب الدنيا و نحب أن نؤتاها"، فقال عليه السلام : « تحب أن‌تصنع بها ماذا؟»، قال: " أعود بها على نفسى و عيالى، و أصِل بها و أتصدّق بها و أحجّ و اعتمر"، فقال‌عليه السلام: « ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة».

و سئل عليه السلام عن رجل، فقيل أصابته الحاجة، قال عليه السلام: « فما يصنع اليوم؟» قيل: " فى البيت يعبد ربه"، فقال عليه السلام: « مِن أين قُوته؟» قيل: " مِن بعض إخوانه"، فقال عليه السلام: « والله، الذى يقوّتُه أشدُّ عبادةً منه». و قال عليه السلام: « ليس مِنا من ترک دنياه لآخرته و لا آخرته لدنياه».

و أما الزهد فى الدنيا المرغّب فيه فى الشرع المطهر فهو أن‌لايفرح بما يؤتى من فضولها مما لايحتاج اليه فى الحال و لايأسف على ما فاته منه و يجتنب ما يشغله عن الله إلا ما

كان مضطرّاً اليه، و لايضرّه وجود المال و الجاه و لا عدمهما إذا لم‌يشتغل قلبه بشيء منهما وجوداً و عدماً، قال أميرالمؤمنين عليه السلام: « الزهد كله بين كلمتين فى القرآن، قال الله سبحانه: « لِكَيلاتَأسَوا عَلى ما فَاتَكُم و لاتَفرَحُوا بِما آتاكُم» (الحديد/٢٣) و من لم‌يأس على الماضى و لم‌يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه. و قال الصادق عليه السلام: « ليس الزهد فى الدنيا بإضاعة المال و لا تحريم الحلال، بل الزهد أن‌لاتكون بما فى يدک أوثق منک بما عند الله – عز و جل–.»

و يستثنى من هذا، المرجع الدينى الأعلى للمسلمين، فإنّ وظيفته فى الزهد فوق ما ذكرناه لعموم المسلمين و سيأتى بيانه فى مباحث الإجتهاد و التقليد، إن شاء الله تعالى.

و أما المتقشفون الذين يتبعون أهوائهم و الذين إشترطوا فى الزهد أن‌يقتصر على أدنى قدر الضرورة فى المطعم و المشرب و الملبس و المنكح و الأثاث و الجاه و يخرج الزائد من حاجة يومه من يده فوراً و لايقصد التلذذ بشيء من ذلک و لا الإسترواح بنسيم الاسحار، فهؤلاء كأنهم لم‌يسمعوا قرآناً و لا حديثاً و يستعجلون بموت الناس حثيثاً، قال الله – عز و جل–: « وَ الّذِينَ إذا أنفَقُوا لم–يُسرِفُوا و لم‌يَقتُرُوا و كانَ بينَ ذلکَ قَواماً» (الفرقان/٦٧)، و قال – جل و علا–: « و لاتَجعَل يَدکَ مَغلولَةً إلى عُنُقِک و لاتَبسُطها كُلَّ البَسط فَتَقعُدَ مَلُوماً مَحسُوراً» (الإسراء/٢٩) ، و قال – عز و جل–: « قُل مَن حَرَّمَ زينةَ اللهِ الّتى أخرَجَ لِعبادِه و الطيّباتِ مِن الرزقِ قُل هِى لِلّذينَ آمَنُوا فِى الحَياةِ الدُّنيا خالِصةً يَومَ القِيامَة» (الاعراف/٣٢) و قال تعالى و تقدّس: « يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاتُحَرِّمُوا طيّباتِ ما أحَلَّ لَكُم و لاتَعتَدوا إنّ اللهَ لايُحِبُّ المُعتدِينَ * و كُلوا مِمّا رَزقكُم اللهُ حَلالاً طَيِّباً و إتَّقوا اللهَ الّذى أنتُم بِه مُؤمِنونَ» (المائدة/٨٧ و ٨٨).

و عن الصادق عليه السلام: « ان النبى صلى الله عليه وآله قال: " إنّ أصنافاً مِن أمتى لايستجاب لهم دعائهم" و عَدَّ منهم رجلاً رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثم أقبل يدعو يا ربّ ارزقنى. فيقول الله – عز و جل–: " ألم‌أرزقک رزقاً واسعاً؟ فهلّا إقتصدتَ فيه كما أمرتُک و لم‌تسرف؟ و قد نهيتک عن الإسراف؟ ... ».

و تمام الحديث يطلب من أصول الكافى فى باب دخول الصوفية على أبى‌عبد الله عليه السلام، كتاب المعيشة.

التوكل لاينافى تحصيل الأسباب

انّ معنى التوكل المأمور به شرعاً، هو اعتماد القلب على الله تعالى فى الأمور كله و انقطاعه عما سواه، و لاينافيه تحصيل الأسباب إذا لم‌يسكن اليها و كان سكونه إلى الله تعالى دونها مجوّزاً أن‌يؤتيه الله مطلوبه من حيث لايحتسب دون هذه الأسباب التى حصلها و أن‌يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها سواء كانت لجلب نفع متوقع او لدفع ضرر منتظر، أو لإزالة آفة واقعة و سواء كانت مقطوعاً بها كمدّ اليد إلى الطعام ليصل إلى فيه، أو الشرب لدفع العطش، أو مظنونة كحمل الزاد للسفر و أخذ السلاح للعدو و اتخاذ البضاعة للتجارة و الإدخار لِتجدُّد الإضطرار و التداوى لإزالة المرض و التحرّز عن النوم فى مكمن السباع و ممرّ السيل و تحت الحائط المائل و غلق الباب و عقل البعير و نحو ذلک، و أما الموهومة كالرقية و الطيرة و الإستقصاء فى دقائق التدبير؛ فيبطل بها التوكل لأن أمثال ذلک ليست بأسباب عند العقلاء، و ليست مما أمر الله بها، بل ورد النهى عنها، على أن المأمور به، الإجمال فى الطلب و عدم الإستقصاء و ترک الإستبطاء، و انما لايبطل التوكل بالأسباب المقطوعة و المظنونة مع أن الله قادر على إعطاء المطلوب بدون ذلک، لأن الله أبَى أن‌يُجرى الاشياء إلا بالأسباب، كما قاله الصادق عليه‌السلام، و أحب الله عبادَه أن‌يطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التى سبّبها لذلک و أمرهم بذلک، قال الله تعالى: « خُذُوا حِذرَكُم» (النساء/۷۱)، و قال الله تعالى فى كيفية صلاة الخوف: « ولْيَأخُذُوا حِذرَهُم و أسلِحَتَهُم» (النساء/۱۰۲)، و قال – عزّ و جلّ–: « و أعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ و مِن رِباطِ الخَيلِ»(الانفال/۶۰) و قال لموسى عليه‌السلام: « فَأسرِ بِعِبادِى لَيلاً» (الدخان/۲۳) و التحصن بالليل إختفاء عن أعين الأعداء و نوع تسبب، و إختفى نبيّنا فى الغار عن أعين الأعداء دفعاً للضرر، و قال صلى‌الله‌عليه‌وآله لأعرابى لمّا أهملَ البعير و قال: " توكلت على الله"،: « اعقِلها و توكَّل».

و فى الإسرائيليات[۱]، « أوحى الله تعالى إلى زاهد: أردت أن‌تذهب حكمتى بزهدک فى الدنيا؟ أما علمت أنى أن‌أرزق عبدى بأيدى عبادى أحبُّ إلىّ مِن أن أرزقه بيد قدرتى؟». و أوحى إلى موسى عليه‌السلام: « إن أردت أن‌تُبطل حكمتى بتوكلک، فمن أودّع العقاقير منافع الأشياء غيرى؟».

۱. هى روايات و قصص و تعاليم من تعاليم الامم السابقة أو من بنى اسرائيل و النصارى أو من بنى اسرائيل فقط. و قديستعمل «الاسرائيليات و المسيحيات»، فيكون الاول لليهود فقط. و يمكن ان يكونا کـ« الفقير و المسكين» و کـ« الظرف و الجار و المجرور» اذا اجتمعا افترقا و اذا افترقا اجتمعا. و المهم أنّ منها ما يؤيد بالقرآن و السنة و العقل، و يستشهد بها، و منها ما يردّ، و منها ما يسكت عنها. م

من آداب القيلولة و نافلة الزوال

ينبغى أن‌تستعد قبل الزوال لصلاة الظهر، فتُقدّم القيلولة – إن كان لک قيام بالليل و سهر فى الخير– فإن فيها معونة على القيام و الصيام، و القيلولة من غير قيام بالليل كالتسحر من غير صوم بالنهار!

ثم تَجتهد أن‌تَستيقظ قبل الزوال و تتوضأ و تحضر المسجد و تصلى التحيةَ و تنتظر الوقت؛ ففى الحديث « اذا زالت الشمس فتحت أبواب السماء و أبواب الجنان و استجيب الدعاء فطوبى لِمن رفع له عمل صالح»، و فى روايةٍ « انّهـا الساعة التى يؤتى فيها بجهنم يوم القيامة فما من مؤمن يوافق أن‌يكون ساجداً أو راكعاً أو قائما إلا حرم الله جسده على النار».

و ينبغى القيام إلى الصلاة فى أول و قتها فريضة كانت أو نافلة إلا ما استثنى، فإن لأول الوقت فضلا على آخِره كفضل الآخرة على الدنيا، و أول الوقت رضوان الله و آخره عفو الله.

و أول ما تَفعله عند تَحقّق الزوال أن‌تقول: « سبحان الله و لا إله إلا الله و الحمد لله الذى لم‌يتخذ ولداً و لم‌يكن له شريک فى الملک و لم‌يكن له ولى مِن الذل و كبِّره تكبيراً». ثم بادِر إلى الوضوء، ثم تشرع فى نافلة الزوال و هى الثمان ركعات المسماة بـ« صلاة الأوّابين» و تقول بعد كل ركعتين منها: « اللهم إنى ضعيف فقوِّ فى رضاک ضعفى و خُذ إلى الخير بناصيتى و اجعل الإيمان منتهى رضاى و بارک لى فيما قسمت لى و بلِّغنى برحمتک كلَّ الذى أرجو منک و اجعل لى وُدّاً و سروراً للمؤمنين و عهداً عندک»، و تصلى الأخيرتين منها بين الأذانين لتفصل بهما بينهما و تقول بعد الإقامة: « أللهم ربّ هذه الدعوة التامة و الصلاة القائمة بلِّغ محمّداً ﷺ الدرجة و الوسيلة و الفضل و الفضيلة، بالله أستفتح و بالله أستنجح، و بمحمّد أتوجّه، اللهم صل على محمّد و ال محمّد، و اجعلنى بهم و جيهاً فى الدنيا و الآخرة و من المقربين.»

ثم اشتغل بصلاة الظهر راعياً ما راعيتَه فى صلاة الصبح من الأعمال، و خافِت فى القراءة ما عدا البسملة آتياً بما مرّ عند نُهوضک إلى ثانية الصبح، و انهض من التشهد الأول و سبِّح التسبيحات الأربع ثلاثاً، فإن أضفت اليها الإستغفار فهو أفضل، أو اقرء الحمد، ثم تُكبِّر للركوع رافعاً يديک و اركع و اسجد على قياس ما مرّ، ثم إنهض و إأتِ بركعة اخرى كذلک ثم تشهد و تسلم و تعقب بالتعقيبات العامة و المختصة بالظهر، ثم تقوم إلى ثمان ركعات نافلة العصر،

ثم تؤذن و تقیم و تفصل بینهما بسجدة تدعو فیهما بما مرّ، ثم اشتغل بصلاة العصر مراعیاً جمیع الآداب السابقة فی الظهر، و آخر ما تدعو به بعد التعقیب أن‌تقول: « أللهم انّی وجّهت وجهی الیک و أقبلت بدعائی علیک راجیاً اجابتَک طامعا فی مغفرتک طالباً ما آلیت به علی نفسک متنجزاً وعدَک إذ تقول: « أدعونی أستجب لکم» (غافر/۶۰)، فصلّ علی محمّد و آل محمّد، و أقبِل إلیّ بوجهک و ارحمنی و استجب دعائی یا أرحم الراحمین.»

ثم انصرف إلی أعمالک، ثم إذا اصفرّت الشمس فتجتهد أن‌تعود إلی المسجد قبل الغروب و تشتغل بالتسبیح و الإستغفار، فإن فضل هذا الوقت کفضل ما قبل الطلوع قال الله تعالی: « و سَبِّح بِحَمدِ ربِّکَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ و قَبلَ الغُروبِ» (ق/۳۹)، فإذا تَحقّقتَ بدخول الوقت أنیت بالکلمات النوحیة عشر مرات کما مرّت، و تبادر إلی صلاة المغرب فإنّ وقت فضیلتها ضیق، و تفصل بین أذانها و اقامتها بسکتة أو جلسة تدعو فیها، ثم افتتِح صلاة المغرب مراعیاً للآداب السابقة و تأتی بعدها بتسبیح الزهراء ﷺ و تقوم إلی أربع رکعات نافلة المغرب، فإن وقتها ضیق فإذا تحققت ذهاب الشفق المغربی، فینبغی أن‌تبادر إلی الأذان و الإقامة، ثم اشرع فی صلاة العشاء مفتتحا داعیا کما مرّ؛ و تطیل القنوت و التعقیب إلا إذا کنت إماماً فلا تطیل فی القنوت. ثم تسجد سجدتی الشکر و تبالغ فیهما بالدعاء و التضرع، ثم تصلی رکعتین الوتیرة جالساً و تقرء فی الأول « الملک» أو « الواقعة» و فی الثانیة، « التوحید»، ثم تقرء الآیتین من آخر « البقرة». ففی الحدیث المعتبر أنهما من کنوز الجنة کتبهما الرحمان بیده قبل أن‌یخلق الخلق، مَن قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزَأتاه عن قیام اللیل، و فی روایة، « مَن قرأهما فی لیلِه کَفَتاه».

من آداب النوم

فإذا أردت النوم فابسط فراشک مستقبلاً للقبلة، و نَم علی یمینک کما یضطجع المیّت فی لَحده و تقول: « رَبِّ ارجِعونِ لَعَلّی أعمَلُ صالِحاً فیمَا ترکتُ» (المؤمنون/۹۹و۱۰۰)، و اعلم أن النوم مثل الموت و التیقظ مثل البعث و لعل الله یقبض روحک فی لیلتک، فکن مستعدّاً للقائه بأن‌تنام علی الطهارة و تکون وصیتک مکتوبة تحت و سادتک، و تنام بعد أن‌تحاسب نفسک تائباً عن الذنوب مستغفراً عازماً أن لاتعود إلی معصیته و اعزم علی الخیر لجمیع المسلمین إن بعثک الله، و تذکر أنک مضطجع فی اللحد کذلک وحیداً فریداً لیس معک إلا عملک و لاتُجزی

إلا بسعيک، و لايکونن نومک أکثر من ثمان ساعات، و تلتزم صلاة الليل، ففی الصحيح عن الصادق عليه السلام: « کان فی وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لعلی عليه السلام « و عليک بصلاة الليل، و عليک بصلاة الليل، و عليک بصلاة الليل». و تقول عند منامک: «باسمک اللهم أحيی و بإسمک أموت»، ثم تقول: « اللهم إنّی أسلمت نفسی اليک و وجهت وجهی اليک و فوّضت امری اليک و ألجأت ظهری إليک، توکلت عليک رهبةً منک و رغبة اليک لا ملجأ و لا منجی منک إلا إليک، آمنت بکتابک الذی أنزلت و رسولک الذی أرسلت»، ثم تسبّح تسبيح الزهراء عليها السلام و تقرء « آية الکرسی»، ففی الحديث: « من قرأها اذا أخذ مضجعه، آمنه الله علی نفسه و جاره و جار جاره و البيوت حوله»؛ و آخر الکهف، « قُل إنَّما أنَا بَشرٌ مِثلُکُم يُوحَی إلیَّ أنّما إلهُکُم إلهٌ واحدٌ فَمَن کانَ يَرجُوا لِقاءَ ربِّهِ فَليَعمَل عمَلاً صالِحاً و لايُشرِک بِعبادَةِ ربّهِ أحَداً»، ففی الحديث من قرأ هذه الآية عند منامه، سطع له نور إلی المسجد الحرام حشوَ ذلک النور ملائکة يستغفرون له حتّی يصبح»، و فی رواية « ما من عبد يقرأ آخر الکهف حين ينام إلا إستيقظ فی الساعة التی يريد»، و هذا من المجرَّبات.

و ليأخذک النوم و أنت علی ذکر الله و علی الطهارة، فمن فعل ذلک عرج بروحه إلی العرش و کتب مصلياً حتّی يستيقظ، فإن لم‌تکن علی طهارة و بدا لک ذلک، تيمَّم بغبار فراشک فإنه لايخلوا من فضيلة و إن وجد الماء.

و إن إستيقظت فإرجع إلی ما عرفته أوّلا و داوِم علی هذا الترتيب بقية عمرک، فإن شقّ عليک المداومة فاصبر صبرَ المريض علی مَرارة الدواء إنتظاراً للشفاء، و تَفکّر فی قصر عمرک و إن عشت مئاة سنة بالإضافة إلی مقامک فی دار الآخرة و هی أبد الآباد، و تأمّل أنک کيف تتحمل المشقة و الذل فی طلب الدنيا شهراً أو سنة، رجاء أن‌تستريح بها عشر سنين مثلا فکيف لاتتحمل ذلک أياماً قلائل رجاء الإستراحة أبد الآباد.

و لاتطول أملک فيثقل عليک عملک، و قدّر قرب الموت فإن الموت لايهجم فی وقت مخصوص و حال مخصوص و لا بد من هجومه، فالإستعداد له أولی من الإستعداد للدنيا الزائلة و إنک تعلم أنک لاتبقی فيها إلا مدة يسيرة و لعله لم‌يبق من عمرک إلا ساعة أو يوم، و قرر هذا علی قلبک کل يوم و کلِّف نفسک الصبر علی طاعة الله يوماً فيوماً فإنک لو قدرت البقاء خمسين سنة و ألزمتها الصبر لنفرت و إستصعبت عليک.

فإن عملتَ هذا فرحتَ عند الموت فرحاً لا آخر له، و إن سوّفت و تجاهلت جائک الموت بغتة فى وقت لاتحتسبه و تحسرت حسرة لا آخِر لها و عند الصباح تحمد القوم السرى و لتعلمنّ نبأه بعد حين.

من آداب يوم الجمعة

إعلم أن يوم الجمعة عيد المؤمنين، و هو يوم شريف خص الله تعالى به هذه الأمة و فرَض الجماعة فى صلاة الجمعة، تأليفاً للقلوب و تنظيفاً عن الذنوب و فيه ساعة مبهمة لايوافيها عبد يسأل الله فيها حاجة إلا أعطاه، فينبغى أن تستعد لها يوم الخميس بتنظيف الثياب، و بكثرة التسبيح و الإستغفار عشية الخميس ليلة الجمعة، فإذا طلع عليک الفجر من يوم الجمعة تبكر إلى المسجد بعد حلق الرأس و قص الأظفار و أخذ الشارب و التجنب عن كل ما ينفر، و الغسل و التزين بالثياب البيض، فانهـا أحب الثياب إلى الله، و التطيب بأطيب ما عندک، سعياً على سكينة و وقار قائلاً: « أللهم من تَعبّأ و أعدّ و إستعدَّ لوفادة إلى مخلوق، رجاء رفده و طلب نيله و جوائزه و فواضله و نوافله فإليک يا سيدى وفادتى و تهيئتى و تعبئتى و إعدادى و إستعدادى، رجاء رفدک و طلب نائلک و جوائزک و نوافلک، فلاتُخيّب اليوم رجائى يا من لايخيب عليه سائل، و لاينقصه نائل، فانى لم آتک اليوم بعمل صالح قدّمته، و لا شفاعة مخلوق رجوته و لكن أتيتک مقرّاً بالظـلم و الإسائة إلى نفسى لا حجة لى و لا عذر. فأسألک يا رب أنتعطينى مسألتى و تقلبنى برغبتى و لاتردنى مجبوهاً و لا خائباً يا عظيم يا عظيم يا عظيم لا إله إلا أنت أللهم صل على محمّد و آل محمّد و ارزقنى خير هذا اليوم الذى شرّفته و عظمته و تغسلنى فيه عن جميع ذنوبى و خطاياى و زدنى من فضلک إنک أنت الوهاب.»

و إعلم ان الناس يتسابقون إلى الجنة بقدر سبقهم إلى الجمُعة، ثم إذا دخلت الجامع فاطلب الصف الأول فإن إجتمع الناس فلا تتخطَّ رقابهم، و لا تمرّ بين أيديهم و إجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتّى لايمرّوا بين يديک و لاتتعدّ حتّى تصلّى التحية، و تنفتل بعشرين ركعة زيادة على الأيام الأخر بأربع ركعات، و تبالغ بالدعاء و تلاوة القرآن و الخضوع، و مهما خرج الإمام تقطع الصلاة و الكلام و تشتغل بجواب المؤذن، ثم باستماع الخطبة و الإتّعاظ بها، و دَع الكلام رأساً فى الخطبة، و فى الخبر المعتبر، « من قال لصاحبه و الإمام يخطب « إنصت» أو « صَه»، فقد

لغى و من لغى فلا جمعة له» لأنّ قوله « إنصت» كلامٌ، فينبغى أنينهى غيره بالإشارة لا باللفظ.

ثم إقتد بالإمام كما سبق، فإذا فرغت و سلّمت، فتشتغل بالتعقيب و الأذكار المروية و تلازم المسجد إلى العصر أو إلى المغرب فتكون حسن المراقبة للساعة الشريفة فانها مبهمة فى جميع اليوم فعساك تدركها و أنت خاشع لله تعالى و تجتهد أنتتصدّق فى هذا اليوم من الأسبوع خاصاً لآخرتک و الله ولى التوفيق.

مسألة؛ يقول المجتهدون فى صلاة الجمعة انّنا نعلم بوجوبها و نشک فى إطلاق موضوع الحكم أو إشتراطه بحضور الإمام، فيحكم حينئذ بأصالة الإشتراط للشک فى أصل الوجوب فى غير مورد الشرط، أى الوجوب التعيينى، لقولهم بالتخيير بينها و بين صلاة الظهر فى يوم الجمعة؛ و سيأتى بيانه فى مسائل الصلاة.

من آداب الذكر

ينبغى للعبد أنيكون همّه ذكر مولاه بل لايكون له همٌّ سواه فيكون هو غاية مقصده و نهاية مناه، فيذكره فى قيامه و قعوده و أكله و شربه و حركته و سكناه، و ينبغى أنيكون الذكر بالقلب و اللسان و الاركان جميعاً، و أعنى بالذكر بالأركان استيلاء الخشوع عليها استحياءاً كأنه بين يدى ملک عظيم بحيث يكون كلّ مَن نظر اليه يذكر الله بآثار خضوعه و خشوعه و خشيته، و هذا انما يكون بعد أنيصير الذكر القلبى خُلقاً له و دَيدناً، و الذكر اللسانى مُعين على ذلک بشرط حضور القلب، قال الله تعالى: « فَاذكُرونِى أذكُركُم» (البقرة/١٥٢) و قال تعالى: « فَإذا قَضيتُم الصَّلاةَ فَاذكُروا اللهَ قِياماً و قُعُوداً و عَلى جُنوبِكُم» (النساء/١٠٣)، قال ابن عباس: " أى بالليل و النهار و فى البر و البحر و السفر و الحضر و الغنى و الفقر و المرض و الصحة و السر و العلانية."، و قال تعالى: « فَإذا قَضيتُم مَناسِكَكُم فَاذكُروا اللهَ كَذِكرِكُم آبائَكُم أو أشَدّ ذِكراً» (البقرة/٢٠٠)، و قال تعالى: « و الذَاكرينَ اللهَ كَثيراً و الذاكِرات» (الاحزاب/٣٥)، و قال تعالى: « الذِينَ آمَنُوا و تَطمَئِنُّ قُلوبُهم بِذكرِ اللهِ ألا بِذكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلوب» (الرعد/٢٨)، و قال تعالى: « رِجالٌ لاتُلهِيهِم تِجارةٌ و لا بَيعٌ عَن ذِكرِ اللهِ» (النور/٣٧)، و قال – عز و جلّ–: « ثُمّ تَلينُ جُلودُهم و قُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ» (الزمر/٢٣)، و قال: « تَتَجافَى جُنوبُهم عَنِ المَضاجِعِ يَدعُونَ رَبَّهُم خَوفاً و طَمَعاً» (السجده/١٦)، و قال سبحانه و تعالى فى ذمّ المنافقين: « و لايَذكُرونَ اللهَ إلا قَليلاً» (النساء/١٤٢)، و قال تعالى:

« إستَحوَذَ عَليهِم الشَّيطانُ فأنسَاهُم ذِكرَ اللهِ أولئِکَ حزبُ الشَّيطانِ ألا اِنّ حِزبَ الشيطانِ هُمُ الخاسِرونَ» (المجادلة/١٩)، و قال تعالى: « لاتُلهِكُم أموالُكُم و لا أولادُكُم عَن ذِكرِ اللهِ و مَن يَفعَل ذلکَ فَاولئِکَ هُمُ الخاسِرُونَ» (المنافقون/٩)، و قال تعالى: « و لاتُطِع مَن أغفَلنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا و اتَّبَعَ هَواهُ» (الكهف/٢٨)، و قال تعالى: « و مَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمَنِ نُقَيِّض لَه شَيطاناً فَهُو لَه قَرينٌ» (الزخرف/٣٦)، و قال تعالى: « فَوَيلٌ لِلقاسِية قُلوبُهم مِن ذِكرِ اللهِ أولئِکَ فِي ضَلالٍ مُبينٍ»(الزمر/٢٢)، و قال تعالى : « و لاتَكُونُوا كَالّذينَ نَسُوا اللهَ فَأنسَاهُم أنفُسَهُم أولئِکَ هُمُ الفَاسِقُونَ» (الحشر/١٩).

و عن الصادق عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه و آله: « ألا أُخبركم بخير أعمالكم، أرفعها فى درجاتكم و أذكاها عند مليككم و خير لكم من الدينار و الدرهم و خير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم و يقتلوكم؟» قالوا: " بلى"، قال: « ذكر الله تعالى كثيراً»، ثم قال عليه السلام: جاء رجل إلى النبى فقال:" مَن خير أهل المسجد؟"، فقال صلى الله عليه و آله : « أكثرهم ذكراً».

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله: « مَن أُعطِى لساناً ذاكراً فقدأعطىَ خير الدنيا و الآخرة»؛ و سئل الصادق عليه السلام عن دعاء جامع، فقال: « احمد الله»، فانه لايبقى أحد يصلى إلا دعا لک، يقول: « سمع الله لمن حمده»؛ و عن النبى صلى الله عليه و آله: « لو وضعت كلمة لا إله إلا الله فى ميزان و وضعت السماوات و الأرض و من فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلک و هى أحب الكلمات إلى الله و من قالها مخلصاً دخل الجنة، و اخلاصه بها أن يحجزه عما حرم الله – عز و جل– و ما من مؤمن يقولها إلا مَحت ما فى صحيفته من السيئات حتّى ينتهى إلى مثلها حسنات، و ما من عبد يقولها يمدّ بها صوته فيفرغ إلا تناثرت ذنوبه تحت قدميه كما يتناثر ورق الشجر، و هى كلمة التوحيد و كلمة الإخلاص و كلمة التقوى و هى الكلمة الطيبة و هى دعوة الحق و هى العروة الوثقى و هى ثمن الجنة»، كل ذلک عن النبى صلى الله عليه و آله و لو أضيف اليه « الحى القيوم» يرجى أنيكون قد أتى بالإسم الأعظم، كما يستفاد من الأخبار المعتبرة، و لذا قيل: " أفضل الأذكار قول لا اله إلا هو الحى القيوم"؛ و فى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه و آله: « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن».

من آداب الصحبة و المعاشرة

إعلم أن صاحبک الذى لايفارقک فى حضرک و سفرک و نومک و يقظتک بل فى حياتک

و موتک هو ربک و مولاک و سیدک و خالقک، و مهما ذکرتَه فهو جلیسک، اذ قال – عز و جل–: « أنا جلیس من ذکرنی» و مهما إنکسر قلبک علی تقصیرک فی حق دینک، فهو ملازمک و صاحبک، قال تعالی: « أنا عنـد المنکسِرة قلوبهم»[١]، فلو عرفته حق المعرفة لإتخذته صاحباً و ترکت الناس جانباً، فإن لم‌تقدر علی ذلک فی أوقاتک، فإیاک أن‌تخلّی لیلک و نهارک عن وقت تَخلو فیه بمولاک و تتلذذ معه بمناجاته، و عند ذلک فعلیک أن‌تتعلم آداب الصحبة مع الله – عزّ و جلّ–، و أدبها، إطراق الطرف و جمع الفکر و توحید الهمّ و دوام الصمت و سکون الجوارح و مبادرة الأمر و إجتناب النهی و قلّة الإعتراض علی القدَر و دوام الذکر و ملازمة الفکر و إیثارک الحق و الیأس من الخلق و الخضوع تحت الهیبة، و الإنکسار تحت الحیاء، و السکون عن الحیل، و الإستعانة من الله.

ثم إعلم أن الناس فی حقک ثلاثة اصناف، إما اصدقاء و إما معارف و إما مجاهیل، بأن بُلیت بالعوام المجهولین، فأدب مجالسة العامة، ترک الخوض فی حدیثهم و قلّة الإصغاء إلی أراجیفهم، و التغافل عما یجری من سوء الفاظهم، و الإحتراز عن کثرة لقائهم و الحاجة الیهم، و التنبیه علی منکَراتهم باللطف، و النُصح عند رجاء القبول منهم.

و أما الإخـوة و الاصدقاء، فعلیک فی حقهم وظیفتان:

– إحداهما، أن‌تطلب اولاً شروط الصحبة و الصداقة، فلاتواخ إلا مَن یصلح للأخوة. قال رسول الله ﷺ : « المرء علی دین خلیله، فلینظُر أحدُکم مَن یُخالل»[٢]. فإذا طلبتَ رفیقاً، لِیکونَ شریکک فی التعلم، و صاحباً فی أمر دینک و دنیاک، فراعِ فیه خمس خصال،

– الاولی، العقل. فلا خیر فی صحبة الأحمق، فأحسن أحواله أن‌یضرّک و هو یرید ان‌ینفعک،

– الثانیة، حسن الخُلق. فلاتَصحب مَن ساء خلقُه، و هو الذی لایملک نفسه عند الغضب و الشهوة؛ و إصحب من إذا خدمتَه صانَک و إن‌صحبتَه زانَک، و إن‌قعدت بک مؤنة مانک؛ و إصحَب مَن اذا مددتَ یدک بخیر مدَّها و إن رأی منک سیئةً سدّها.

---

١. ورد هذا الحدیث فی مصادر العامة و الشیعة باختلاف فی الألفاظ ، منها: « تفسیر کشف الاسرار»، ج١/١٣٥وج٦ وج٩؛ و « تفسیر الرازی» ج٢/١٨٣، و...؛ « بحارالانوار، ج٧٣، عن « نوادر» « للراوندی»: و سئل رسول الله ﷺ : " أین الله؟"، فقال ﷺ : « عند المنکسرة قلوبهم.». و فی غرر الحکم، ج٤، ح٥٩٣٧: « طوبی للمنکسرة قلوبهم من اجل الله». م

٢. الامالی، لشیخ الطائفة الطوسی، ح١١٣٥، و البحار، ج ٧٤؛ و اما فی الکافی، ج٢ و تنبیه الخواطر، ج٢ و وسائل الشیعة، ج٤: « المرء علی دین خلیله و قرینه». م

– الثالثة، الصلاح، فلاتصحَب مُصرّاً على معصية كبيرة، لأن مَن يخاف الله لايصرّ على كبيرة، قال الله تعالى: « و لاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا و اتبع هواه» (الكهف/٢٨).

– الرابعة، أنلايكون حريصاً على الدنيا، فصحبة الحريص على الدنيا سمّ قاتلٌ لأنّ الطَبع يسرق من الطبع مِن حيث لايدرى.

– الخامسة، الصدق، و لاتصحب كذّاباً فإنه مثل السّراب يقرّب منک البعيد و يُبعّد منک القريب،

– الوظيفة الثانية، مراعاة حقوق الصحبة، فمتى انتظمت بينک و بين رفيقک الصحبة، فعليک حقوق الصحبة و فى القيام بها آداب، قال النبى ﷺ « مَثل الاخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى»، و دخل ﷺ أجمة و اجتَنى منها سواكين أحدهما مُعوجّ و الآخَر مستقيم، و كان معه بعض أصحابه، فأعطاه المستقيم و أمسَک لنفسه المعوج، فقال: يا رسول الله إنک أحق بالمستقيم منّى، فقال ﷺ « ما مِن صاحب يصحب صاحباً و لو ساعةً مِن نهار إلا سُئل عن صحبته هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه»، و قال ﷺ « ما اصطحب اثنان قط إلا و كان أحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه».

و من أدب الصحبة الإيثار بالمال، فإن لميمكن فبَذل الفضل من المال عند الحاجة و الإعانة بالنفس فى الحاجات على سبيل المبادرة من غير حاجة إلى الإلتماس؛ و كتمان السر و ستر العيوب و السكوت عن تبليغ ما يسوءه مِن مذمة الناس إياه، و إبلاغ ما يسرّه من ثناء الناس عليه، و حسن الإصغاء عند الحديث، و ترک المماراة فيه، و أنيدعوه بأحسن أسمائه اليه، و أنيثنى عليه بما يعرف مِن محاسنه، و أنيشكره على صنيعه فى حقه، و أنيَذبّ عنه فى غيبته اذا تعرض لعِرضه، كما يذبّ عن نفسه، و أنينصحه باللطف و التعريض اذا احتاج إلى ذلک، و أنيعفوا عن زلته و هفوته، و لايعتب عليه، و أنيدعو له فى صلاته فى حياته و بعد مماته، و أنيحسن الوفاء مع أهله و أقاربه بعد موته، و أن يؤثِر التخفيف عنه فلايكلِّفه شيئاً من حاجاته، و أنيظهر الفرح بجميع ما يتاح له من مسارّه، و الحزن بما ينال من مكارهه و أنيضمر مثل ما يظهر، فيكون صادقاً فى وُدّه سرّاً و علناً، و أنيبدئه بالسلام عند إقباله، و أنيوسّعَ له فى المجالس، و يَخرج له عن مكانه، و أنيشيّعه عند قيامه، و أنيصمت عند كلامه حتّى يفرغ من خطابه، و يترک التدخل فى كلامه، و يعامله بما يحب أن يعامَل به، فمَن لايحبُّ لأخيه ما يحب

لنفسه، فأخوّتُه نفاق.

– و أما الصنف الثالث، و هُم المعارف، فاحذر منهم، فإنک لاترى الشرّ إلا ممّن تعرفه و يعرفک. أما الصديق فيعينک و أما المجهول، فلايتعرّض لک، و انما الشرّ کله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم، فأقلِل من المعارف ما قدرتَ، فإذا بُليتَ بهم فی مدرسة او مسجد او سوق او بلد، فيجب أنلاتستصغر منهم أحداً، فإنک لاتدری لعله خير منک، و لاتنظر بعين التعظيم لهم فی مآلهم من الدنيا، فتهلک، لأن الدنيا صغيرة و حقيرة عند الله، و إن عادوک فلاتُقابلهم بالعداوة، و اقطع طمعک عن مالهم و جاههم و معونتهم، و اذا رأيت منهم کرامة و خيراً فاشکر الله الذی حبّبک إليهم، و إن رأيت منهم شرّاً فَکِلهم إلی الله – عز و جل– و استعِذ بالله مِن شرّهم و لاتعاتبهم.

مِن آداب الولد مع والديه

ان کان لک والدان، فأدبُک معهما أنتستمع کلامهما و تقوم لقيامهما و تمتثل امرهما و لاتمشی أمامهما و لاترفع صوتک فوق صوتهما و تُلبّی دعوتَهما و تحرص علی طلب مرضاتهما، و تخفض لهما الجناح و لاتمنن عليهما بالبرّ لهما و لا بالقيام بأمرهما، و لاتنظر اليها شزراً و لاتقطب وجهک فی وجههما و لاتسافر إلا بإذنهما.

و أمّا حقّ امّک، فأنتعلم أنّها حملَتک حيث لايحتمل احدٌ احداً، و أعطَتک مِن ثمرة قلبها ما لايعطی احد احداً، و وقاک بجميع جوارحها و لمتُبالِ أنتجوع فتُطعمک، و تعطش و تسقيک، و تعری و تظلک، و تضحی و تهجر النوم لأجلک و وقاک الحرّ و البرد، و انّک لاتطيق شکرها إلا بعون الله – عز و جل– و توفيقه.

و أما حق ابيک، فأنتعلم أنه اصلک، و لولاه لمتکن؛ فمهما رأيت فی نفسک ما يعجبک، فإعلم أن اباک اصل النعمة عليک، فاحمد الله و اشکره و لا قوة إلا بالله.

من آداب الصوم

و لاتظنن اذ صمتَ أن الصوم هو ترک الطعام و الشراب و الوقاع، ففی الحديث « کَم مِن

صائم ليس له من صيامه إلا الجوع و العطش»[1]، بل تمام الصيام بكفّ الجوارح كلها عما كره الله تعالى، بل ينبغى أن‌تحفظ العينَ عن النظر إلى المكاره، و اللسانَ عن النطق بما لايعنيک، و الأُذنَ عن الإستماع إلى ما حرّم الله، فإنّ المستمع شريک القائل، و كذلک تكفّ البطنَ و الجوارح. قال الصادق عليه‌السلام: « اذا صُمتَ فليَصُم سمعُک و بصرک و شعرک و جلدک» و عَدّ اشياء غيرها، و زاد فى خبر آخَر، « و دَعِ المِراء و أذى الخادم و ليَكُن عليک وقار الصيام، فإن رسول الله سمع امرأةً تسبُّ جاريتها و هى صائمة فقال لها: « كُلِى»، فقالت: " إنّى صائمة"، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: « كيف تكونينَ صائمة و قدسببتَ جاريتک؟! إن الصوم ليس من طعام و شراب».

و فى الحديث النبوى صلى‌الله‌عليه‌وآله: « إنما الصوم جُنة من النار، فإذا كان أحدكم صائما فلايرفث و لايجهل، و إن امرُءٌ قاتَله او شاتَمه، فليَقُل إنّى صائم إنى صائم».

ثم اجتهد أن‌تفطر على طعام حلال، و لاتستكثر فتزيد على أكل ليلة. فلافرق اذا استوفيت أن–تأكله دفعة او دفعتين، و انما المقصود كسر شهوتک و تضعيف قوتک لِتقوَى بذلک على التقوى، فإذا أكلت فى عشيتک ما تداركت به ما فاتک فى نهارک فلا فائدة فى صومک و قد ثقُلت معدتک، و ما مِن وعاء أبغض إلى الله من بطن مَلىء مِن حلال.

فإذا عرفتَ معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعتَ، فإنه أساس العبادات و مفتاح القربات، ففى الحديث، قال الله تعالى: « كلّ حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعف إلا الصيام، فإنه لِى و أنا أجزى به»[2] و قال صلى‌الله‌عليه‌وآله : « و الذى نفسى بيده لَخَلوق فمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسک، يقول الله – عز و جل–: " إنما يَذر شهوته و طعامه و شرابه لأجلِى فالصيام لى و أنا أجزى به."»

و لاينبغى أن‌تقتصر من الصيام على صوم شهر رمضان فتترک التجارة بالنوافل و كسب الدرجات العالية فى الفردوس فتتحسّر اذا نظرتَ إلى الصائمين كما تنظر فى الدنيا إلى الكوكب الدرّى و فى أعلى عليين؛ فمِن الأيام المتأكدة صيامها اول خميس من كل شهر و آخر خميس منه و أول أربعاء من العشر الثانى فإنها تَعدلُ صوم الشهر و تذهب بوسوسة الصدر و هى جميع ما

---

۱. فى نهج البلاغة، جاءت كلمة « الظمأ» مكان « العطش». و فى بعض المصادر « الا الظمأ و الجوع». م

۲. المحجة البيضاء، ج۲، ص۱۲۱. فى مستدرک الوسائل ، ج۷، ، كتاب الصيام، عن ابن‌ابى‌جمهور فى « درر اللئالى» بالفاظ مختلفة، و عن الترمذى كما فى المحجة. و عن ابن ماجة عن ابى هريرة، و نقل البخارى و مسلم كلاهما عن ابن ماجة؛ و ... . م

جرت به السنة فی الصوم، و علیها قبض رسول الله ﷺ فإن فاتَتک تَقضِیها، فإن لم‌تَفعل، تَتصدّق فی کل یوم بمُدّ من طعام، و مِن التطــوع، صیام أول ذی الحجة و یوم الغدیر و دحو الأرض، فیَعدل کل منها صوم ستّین شهراً، و الأول إلی تمام التسع صوم الدهر، و یوم المولد و المبعث و رجب و شعبان أو ما تیسّر منهما، فإن رجب، شهر أمیر المؤمنین علیه السلام و شعبان شهر رسول الله ﷺ و إن رمضان شهر الله تعالی.

من اسرار تشریــع الصــوم

الصوم مبدأ أدبی سام و مؤاساة شاملة و مساواة کاملة لِمختلف الطبقات أمام القانون الإلهی، و عبادة اسلامیة کفیلة بتثقیف عامة المسلمین، تبعث فیهم لغة الإحساس التی بها تنبعث من صمیم نفس الصائم عاطفة لیست فی طوق اللغة و لایغنی فی تذوّقها الوصف، فتخلق فی النفوس عناصر الشفقة و الرحمة و الرأفة و الحنان و الإیثار إلی جانب عناصر الرجولة الکاملة فیهم و روح المفاداة فی سبیل إعلاء شأن الدین و المسلمین، و الدفاع عن العقیدة بقوة الإرادة و رباطة الجأش و القدرة علی مغالبة الشهوات و مکافحة الأهواء و التدریب علی الخشونة، و تؤهّل النفوس للخصــال الکریمة و المکارم السامیة و المبادئ الإجتماعیة القویمة التی هی الهدف المقصود للأدیان الإلهیة و للإنسانیة، و ینبّه القلوب لِضرورة التکافل بین الأقویاء و الضعفاء و بین الأغنیاء و الفقراء و بذلک یحصل التضامن الإجتماعی و یتوحّد الشعور العام فیتحمّلون بجلَد و صبر أشدّ المِحن و أعظم الکوارث و یندفعون إلی التضحیة فی سبیل البرّ و إقامة أعمال الخیر من فیض فضل الله علیهم.

الصوم بمرکزه الدینی و هیبته الأدبیة له شأن عظیم فی تحدید صنوف المتاع المادی و توجیه العقول و الأذواق إلی صالح الفرد فی ضمن صالح المجتمع، و تکوین أمّة ذات غرض إنسانی سام متّزنة الجوانب لاتطغی فیه الخشونة و الأثرة علی الرأفة و الشفقة و الإیثار، و الثمرة النهائیّة لهذه العبادة الدینیة التی یقصد بها التقرب إلی الله تعالی، توحُّد الوجهة و اجتماع الکلمة و قیام دولة الحق علی وجه الأرض.

المطلب السابع

التعليم فى الإسلام

وردت آياتٌ فى القرآن الكريم فى فضل العلم و التعليم،

منها: قال الله تعالى فى سورة العلق، – و هى أول ما نُزّل على نبينا ﷺ فى قول أكثر المفسرين–: « إقرَأ بِإسمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ، إقرَأ و رَبُّکَ الأکرَمُ، الَّذِی عَلَّمَ بِالقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لَم‌یَعلَم»، فإفتتح كلامه المجيد بذكر نعمة الإيجاد، و أتبعه بذكر نعمة العلم، فلو كان بعد نعمة الإيجاد نعمةٌ، أعلى من العلم و التعليم، لكانت أجدر بالذكر.

و منها: قوله تعالى، « هَل یَستوِی الَّذینَ یَعلَمُونَ و الَّذینَ لایَعلمُونَ إنَّما یَتَذکَّرُ أولُوا الألبابِ» (الزمر/۹)،

و منها: قوله تعالى، « ... یَرفَعِ اللهُ الَّذینَ آمَنُوا مِنکُم و الَّذینَ أوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ» (المجادلة/۱۱)،

و منها: قوله تعالى، « و قُل رَبِّ زِدنی عِلماً» (طه/۱۱۴)،

و منها: قوله تعالى، « شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلَه إلا هُو و المَلائِکةُ و أولُوا العِلمِ» (آل‌عمران/۱۸)،

و منها: قوله تعالى، « وَ مَا یَعقِلُها إلا العَالِمُون» (العنکبوت/۴۳)،

و منها: قوله تعالى، « بَل هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدورِ الَّذینَ أوتُوا العِلمَ» (العنکبوت/۴۹)،

و منها: قوله تعالى، « و مَن یُؤتَ الحِکمَةَ فَقَد أُوتِیَ خَیراً کَثِیراً» (البقرة/۲۶۹)، و الحكمة ما يتضمن صلاح النشأتين من العلوم و المعارف.

و منها: قوله تعالى، « إنَّما يَخشَى اللهَ مِن عبادِهِ العُلماءُ» (فاطر/٢٨)،

و منها: قوله تعالى، « و ما يَعلَمُ تأوِيلَهُ إلا الله و الرّاسِخُونَ فِى العِلمِ ...» (آل‌عمران/٧)،

و منها: قوله تعالى « و لَقَد كَرَّمنَا بَنِى آدَم» (الإسراء/٧٠)،

و منشأ كرامة الإنسان و منبع شرفه على سائر أنواع الحيوان، نفسه الناطقة المجردة ذاتاً و المفتقرة فى تدبيرها و تصرّفها إلى البدن المادى، و الممتازة بالعقل المتدرّج من درجة الإستعداد إلى درجة الفعلية المعبر عنها بالمستفاد، فالعلم كمال للنفس الناطقة و كمال العلم بالعمل به حسب اقتضاء الفطرة الإنسانية للكمال الأتمّ، أعنى كمال الروح و العقل و البدن، الذى تستهدفه التشريعات الإسلامية و لهذا نجد فى تعاليم الإسلام فرض العلم و الحثّ عليه و وجوب العمل بالعلم. و من هنا يظهر أنه ليس فى العلوم بعد المعرفة أشرف من علم الفقه لأن مدخليته فى العمل للآخرة و العمل للدنيا التى هى فى نظر الإسلام مزرعة للآخرة، أقوى مما سواه، فهو الناظم لأمور المعاش و لأمور المعاد، و به يتم كمال نوع الإنسان، فيجب على الفقيه تصحيح القصد و إخلاص النية و تطهير القلب من دنس الأغراض الدنيوية و تكميل النفس فى قوّتَيها النظرية و العملية و تزكيتها باجتناب الرذائل و اقتناء الفضائل الخلقية و قهر القوّتين الشهـوية و الغضبية، و إلا حق عليه قول رسول الله ﷺ « أنا مِن غير الدجال أخوَفُ عليكم من الدجّال»، فقيل: " و ما هو؟"، قالﷺ: « العلماء السوء».[١]

و أما السنة، فهى فى فضل العلم و وجوب العمل به و التعلم لاتكاد تُحصى، و قد أفرد فى أصول الكافى « كتاب فضل العلم»، و ضمّنه « باب فرض العلم و وجوب طلبه و الحث عليه»، روى فيه باسناده عن ابى‌عبدالله عليه السلام قال: « قال رسول الله ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا و إن الله يحب بغاة العلم». و يدل هذا الحديث النبوى على أن و جوب التعليم و التعلم فى الإسلام عام يشمل كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية حتّى الموالى و الصُنّاع، و روى أيضا عنه [ابى‌عبدالله] عليه السلام أنه قال: « إن العلماء ورثة الأنبياء، و أن الأنبياء لم‌يورثوا ديناراً و لا درهما و لكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر»، يعنى يصرفون الدرهم و الدينار فى مصارفها فى حياتهم و لايبقى شىء منهم بعد الموت حتّى يصير ميراثاً، و المراد منه مثل الدرهم و الدينار

١. ورد فى مصادر العامة (منها مسند احمد، ٥/١٤٥) عن ابى ذر – رضى الله عنه– مثل هذا الحديث بتفاوت فى الالفاظ، و ورد فى بعضها « ائمةً مضلين» أو « مِن الائمة المضلين» بدل « العلماء السوء». م

مما فيه خساسة لا مثل الأثواب و الآلات مما روى بقائه بعد رسول الله ميراثا لأهل البيت.

و روى عن علی‌بن‌الحسين عليه السلام قال: « لو يعلم الناس ما فی طلب العلم لطلبوه و لو بسفک المهج و خوض اللجج».

و روى فی باب النوادر، عن أبی‌عبدالله عن آبائه عليهم السلام قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: " يا رسول الله ما العلم؟"،

قال: « الإستماع»، قال: " ثم مه؟"، قال: « الحفظ»، قال: " ثم مه؟"، قال: « العمل به»، قال: " ثم مه؟"، قال: « نشره».

و يستفاد من هذا الحديث النبوی الشريف الذی هو برنامج كامل لمنهاج التعليم و التعلم فی الإسلام أنّ « الإنصات» استعداداً للتعلّم و إستماع الدرس، من أسباب ايقاظ الإنتباه الحقيقی فی نفس المتعلم و تشويق له إلى التعلم، و « الإنتباه» توجُّه الطاقة العقلية إلى امر محسوس أو معقول بدافع ارادی أو غير ارادی، و هو شرط اساسی لابد منه فی مطلع منهاج التعليم الإسلامی ليكون المدرک واضحا جلياً فی التعلم. ثم يحصل بالإستماع فهمُ موضوعات الدراسة فهما صحيحاً متقناً، و ترتيب المعانی و الأفكار فی الذهن ترتيباً منطقياً، و مضاهاة الحقائق و قياس بعضها إلى بعض، فيسهل حفظه بعد الإستماع، و حفظ العلم الحقيقی الذی هو كمال للنفس الناطقة، و قد وجد فی التجارب أن من يستعد لعمل مِن الأعمال و يستجمع قواه قبل البدء فيه يعمله بسرعة و إتقان سيما اذا كان الشروع فيه متوقفاً على إنذار أو إعلام من شخص آخر كالمدرّس مثلاً.

و فی الحديث دلالة على أن التعليم لايقتصر على مجرد الاصغاء و الإستماع و فهم الدرس، بل يتدرّج فی تمرين عملی ببدء بالحفظ و ترسيخ مادة الدرس فی الذهن ثم العمل به، فإن ثمرة العلم، العمل الصالح، و ثمرة الأدب، العقل الراجح، ثم تعليمه و نشره.

و روى فی باب فرض العلم و وجوب طلبه و الحثّ عليه، عن ابی‌عبدالله عليه السلام قال: « لَوَدَدتُ أن أصحابی ضُربت رؤوسهم بالسياط حتّى يتفقهوا.»

و روى عن محمّدبن‌مسلم قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: « لو أتيتُ بشابّ من شباب الشيعة لايتفقهُ لَأدّبتُه.»

و روى عن اسحاق‌بن‌عمار قال: " سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: « ليت السياطَ على رؤوس

أصحابى حتّى يتفقهوا فى الحلال و الحرام.»

و روى عن ابى‌جعفر عليه السلام قال: « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين الف عابد.»

و روى عن حفص بن غياث قال: قال لى ابوعبدالله عليه السلام : « من تَعلّم العلم لله و عمل به و علَّم لله دُعى فى ملكوت السماوات عظيما، فقيل تعلَّم لله و عمل لله و علّم لله».

و روى عن ابى‌جعفر عليه السلام قال: « الكمال كل الكمال التفقه فى الدين و الصبر على النائبة، و تقدير المعيشة».

و روى عن ابى‌عبدالله عليه السلام قال: « العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، و من عمل علم، و العلم يهتف بالعمل، فان أجابه و إلا ارتحل عنه».

و روى عنه عليه السلام قال: « ان العالم اذا لم‌يعمل بعمله زلّت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا».

و روى عن هاشم‌بن‌البريد، عن أبيه قال: " جاء رجل إلى على‌بن‌الحسين عليهما السلام فسأله عن مسائل فأجاب، ثم عاد لِيسئل مثلها، فقال على‌بن‌الحسين عليه السلام : « مكتوب فى الإنجيل، لاتطلبوا علم ما لاتعلمون و لمّاتعملوا بما علمتم، فإن العلم اذا لم‌يعمل به لم‌يزد صاحبه إلا كفراً و لم‌يزد من الله إلا بُعداً».

و روى عن أبى‌عبدالله عليه السلام قال: «اذا رأيتم العالم مُحباً لدنياه فإتّهموه على دينكم، فإن كل محب لشىء يحوط ما أحب»، و قال عليه السلام : «أوحى الله إلى داود عليه السلام لاتجعل بينى و بينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتى، فإن أولئک قُطّاع طريق عبادى المريدين الىّ، انّ أدنى ما أنا صانع بهم أن انزع حلاوة مناجاتى عن قلوبهم.»

و روى عمن حدثه عن أبى‌جعفر عليه السلام قال: «من طلب العلم لِيباهى به العلماء أو يُمارى به السفهاء او يَصرف به وجوهَ الناس اليه، فليتبوّء مقعده من النار، إن الرياسة لايصلح إلا لأهلها».

و روى عن سليم‌بن‌قيس قال: " سمعت أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «منهومان لايشبعان، طالب دنيا و طالب علم، فمَن اقتصر من الدنيا على ما أحل الله سلم، و مَن تناولها مِن غير حِلّها هلک إلا أن‌يتوب و يرجع، و مَن اخذ العلم من أهله و عمل به نجى، و من اراد به الدنيا فهى حظه».

و روی عن أبی‌عبدالله علیه‌السلام قال: « من اراد الحدیث لمنفعة الدنیا لم‌یکن له فی الآخرة نصیب، و مَن اراد به خیر الآخرة أعطاه الله خیر الدنیا و الآخرة».

مِن آداب المتعلم مع العالم

روی عن ثابت‌بن‌دینار الثمالی عن سیدالعابدین علی‌بن‌الحسین‌بن‌علی‌بن‌أبی‌طالب علیهم‌السلام قال: « و حق سایسک بالعلم التعلیم له و التوقیر لمجلسه و حسن الإستماع الیه، و الإقبال علیه و أن‌لاترفع علیه صوتک و لاتجیب علی أحد یسأله عن شیء حتّی یکون هو الذی یجیب و لاتحدّث فی مجلسه أحداً و لاتغتاب عنده أحداً و أن‌تدفع عنه إذا ذکر عندک بسوء، و أن‌تستر عیوبه و تظهر مناقبه، و لاتجالس له عدوّاً و لاتعادی له ولیاً. فإذا فعلت ذلک شهد لک ملائکة الله تعالی بأنک قصدته و تعلّمت علیه لله – جلّ اسمه– لا للناس.

و حق رعیتک بالعلم أن‌تعلم أن الله – عز و جل– إنما جعلک قیماً له فی ما آتاک من العلم و فتح لک من خزائنه، فإن أحسنت فی تعلیم الناس و لم‌تخرق بهم و لم‌تضجر علیهم، زادک الله – عز و جل– من فضله، و إن انت منعت الناس من علمک او خرقت بهم عند طلبهم منک، کان حقا علی الله – عز و جل– أن‌یسلبک العلم و بهائه و یسقط من القلوب محلک».

و روی عن أبی‌عبد الله علیه‌السلام قال: « کان علی علیه‌السلام یقول: " إن مِن حق العالم أن‌لاتکثر علیه السؤال و لاتأخذ بثوبه، و إذا دخلتَ علیه و عنده قوم، فسلِّم علیهم جمیعاً و خُصّه بالتحیة دونهم، و إجلس بین یدیه و لاتجلس خلفه، و لاتغمض[تغمز] بعینیک و لاتُشر بیدک و لاتکثر من القول قال فلان و قال فلان خلافاً لقوله، و لاتضجر لطول صحبته، فإنما مثل العالم مثل النخلة حتّی تنتظرها متی یسقط علیک منها شیء، و العالم أعظم اجراً من الصائم القائم الغازی فی سبیل الله تعالی و إذا مات العالم ثلم فی الإسلام ثلمة لایسدّها شیء إلی یوم القیامة».[1]

و روی عن ابی‌الحسن موسی علیه‌السلام قال: " دخل رسول الله صلی‌الله‌علیه‌وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال صلی‌الله‌علیه‌وآله : « ما هذا؟»، فقیل: " علّامة"، فقال صلی‌الله‌علیه‌وآله : « و ما العلامة؟»، فقالوا له: " أعلم

---

۱. الکافی، ج ۱، کتاب العقل و العلم و التوحید، باب بذل العلم: « إِنَّ مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ ... وَ لاَتَغْمِزْ بِعَيْنِکَ وَ لاَتُشِرْ بِيَدِکَ وَ لاَتُكْثِرْ مِنْ قَوْلِ قَالَ فُلاَنٌ وَ قَالَ فُلاَنٌ خِلاَفاً لِقَوْلِهِ وَ لاَتَضْجَرْ بِطُولِ صُحْبَتِهِ. فَإِنَّمَا مَثَلُ الْعَالِمِ مَثَلُ الْنَّخْلَةِ تَنْتَظِرُهَا مَتَى يَسْقُطُ عَلَيْکَ مِنْهَا شَيْءٌ وَ الْعَالِمُ أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.» و ورد فی البحار، ج ۲، تتمة ابواب العلم، باب حق العالم عن المحاسن: «... القائم الغازی فی سبیل الله و اذا مات العالم...»الخ. م

الناس بأنساب العرب و وقايعها و أيام الجاهلية و الأشعار العربية"، فقال النبى ﷺ: « ذاک عِلم لايضر مَن جَهله و لاينفع من علمه»، ثم قال: « إنما العلم ثلاثة، آية محكمة او فريضة عادلة أو سنة قائمة، و ما خلاهنّ فهو فضل.»

و هذه الكلمة النبوية العظيمة هى الأساس الإسلامى فى الموازنة بين قِيَم العلوم، و تفاوت درجاتها حسب كون بعضها ضرورياً و البعض الآخر كمالياً، و تُقدَّر منزلة العلوم و درجاتها بالنظر إلى مبلغ تأثيرها فى حصول الغاية المنشودة منها فى الإسلام.

و روى فى « الروضة» من الكافى عن عبدالرحمن‌بن‌سيابة قال: " قلت لأبى‌عبدالله عليه السلام: " جعلت لک الفداء، إن الناس يقولون إن النجوم لايحلّ النظر فيها، و هى تعجبنى، فإن كانت تضرّ بدينى فلا حاجة لى فى شىء يضرّ بدينى، و إن كانت لاتضر بدينى فوالله إنى لأشتهيها و أشتهى النظر فيها". فقال عليه السلام: « ليس كما يقولون، لاتضرّ بدينک»، ثم قال عليه السلام: « إنكم تنظرون فى شىء منها، كثيرُه لايدرک و قليلُه لاينتفع به، تحسبون على طالع القمر...»".

مناهج التعليم و أساليبه

إن الميل إلى تعلّم العلم، طبعىّ، و منشأه غريزة حب الإطلاع الفطرية، فكان من اللازم أن‌يفرضه الإسلام على جميع المسلمين لأنّه دين الفطرة و الطبيعة و الروح و العقل.

و لمّا كان القرآن عند المسلمين كافّة منبع الدين و أساس العلوم الإسلامية بعد تمييز محكماته عن متشابهاته بالسنة الصحيحة، جعلوه أصلاً فى التعليم و أساساً فى التربية عند العرب و المسلمين و إتّفقوا على ذلک و إن إختلفوا فى بعض مناهج التعليم و موادّه فى مكاتب الصبيان و المدارس الإبتدائية على حسب اختلاف أمصارهم و أقطارهم.

فأهل المغرب يقتصرون فى تعليم أولادهم على مدارسة القرآن و أخذهم برسمه و قراءاته المختلفة، و لايخلطون ذلک بسواه مِن حديث أو فقه أو شعر أو أخبار إلى ان يحذقه الوليد و يجاوز حدّ البلوغ إلى الشبيبة و كذلک يسيرون على هذا المنهاج مع الكبير الذى يراجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، و مِن هنا كان أهل المغرب أقوَم على رسم القرآن و حفظه مِن سواهم.

و أهل الأندلس يعلمون القرآن و لكنّهم لايقتصرون عليه فى تعليم الولدان، بل يخلطون به رواية الأخبار و رواية الشعر و الترسّل و قوانين العربية و الكتابة و تجويد الخط و كذلک

الحساب و تقويم البلدان، و لم‌تكن عنايتهم بالقرآن بأكثر من عنايتهم بغيره، على أنه من المقطوع أن عنايتهم بالخط تفوق عنايتَهم بكل شيء سواه، و كان الغلام عندهم لايجاوز البلوغ إلى الشبيبة إلا و قد شدّ بعض الشيء فى العربية و الشعر و البصر بهما، و برّز فى الخط و الكتابة و تعلق بأذيال العلم على الجملة.

أما أهل المشرق (العراق و ما جاورها من البلاد الإسلامية)، فكانوا يخلطون فى التعليم كأهل الأندلس، إلا أنهم يختلفون عنهم من جهتين، أوليهما، أن عنايتهم بمدارسة القرآن كانت تفوق عنايتهم بالعلوم الأخرى؛ و ثانيتهما أن الخط لم‌يكن من الفنون التى يخلط تعليمها بتعليم القرآن، و انما كانت له معاهد و معلمون على انفراد كسائر الصناعات، و لذلک لم‌تبلغ خطوط الوِلدان فى المكاتب حدّ الإجادة، و مَن أراد أن‌يجود خطُّه ابتغى ذلک عند أهل صنعته.

و نحن قد نوّهنا فى المطلب الأول بأن مناهج الإسلام و أساليبه فى التعليم و التربية و الأخلاق، و أنظمته فى الإقتصاد و الإجتماع و الحقوق و السياسة و نحوها متناسقة و متآلفة لدرجة الإعجاز، فإن الإسلام لايفصل فى تشريعاته بين الجسم و الروح و العقل، بل يأخذها مترابطة فى واقع الحياة و فى المطالب و الحاجات، و يرسم لها دستوراً على هذا المتحد و يجارى الفطرة فى تركيبها المجموعى و يعالج فى تشريعاته حاجات النفوس و حاجات العقول و حاجات الأبدان فى وقت واحد و بعمل واحد، ثم أوضحناه فى المطلب الثالث.

و على هذا الأساس شُرّع منهاج التعليم و التربية فى الكتاب و السنة، لإعداد المرء لعمَلَى الآخرة و الدنيا التى هى فى نظر الإسلام مزرعة الآخرة و الغرض و المقصد منه تهذيب النفوس و تحصيل مكارم الفضيلة.

و يدل عليه أنّ النبى ﷺ أُرسل لهداية الناس و تعليمهم و تأديبهم بأدب القرآن فكان ﷺ أوّل معلم فى الإسلام و قد أثر عنه بالتواتر أنه قال: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

فعلى المعلم ان‌يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه و استعداده اقتداءً فى ذلک بسيد البشر ﷺ فإنّه قال: « نحن معاشر الأنبياء أمرنا ان ننزّل الناس منازلهم و نكلم الناس على قدر عقولهم»، و هذا هو الذى تنسب اليه العلوم لكى يؤثِر القريب على البعيد و المهم على غيره، و معنى المهم ما يهمک و ما يهمّ مجتمعک، و لايهمک إلا شأنک فى الدنيا و الآخرة و شأن مجتمعک؛ فالترتيب

فی دراسة العلوم ضروری.

و توضیحه أن النفس الناطقة الإنسانیة بعد وجودها و فی مرحلة بدء الفطرة المعبر عنها فی مصطلح الفلسفة بمرتبة العقل بالملکة، مستعدة لجمیع الکمالات التی یمکن حصولها لها، و فیها قوة تحصیلها بمحرک خارجی یحرکها نحوَ کمالها المطلوب، و هذا المحرک هو المعلم و تلک الحرکة هی التعلیم و التعلم، و ذلک الکمال هو العلم. فالعلم کمال النفس الناطقة المجردة ذاتاً و صفة إبداعیة لها، و النفس مفطورة لطلب الکمال مطلقاً أی أنواع العلوم، و الدین الإسلامی حثَّ علی طلب العلم و جعله فریضة علی کل مسلم، و جعل من اللازم رعایة الترتیب فی تعلُّم العلوم لأن العلم بمثابة الغذاء للروح و النفس الناطقة، فکما أن أغذیة الجسد تختلف بالمناسبات فالصالح مِن الأغذیة للشاب لایصلح للطفل، و الصالح للصحیح لایصلح للمریض، و الصالح للمزاج القوی لایصلح للمزاج الضعیف. فکذلک العلوم یجب تعلیمها و تعلّمها حسب إستعداد المتعلم بروحه و نفسه و محیطه و بیئته، و رعایة الأصلح منها فالأصلح و تقدیم الأهم منها فالأهم، و بعبارة أخری: الجهل مرض نفسی و نقص خُلقی، فلا بد فی علاجه بالتعلیم و التعلم من رعایة إستعداد نفس المتعلم و منزلتها فی القوة و الضعف، فلیس علاج الطفل مثل علاج البالغ، و لیس علاج الشاب مثل علاج الشیخ، و لایجوز أنیصدر المعالج الحکیم أحکاماً خُلقیة أو تعلیمیة متساویة علی المختلِفین فی غرائز النفوس و إستعدادها، و هذا سرّ تقسیم دراسة العلوم إلی إبتدائیة و متوسطة و عالیة، و هو السبب لرعایة الأقدمین الترتیب الطبعی فی موضوعات العلوم، لکییتکوَّن للمتعلم فی العلم المقدم السابق فی المرتبة إستعداد تحصیل العلم اللاحق، علی وجه یترتب علیه الأثر المطلوب منه، و لأجل ذلک إلتزم الحکماء و الفلاسفة بتقدیم تهذیب الأخلاق و تقویم الفکر بتعلّم بعض العلوم من ریاضیة و غیرها علی الشروع فی دراسة علم المنطق، و قدّموا دراسة المنطق علی دراسة الفلسفة، و قدموا الفلسفة الطبیعیة علی العلم الإلهی. و من إهمال هذا الترتیب تورَّط الریاضی المعاصر الشهیر، « أنیشتاین» فی الحیرة و تجاهل الأصول الموضوعة فی العلوم.

فظهر من هذا البیان أن منهاج التعلیم الإسلامی فی ترتیب العلوم، و الموازنة بین قیمها و أقدارها، یتخذ غایة التربیة الإسلامیة أساساً للموازنة، و غایة هذه التربیة إعداد الإنسان لِعملَی الدنیا و الآخرة معاً علی أصول التوازن فی جوانب أرکان الفطرة، فیحثّ هذا المنهاج علی دراسة

جميع العلوم حتّی العلم الطبيعی بأوسع معانيه، لأنه أجدی فی معرفة آثار صنع الله – عز و جل–، و بهذا الاسلوب الربانی تكون فائدة الموضوعات التی ترمی دراستها إلی تحصيل المعارف النافعة فی الحياة فی مستوی فائدة الموضوعات التی يُقصد من دراستها تمرينُ القُوی العقلية فيتأيد بعلوم الطبيعة أيضاً تمرين القوی العقلية علی إختلاف أنواعها، و يصل بها الإنسان إلی مطلوبه مِن تهذيب و رفعة و إرتقاء. فإن هذا المنهاج يتخذ من العناية بمعرفة ظواهر الطبيعة و آثارها، و مواد العلوم و المعارف المأخوذة عن الطبيعة وسيلة لِمعرفة آثار صنع الصانع الحكيم – تعالی شأنه–، و تكون العلوم الطبيعة التی يجری تعليمها طبق المنهاج الإسلامی، قوة إسلامية و أسلحة عصرية ترهِّب أعداء الله و أعداء الإسلام و الإنسانية، قال الله تعالی: « و أعِدُّوا لَهُم ما استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ» (الانفال/۶۰) و لعدم رعاية هذا المنهاج القويم فی التعليم، جعلت هذه العلوم الطبيعية، مدارک التلامذة مهابط الوساوس و مخازن الدسائس، و قديستحيلون إلی زنادقة ملحدين يخربون بيوتهم بأيديهم و هم لايشعرون، و تكون علومهم ناراً محرقة تحرق عواطفهم و عقائدهم و مكارمهم، فيَخسرون الدنيا و الآخرة، و ذلک هو الخسران المبين، و يتسابقون إلی الشر مسيّرين لا مخيّرين و هم يظنون أنهم مخيَّرون لا مسيرون، لقد عميت عليهم المسالک و هم لايفقهون، و يساعدهم سير هذا القرن الذی إمتاز بخوارق الإختراعات و تقديس المادة و إكتشاف بعض أسرارها تلک الخوارق التی فتقت أذهان الناس و خلقت عالَماً متكوّناً من الفوضی فی الأخلاق و الأفكار و العقائد، و وجهت أفكار مختلف طبقات الناس إلی التفكير الحرّ و عدم الإذعان بشیء مما لايقبله العقل و لايساعد عليه الحسّ، فَقويت فيها نزعات الشک و إندكّت أسس العقائد، و بذلک تبدّل أسلوب التفاهم، و كاد انينقطع حبل الصلة بين رجال الدين و سائر طبقات الناس، و ان النقص فی أسلوب تأليف الكتب الدينية و منهاج التعليم الدينی اوجب إختفاء أسرار التشريع و فلسفة الدين، فقصرت عقول الناس عن نيل حقيقتها الواضحة الغامضة، و أوجد ذلک حيرة عميقة فی النفوس، فانفسح المجال لأعداء الدين لقلب الحقائق الإسلامية و التلفيق فيها و إفراغها فی غير صورها و تلوينها بغير الوانها حتّی تشابهت بالأديان الأخری التی لايستفاد منها إلا فی المعابد، فاتخذها جمع من بُسَطاء المسلمين معتقدين بأنها التعاليم الإسلامية، و مجموع ذلک بعث ألسن الناس بتنقيص الدين و القول بأنه يعطّل التفكير و الإبداع و يدعوا إلی الجمود و الإنحطاط و يصطدم بأسباب الرقی و التقدم، و يخالف الحياة فی جميع

نواحيها، فتَكوّنت عند المسلمين قضايا معقّدة تجب المسارعة إلى حلّها، اذ بِحلِّها و تحليلها تشعّ تعاليم الاسلام و يثبت نظام الأمم الإسلامية و ارتباط بعضها ببعض، و يحصل التفاهم المنشود، و لايستطيع أنيحلّها إلا مَن كان من الراسخين فی العلم الذين لهم المعرفة الشاملة الكاملة القائمة على مقرّرات العقل السليم الفطرى، و البحث العلمى و التفكير الحرّ، و الإحاطة بسرّ عظمة الاسلام و أسرار كتابه المعجز الخالد و سنة رسوله الخاتم ﷺ و معرفة نفسيات البشر و مقوّمات الأمم فيصوغ تعاليم الاسلام و فلسفته فی أسلوب جذاب مؤثر لايَنتابه جمود و لا غموض، مراعياً فی تسجيلها ما أَلِفته طباع أهل العصر، و جمهور المتعلمين من المسالک الحديثة، لكىتكونَ منيرة أخاذة بالألباب، راسخة فی النفوس، مسيطرة على المشاعر.

فسيرنا فی التعليم على النهج القديم الذى كثرت فيه العقبات، و تشعبت فيه المشكلات و تنوعت فيه التعقيدات، لايُعدّ سيراً مُوصِلاً للأهداف السامية، و لا سفراً مؤدياً إلى الغايات الرفيعة، و هذا الإصلاح لايستوحى من الخيال و لايفرض من قوة خارجة عمّا هو الموجود، إنما هو يجب انيكون وليد الحقيقة و صنيع المؤثرات الاجتماعية و الفكرية و مقتضيات الأحوال مطابقاً لِما ورد فی كتاب الله و سنة رسوله ﷺ فإن تعاليم الاسلام ثابتة إلى الأبد و لايجوز إحداث تعديل فيها، « حلال محمّد ﷺ حلال إلى يوم القيامة و حرامه حرام الى يوم القيامة» فيجب أن تؤخذ كما هى عليه.

المطلب الثامن

الأخلاق الإسلامية

الاخلاق فى الإسلام مكارم سامية و مُثل عليا ممتازة عن الأخلاق المقررة فى سائر الأديان و العلوم و الامم بأنها منبثقة من نفحات النفس النبوية القدسية ﷺ المخاطبة بقوله تعالى: « و إِنَّکَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم/ ۴) و مرتكزة على التربية الإسلامية و أصولها و آدابها و آثارها الممتزجة بمزاج المسلم و مبتنية على أساليب التعليم الإسلامى فى توجيه غريزة الأخلاق التى هى فطرية للإنسان نحوَ تلطيف السر بأنواع العبادات و الرياضات الروحية، لِمحاولة أنتكون الأخلاق الفاضلة مزاجاً و طبيعة للمسلم و خاصية للمزاج و الطبع. فتصدر منه الفضيلة على نحو صدور الأفعال الطبيعية من الطبيعة من دون حاجة إلى قصد الفضيلة و الشعور بها، فالأخلاق العالية فى الإسلام ليست على شكل يكون الإنسان معها فاضلا فحسب – كما هو الحال فى سائر الأديان و الامم– بل على شكل لايمكن أنيكون إلا كذلک. فالاخلاق التى هى أعمال الفضيلة عند الامم و الأديان السابقة لاتكون كافية فى الإسلام إذا كان يصحبها القصد الأخلاقى، فإنها بذلک تكون متكلفة سرعان ما تحور إذا وجدت الدوافع عنها و الجواذب إلى منافياتها، فالمسلم الحقيقى يصدق فى قوله لا لأنّ الصدق فضيلة فحسب، بل لأنه كذلک ينبغى أنيكون، لأنه ما أدرک هذا الصدق إلا فى نطاق الطبع الخالص الذى يجرى بنفسه من نفسه، و المسلمة عفيفة لأنها كذلک ينبغى أنتكون بطبعها المتأصل فى بنيانها الأخلاقى، فكأنّ العفة فى دمها و

روحها، فصدَقَ المسلم و ما تكلف صدقاً و وَفى و ما تكلف وفاءاً، و هكذا يتمشى القول فى سائر المكارم و الفضائل. فالعدالة مثلا للمسلم طبع متأصل فى بنائه الأخلاقى كأنها مادة ركب منها بنيانه الجسمانى فى جملة ما ركب منه، فكأنها فى دمه و روحه. المسلم لايقول بحسن العدل و الصدق مثلا فيعمل، بل يعمل ثم يقول، و القول يجرى من طبيعة العمل الذى يعمل بالطبع و الشعور الذى يحس، و الحياة التى يحيى، و بهذا نجح المسلمون الاولون فى نشر الإسلام بسرعة فائقة خاطفة فى مختلف الأمم و البلاد التى فَتَحوها فى صدر الإسلام.

فالمسلم الحقيقى فاضل و ذو أخلاق حسنة عصباً و دماً قبل أنيكون كذلک الميل و الشعور. فالأخلاق فى المسلم ليست كيفية نفسانية راسخة و ملكة فحسب، بل طبيعة و مزاج تَكوَّنت بالتربية الإسلامية المشفوعة بعنايات شارع الإسلام المخصوصة بإعداده المعدّات التكوينية لإستعداد قبولها، و ترسخت فى كيانه بأساليب التعاليم الإلهية و الطقوس المقررة من خالق النفس الأمارة بالسوء و موجد الطبع البشرى. فتركيب المسلم الصحيح استوى على مُثلٍ عليا من مكارم الأخلاق، فهو لايجاوزها إلا اذا لميكمل تركيبه الإسلامى، أو نقص منه شىء أفسد على طبيعته آثارها و خواصها، و أفسد خُلقه و دينه لِقوله ﷺ « الخُلق وعاءُ الدين»، و حينئذ يقتصر بالدرجة الثانية أو الثالثة من الاخلاق الإسلامية التى سنذكرها و بهذه الأخلاق الإسلامية السامية إنتشر الإسلام بسرعة خارقة انتشاراً هائلا لميشهد التاريخ مثله، و عليها ارتكز التبليغ العملى فى صدر الإسلام و بها إمتدّ تأثير التعاليم الإسلامية إلى الاصول الموروثة و المبادئ الممتزجة بالأرواح، و العقائد الراسخة فى نفوس الامم، و السارية فيها مَسرى الحياة الطبيعية فقلبتها رأساً على عقب، و هذه الأخلاق هى المقصودة من قوله ﷺ « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » يعنى ان الأخلاق كانت فى الأديان الإلهية السابقة و لكن الإسلام أتمّها لِتدوم صورة كمالها فى العالم إلى الأبد، و هى المرادة بقوله تعالى فى سورة هود عليه السلام: « فَاستَقِم كَمَا أُمِرتَ و مَن تابَ مَعَکَ و لاتَطغوا» (هود/١١٢)، و قال ابن عباس: « ما نزلت على رسول الله ﷺ آية كانت أشدّ و لا أشقّ من هذه الآية». و لذلک قال ﷺ لأصحابه حين قالوا له: " أسرَعَ اليک الشيب يا رسول الله!"، قال ﷺ: « شيّبتنى هود و الواقعة»، و لعلّ السرّ فى ذلک هو الإستقامة المطلوبة فيها من المسلمين أريد بها أعلى درجات العدالة الحقيقية التى هى الطبيعة الدافعة نحو الخير و الفضيلة، و درجة الإعتدال الواقعى فى القوى الشهوية و الغضبية و العقلية، و هى متآخمة لمستوى العصمة، و

لَعَمرى ان هذه الدرجة لاتُنال إلا بِشِقّ الأنفس، فإذا كانت هذه الاخلاق اللازمة للمسلمين كافة فكيف تكون أعلى مُثلها العليا المخصوصة بالائمة الطاهرين ﷺ المنتقلة أنوار ذواتهم القدسية من أصلاب طاهرة إلى أرحام مطهرة؟! نعم هى العصمة ذاتهـا العاصمة عن صدور كل خطأ أو خطيئة عنهم ﷺ. فمن الغريب استغراب بعض الغَفَلة أو اعتراضهم على الإعتقاد بعصمتهم و ذلک لِأن عقيدة الشيعة الإمامية ان الامامة منصب إلهى فلا بدّ لهم من القول بعصمة الائمة المنصوبين من الله تعالى، فإن المنصوب من الله لايجوز ان يُخلّ بواجب أو يفعل قبيحاً، و إلا لمَيَجُز نصبه من الله. فيجب أنتكون له ملكة تردعُ عن إرتكاب الخطأ و الخطيئة و هذا هو المراد بالعصمة. و لايَعرفُ الشخص المتصف بالعصمة الا المطّلع على السرائر، و منه يظهر أنّ نصب الإمام ليس من أفعال غيرِ الله تعالى.

واقعية لا مثالية:

ليس ما ذكرناه فى الاخلاق الإسلامية نظرية مثالية غير قابلة للتطبيق، بل هى واقعية و عملية و مسجّلة فى التأريخ، و تجلى هذا النوع الممتاز من الاخلاق فى مجاهدِى المسلمين حيث دارت شربة الماء بين جماعة من الجَرحى فى حومة الوغى كل واحد يُؤثِر بها أخاه الصريع إلى جنبه، حتّى قضوا كلهم على الظماء. ففى « مجمع البيان» فى تفسير قوله تعالى: « و يُؤثِرُونَ عَلى أنفُسِهِم و لَو كانَ بِهِم خَصَاصَةٌ» (الحشر/٩)، أنها نزلت فى سبعة عطشوا فى يوم أحد، فجىء بماء يكفى لأحدهم فقال واحد منهم « ناوِل فلاناً» حتّى طِيفَ على سَبعتهم و ماتوا و لمِيشرب أحد منهم، فأثنى الله – سبحانه– عليهم.

و عن ابن عباس، قال: " قال رسول الله ﷺ يوم بنى النضير للأنصار: « لو شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم و دياركم و تشاركونهم فى هذه الغنيمة، و إن شئتم كانت لكم دياركم و أموالكم و لمِيُقسم لكم شىء من الغنيمة»، فقال الانصار: " بل نقسم لهم من أموالنا و نؤثرهم بالغنيمة و لا نشاركهم فيها"، فنزلت : « و يُؤثِرونَ عَلى أنفُسِهِم ...».

و قيل نُزلت فى رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: " أطعمنى فإنى جائع". فبعث ﷺ إلى أهله فلمِيكن عندهم شىء. فقال ﷺ: « مَن يُضيفه فى هذه الليلة؟»، فأضافه رجل من الانصار فأتى به منزله و لمِيكن عنده إلا قُوت صبيّة له، فأتوا بذلک اليه و أطفأوا السراج و قامت المرأة إلى

الصبية. فعللتهم حتّى ناموا و جَعلا يمضغان ألسنتَهما لِضيف رسول الله ﷺ فظن الضيف أنهما يأكلان حتّى شبع الضيف و باتا طاوِيَين[١]، فلمّا أصبحا غدوا إلى رسول الله ﷺ فنظر اليهما فتبسّم و تَلَى هذه الآية، و أما الذى رويناه بإسناد صحيح عن ابى‌هريرة، أن الذى أضافه و نوَّم الصبية و أطفأ السراج على عليه السلام و فاطمة عليها السلام». انتهت عبارة مجمع البيان.

و روى فى الصحيح « إستولى المجاهدون من المسلمين على خزائن كسرى و كان مما غنموه تاجه و أساوره و مناطقه و طوسه و كؤوسه و ما إلى ذلک من خصائصه و صفاياه و كلها من الذهب غارقة بما تعرق من الأحجار الثمينة و اليواقيت التى يخطف الأبصار لَمَعانُها و تستوعب خزائن الدنيا أثمانها، فحملوها من المدائن إلى المدينة دون أن يُغَلّ أو يرزه منه شىء حتّى وضعوه بين يدى الخليفة. فأدهشته أمانتُهم أكثر مما أدهشته غنيمتهم، فقال: " ان أمّة تؤمن على مثل هذا لِتؤدّيه، لَحَريّة بأن تَسود الامم".

و دخلت أم عقبة على بعض أمراء المسلمين و معها ولدها، فطلبت أن يصرفه فى بعض أعماله فجعله فى وظيفة الإستخبار، فعادت اليه بعد أيام و قالت له: " أيها الأمير، الجوع الكريم خير من الشبع اللئيم."، فقال لها: " و ما ذاک؟"، قالت: " إن عاملک وَكَّله بالنميمة، يحصيها على المسترسل و يهتک المتستر و قد تحاماه الناس و تناذروه، فإذا لم‌يكن غير هذا تركته و لم‌أتعرّض لِما فيه مقت الله و مقت الناس".

هذه غرائز جمهرة المسلمين و مكارم أخلاقها و ظواهر طباعها، و الأعم الاغلب من خلائقها و ما كان على خلافه فهو من النادر و النادر لا حكم له.

أنواع الاخلاق الاسلامية

يلزم التنبيه على أن الإسلام لكونه دينا عاما خالداً قرّر النطاق الواسع فى تعاليمه و اكتفى بالمقدور لكى تسع العالم الإنسانى أجمع، قال الله تعالى: « لايُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلا وُسعَها» (البقرة/٢٨٦)، فللعبادة مثلا أنواع ثلاثة، قال أميرالمؤمنين عليه السلام: « ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلک عبادة التجار، و ان قوما عبدوا الله رهبة فتلک عبادة العبيد و إن قوما عبدوا الله شكراً فتلک عبادة الأحرار»، و كل هذه الانواع صحيحة و مجزية فى مقام الإمتثال و لكن الفرق فى درجات

١. طـوَى، يطوِى، طَيّاً أى تعمّد الجوع و قصده، طاوِى البطن أى ضامرُه. م

الآخرة.

و كذلک الحال فی الأخلاق، فإنها علی ثلاثة أنواع:

– الأول، ما مر بیانه و هو المثل الأعلی للأخلاق و الفضائل، و المتصف به خیر بالطبع و فاضل بالغریزة و سعید من مبدء حیاته، و متجنب عن الرذیلة إلی نهایة الحیاة، و رأس الفضیلة فی هذا النوع الأعلی محبة الله تعالی و سنشیر إلی فضائل المحبة و أنها أفضل من العدالة التی هی رأس الفضائل فی النوعین الأخیرین، و العدالة عبارة عن مجموع العفة و الشجاعة و الحکمة، فان الحاجة إلی العدالة فی المحافظة علی النوع إنما تنشأ من فقدان المحبة، و یستغنی عنها بحصول المحبة بین جماعة، إذ لایُحتاج مع المحبة إلی الإنتصاف بین الأحبة و المتصفون بهذا النوع من الأخلاق هم أهل البصیرة السامیة الذین یتطلبون الکمال من ناحیته الثابتة المستقرة و عن وسائله الشریفة المستبینة، و لاشک فی أن کمال الإنسان الثابت و جلاله النفسی الخالد هو ما إنبعث عن الذات فی حدود الذات، و أما ما یحکیه المظهر فإنه کمال زائف، و أما الفضیلة الثابتة و جمال النفس و صوت الضمیر، فتلک هی الحقائق الکاشفة للکمال المترجمة عن جلال الجمال، و وسیلة الکمال الحقیقی الثابت منحصرة فی هذا النوع من مکارم الأخلاق و المتصف بهذا النوع من الفضائل هو صاحب الخلق الکامل.

– النوع الثانی أنلاتکون هذه الفضائل بالطبع و لا فی مبدء الحیاة بل یطلبها بالسعی و الجهد و الرغبة و الإختیار، و یحصلها بالمواظبة علی موجبات الفضیلة و التجنب عن أسباب الرذیلة المبینة فی علم الاخلاق الذی هو قسم من الحکمة العملیة الإسلامیة. فالعفیف مثلا فی هذا النوع من الاخلاق یبعثه إلی إیثار فضیلة العفة فی أفعاله علمه بأنّ العفة زینة القوة الشهویة التی یمتنع بقاء الشخص و بقاء نوع الإنسان بدون هذه القوة، و أنه یجب انتتجلی الشهویة بزینة العفة فی أعمالها لغرض الکمال فقط من دون شائبة غرض آخر مِن جَرّ نفع أو دفع ضرر، و یکتفی بقدر الحاجة من تناول کل صنف من المشتهیات المحللة علی وجه تقتضیه المصلحة؛ و السخی هو ذو العاطفة الکریمة إن زاده الله بسطة فی المال، عرف لله تعالی فضله و شکر له برَّه، و بذل من فضل ماله للبُؤَساء و المعوزین فی إغاثة ملهوف و إعانة مکروب، فیجمع إلی محبة الله تعالی ثناء الناس علیه و هو بعد الظافر الفائز لنتنقص الصدقة من ماله، قال الله تعالی: « و مَا أنفَقتُم مِن شَیءٍ فَهُوَ یُخلِفُهُ و هُوَ خَیرُ الرازِقینَ» (سبأ/٣٩)، و الأعلی منهم درجة « الَّذِینَ یُؤتِرونَ عَلی

أنفُسِهِم» (الحشر/٩)، و هم الأسخياء فى النّوع الاول.

– النوع الثالث، لِمن لا بد من إكراهه بتأديب شرعى أو تعليم جبرى على الفضائل و إجتناب الرذائل، و لايخلوا غرضه من الشوائب.

و هذان النوعان مبيَّنان فى الكتب الاخلاقية و الفلسفية الإسلامية و فى الكتب الفقهية من الطهارة إلى الديات على كيفية يظهر جلياً للمتأمل فيها مقصد النبى ﷺ فى قوله : « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق». فقد صرّح بعض الفقهاء فى كتاب الطهارة بأن الطهارة على قسمين، طهارة الباطن و طهارة الظاهر؛ و طهارة الباطن إما مِن جريمة الجوارح، أو ذميمة القلب أو شغل السرّ بما سوى الله تعالى، و طهارة الظاهر إما من الخبث أو التفث أو الحدث، ثم إن كانت لواجب، ففرض و إلا فنَفل. و ورد « الطهور نصف الإيمان» و النصف الآخر هو القيام بالطاعة ظاهرا و باطنا و الباطن هو الأصل و الأهم، و السلَف كانوا يبالغون فيه فيتسائلون عن دقائق عيوبه، و لكن لطهارة الظاهر أثراً فى تنوير الباطن لإرتباط المُلک بالملكوت، و موجبات طهارة الباطن ثلاثة أمور:

– الأول، جرائم الجوارح، و هى كل ما يخالف حكم الله تعالى من فعل أو ترک، و ينقسم إلى حقه تعالى و إلى حق العبد، و حق العبد أغلظ لانه لايترک، و إلى كبيرة و صغيرة. و يكفّر الصغيرة باجتناب الكبيرة، و الكبيرة ما أوجب الله عليه النار، و الإصرارُ على الصغاير من الذنوب، كبيرةٌ، و الإصرار هو أنلايستغفر و لايُحدّث نفسه بتوبة و مثله إستحقار الذنب.

و الطهارة عن الجريمة اما بالتوبة وحدها، أو مع التدارک أو الحدّ أو التعزير أو كليهما أو الجميع، و ذلک بحسب أصناف الجرائم. و التوبة تبرئة القلب عن الذنب و الرجوع من البعد إلى القرب، و هى مقبولة مع تحقق شروطها بلا شک، و هى أنتكون لله – سبحانه– لا لمالٍ أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم أسباب، و أنيتندّم و أنيعزم على عدم العود، أما الندم فغير مقدور، و هو التوبة حقيقة، و حقها ان يعترف، فَوَرد « الإعتراف بالذنب كفارة». و يتدارک الفرائض، و يردّ المظالم، و يذيب اللحم النابت من الحرام بالحزن، و يذيق النفس مرارة الطاعة كما أذاقها حلاوة المعصية، و يغسل ثيابه و يغتسل، و يصلى ما أراد فى موضع خال، و يضع وجهه على الأرض و التراب، بدمع جار و قلب حزين و صوت عال، و يذكر ذنوبه واحداً واحداً، و يلوم نفسه و يوبّخها و يرفع يديه حامداً مصلياً داعياً مستغفراً، و تصح التوبة عن بعض الذنوب مع الرجحان كَكونِه

أفحش، أو العقاب عليه أصعب و التدارک أشقّ، و تفيد نقصان العقوبة لا النجاة، لأنها بِتَرک الكُلّ.

و التدارک فی حقه تعالی القضاء و الكفارة و فی حق العبد رد المال إلی المالک أو وارثه مبالغاً فی التبليغ إن أمكن و الا فالعزم عليه، أو التصدق عن المالک مع اليأس؛ و عَرض الإقتصاص فی جناية النفس و الطرف أو الدية أو الإستعفاء فی الجميع و الإرشاد فی الإضلال و عند العجز فتكثير الحسنات بحسب المظالم، و فی مثل الغيبة و السبّ و الإيذاء، فالإستعفاء مع البلوغ اليه و الإستغفار مع عدمه، أو الذكر المفصل مع الإعتذار إلا أنيزداد التأذی بالإظهار، فالذكر المبهم تحامياً عن ذنب آخر. و ينبغی المبالغة فی الإستعفاء بالتلطف و التودد و الإحسان فإن لميعفُ، يجبرها بحسنة فی مقابلته، و كذلک يفعل لو كان ميتاً أو غائباً مع الإستغفار له.

و أما الحدود و التعزيرات و مطهرّات الجنايات، و هی القصاص و الديات فلتُطلب تفاصيلها من كتب الفقه.

– الأمر الثانی، ذمائم القلب، و هی الأخلاق السيئة المائلة عن الوسط العدل الذی هو الصراط المستقيم فی الدنيا إما إلی الإفراط كالشره فی القوة الشهوية، و التهور فی القوة العضبية، و الجربزة فی القوة العقلية، أو إلی التفريط، كالخمود فی الشهوية، و الجبن فی الغضبية، و البله فی العقلية.

و تنقسم علی « أمهات مهلكات» كحب الدنيا و الشُحّ المُطاع و الهوی المتَّبع، و الإعجاب بالنفس، و منشعبات منها كالغضب و الحقد و الحسد و الكبر و الغرور و الرياء و النفاق و البخل و السرف و الحرص و الإصرار و الكفران و الأمن و اليأس و الجحود و القسوة و الجهل و الحمق و الخرق و العجلة و الجزع و المكر و الحمية و غير ذلک.

و التطهير عن كل منها بتحصيل ضده المحمود، كالعفة و هی حد الإعتدال و الوسط فی القوة الشهوية، و الشجاعة و هی حد الوسط الإعتدال فی القوة الغضبية، و الحكمة و هی الحدّ الأوسط فی القوة العاقلة، و مجموع العفة و الشجاعة و الحكمة تسمّی بـ« العدالة»؛ و كالزهد و الكرم و البصيرة الرافعة للأمهات، و كالرضا و العفو و التسليم و التواضع و الانتباه و الإخلاص و السخاء و التوكل و التوبة و الشكر و الخوف و الرجاء و التصديق و الرأفة و العلم و الفهم و الرفق و التُؤدَة و الصبر و سلامة الصدر و الإنصاف و الحياء التی بإزاء تلک الفروع و ذلک بأن يتذكر آفات تلک الرذائل، و ما ورد فی ذمها و مدح أضدادها المحمودة، و يكلف النفس علی الطرف

المحمود بالأعمال و الافعال المستجلبة له بالإعتياد حتّى تقف على الإعتدال، فكما ان الرذائل يجرُّ بعضها بعضاً فكذلک الفضائل.

و ينبغى التنبيه على أن مداخل الشيطان التى يأتى من قِبلها، ثلاثةٌ، الشهوة و الغضب و الهوى. فالشهوة بهيمية آفة، لكن الغضب أعظم منها، و الغضب سبعية آفة، لكن الهوى أعظم منه، و الهوى شيطانية.

فقوله تعالى: « انَّ اللهَ... يَنهَى عَنِ الفَحشاءِ و المُنكَرِ و البَغيِ»[١]، « الفحشاء» آثار الشهوة و فاعلها ظالم لنفسه، و « المنكر» آثار الغضب و صاحبه ظالم لغيره، و « البغى» آثار الهوى و يتعدى ظلمه إلى حضرة جلال الله.

ثم لها نتائج، فالحرص و البخل، نتيجة الشهوة، و العُجب و الكبر، نتيجة الغضب، و البدعة، نتيجة الهوى، فإذا إجتمعت هذه الستة فى بنى آدم، تولد منها سابع و هو الحسد، و هو نهاية الأخلاق الذميمة، كما ان الشيطان هو النهاية فى الأشخاص المذمومة، و لهذا السبب ختم الله تعالى مجامع الشرور الإنسانية بالحسد.

– الأمر الثالث، تطهير السر عما سوى الله تعالى، و هو إنما يحصل بمحبة الله عز و جل و معرفته. فورد عن المعصومين عليهم السلام: « حب الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل و كلّ ذكر سوى الله».

و هذه المحبة أعظم المقامات و أهمّ المهمات و ألذ اللذات، « لايؤمن أحدُكم حتّى يكون الله و رسوله أحب إليه مما سواهما».

و المحبة بمعناها العام، ميل النفس إلى الموافق. فالأدنى، المطعم، ثم المنكح، ثم الجاه، ثم العلم. و يعرف بترک الأدنى و إستحقاره عند وجدان الأعلى، و إستكراه البعض العلمَ، للنقص كاستكراه المريض المطعم، و الصبىِّ المنكح. و العلم بالله تعالى أشرف العلم اذ شرفه بشرف المعلوم.

و سبب المحبة، الكمال، فهو محبوب طبعاً، و مِن ثَمّة حب العالِم و الصالح و الجمال، و الكلام البليغ و الإحسان و لا كمالَ إلا لله تعالى، و لا إحسان إلا منه. و الأعلى ان يحب الله لذاته، و هو من المواهب، ثم للكمال، ثم للإحسان. و آثارها الشوق و الأنس و الإنبساط و القرب و الإتصال.

١. كان فى المتن كذا: « ان الصلوة تنهى عن الفحشاء و المنكر و البغى»، و هى فى الواقع ركّبت من آيتين هما ٩٠/ النحل و ٤٥/ العنكبوت. م

و علاماتها، كتمانها و حبّ اللقاء و الإطاعة و التلذذ بالعبادة و المصيبة، و الحرص فی الخلوة و المناجاة و بغض الدنيا إلا للآخرة، و الوحشة من الخلق، و إتحاد الهمّ. و طريقها السلوک و إتّباع الرسول ﷺ « قُل إن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِی يُحبِبكُمُ اللهُ» (آل‌عمران/٣١)، « لايزال العبد يتقرّب إلیّ بالنوافل حتّی أُحِبَّه فإذا أحببتُه كنت له سمعاً و بصراً و قلباً و يداً و رِجلاً»[١]، و هو بلزوم الوضوء، فأنه ينوّر القلب، و الخلوة، و هی تفرّغ عن الشواغل، و السكوت، فهو يلقح العقل علی الإعتدال، و الإفراط شاغل كالتفريط، و نفی الخواطر فإنها شاغلة، و أكل الحلال و الذكر الدائم، و التسليم لله تعالی فی كل حال، فانه الموفق و المعين.

و أما المَحبّة بمعناها العام التی سببُها طلب الشرف و الفضيلة و الكمال، فهی علی نوعين، الأول، طبيعية كمحبة الأم لولدها مثلا، و الثانی، إرادية و أقسامها أربعة:

الأول، ما كان سريع العقد و سريع الانحلال،

و الثانی، ما كان بطیء العقد و سريع الإنحلال،

و الثالث ما كان سريع العقد و بطیء الإنحلال،

و الرابع ما كان بطیء العقد و بطیء الإنحلال.

و ذلک لأن مقاصد أصناف الناس منشعبة إلی أربعة، الأول، اللذة؛ الثانی، النفع؛ الثالث، الخير؛ الرابع، المركّب من مجموع هذه.

و الأول سبب المحبة التی تنعقد سريعا و تنحل سريعاً، و الثانی سبب للمحبة التی تنعقد بطيئاً و تنحل سريعاً، و الثالث سبب المحبة التی تنعقد سريعا و تنحل بطيئاً، و الرابع سبب المحبة التی تنعقد بطيئاً و تنحل بطيئا.

العدالة

معنی لفظ العدالة هو الإنصاف، ففی اللغة، عدلَ عدلاً و مَعدلَة: أنصفَ، و دلالتها علی هذا المعنی مبتنية علی معنی المساواة، ففی اللغة، عدلَ فلاناً بفلان: سوّی بينهما؛ مكانٌ سَوِیّ: وسط بين الطرفين. و تعقُّل المساواة بدون إعتبار الوحدة فی المتساويين غير ممكن.

---

١. ارشاد القلوب، ج١، ص٩١: « لايزال عبدی يتقرب الیّ بالنوافل مخلصاً لی حتی احبّه فذا احببته كنت سمعه الذی يسمع به و بصره الذی يبصر به و يده التی يبطش بها ...». م

و للوحدة درجات، أعلاها الوحدة الحقة الحقيقية، المخصوصة بالمبدأ الأول – عز و جل– فهو جلّت قدرته واحد حقيقى. و سريان آثار الوحدة منه تعالى إلى الوحدات الإمكانية يشابه إفاضة أنوار الوجود منه – جلّ شأنه– على الموجودات و ميزان شرف كل موجود إمكانى، قُربه من الوحدة، فكذلک الحال فى المساواة.

فلقد قرر فى « علم التأليف» أن نسبة المساواة أشرف النسب، و برهن فى علم الأخلاق على أن العدالة أكمل الفضائل و ليست فضيلة أكمل منها، لأن العدالة الوسط الحقيقى الكامل و ما سواها طرف أو فى حكم الطرف و إن كان وسطاً نسبياً، كالشجاعة مثلا فإنها وسط بين التهور و الجبن، و إعتدال بين طرفى الإفراط و التفريط فى القوة الغضبية، و لكنها وحدَها ليست وسطاً كاملاً، فإن لم‌تجتمع مع العفة و الحكمة كانت فى حكم الطرف. و كذلک الحال فى العفة، فإنّها وسط بين الشره و الخمول، أى بين الإفراط و التفريط فى القوة الشهرية و لكنها وحدها بدون الحكمه و الشجاعة فى حكم الطرف. و كذلک الحكمة وسط بين الجربزة و البله، أى الافراط و التفريط فى القوة العاقلة، و لكنها بدون العفة و الشجاعة كالطرف، و إذا اجتمعت الثلاثة و هى الحكمة و العفة و الشجاعة، تحققت العدالة من اتحاد مجموعها و صارت وسطاً حقيقياً كاملاً.

فالوحدة كما أنها أساس المساواة، و المساواة أساس العدل؛ كذلک الوحدة، هى المقتضية للشرف فى الموجود و موجبة لثبات الموجودات فى العالم و قوامها و بإعتدال ظلّ الوحدة يرتفع الموجود من حضيض النقصان و الرذيلة إلى ذروة الكمال و فضيلة الثبات، و الإعتدال قوام دائرة الوجود فى العالم، فتولُّد المواليد الثلاث من عناصرها، مشروط بإمتزاجات معتدلة بالكسر و الإنكسار لكى‌تقبل صورة وحدانية و يكون للمركب مزاج واحد مكان الإمتزاج.

ثم إن نسبة المساواة إما متصلة، و هى التى توجد فى المثلين، و المماثلة عبارة عن الإتحاد فى الجوهر أو فى العرض كالكمية مثلا؛ و إما منفصلة، و هى التى فى غير المثلين من أنواع المنتسبات على اختلاف الوجوه، كالنسبة العددية و النسبة الهندسية و النسبة التأليفية و نحوها.

و اما العدالة الإرادية، المعتبرة فى الأمور المقتضية لنظام الحياة و المعيشة التى للإرادة مدخلية فيها فهى على ثلاثة أنواع، النوع الأول، ما يتعلق بقسمة الأموال و الكرامات؛ و النوع الثانى، ما يتعلق بأقسام المعاملات و المعاوضات؛ و النوع الثالث، ما يتعلق بأمور للإعتداء دخل فيها، كالتعزيرات و التأديبات و الحدود و السياسات.

و النوع الأول، شبيه بنسبة المساواة المنفصلة، و أما إختصاص شخص معين بمال مخصوص أو كرامة مخصوصة، فبيانه فى مباحث الاقتصاد و الإجتماع أنسب.

و النوع الثانى على قسمين، القسم الأول شبيه بالمنفصلة كما لو يقال نسبة هذا البزاز لهذا الثوب كنسبة هذا الكرسى لهذا النجار مثلاً، فلا حيف فى المعاملة. و القسم الثانى يشبه المتصلة، مثل نسبة هذا الثوب إلى هذا المبلغ من الدرهم كنسبة هذا الكرسى إلى هذا المبلغ، فلايوجد حيف فى المعاوضة، فلا يوحد حيف فى المعاوضة بين هذا الكرسى و هذا الثوب، و ذلک لأن المبلغ « العملة» مقياس المالية و ميزانها، و المالية كمية معنوية، كما أن الميزان المتعارف فى العيار ميزان الكمية الحسية و المقدارية، فبالمبلغ أى الدرهم و الدينار يتعين التساوى أى العدل فى المعاوضات، و لكن الدينار أو الدرهم، عدل صامت يحتاج فى التطبيق إلى عادل ناطق و هو الحاكم، و الحاكم أيضاً يحتاج إلى قانون إلهى قائم على الإعتدال الحقيقى، فنواميس العدل ثلاثة، « الناموس الأكبر» و هو الدين الإلهى و القانون الإسلامى، و « الناموس الأوسط»، و هو العادل الناطق الإمام الحاكم المعين بالقانون الإلهى، و « الناموس الأصغر» هو الدرهم و الدينار.

قال الله تعالى: « وَ أنزَلنا مَعَهُم الكِتابَ و المِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسَ بِالقِسطِ و أنزَلنَا الحَدِيدَ فيهِ بَأسٌ شَديدٌ و مَنافِعَ لِلنَّاسِ» (الحديد/٢٥).

المطلب التاسع

الإقتصاد الاسلامى

النظام الإقتصادى فى الإسلام أبدع نظام و أكمله و هو وليد القوانين الطبيعية و الفكرية مرعياً فيه قانون التكامل الذى هو أهم هذه القوانين و أعمها تأثيراً، و لا ريب فى أنّ روعة أسلوب القواعد و القوانين الإسلامية فى الإقتصاد لإبتنائها على الفطرة الإنسانية القائمة بمجموع الروح و الجسد و العقل، و حاجاتها المتنوعة، ستبقى حافظة رونقها و مزيتها أبداً، لانها الاساس القويم فى بناء علم الإقتصاد مهما يكن نصيبها فى المستقبل من تبدلات هذا العلم و تطور آرائه و قواعده، لانّ الامور الإقتصادية تسير فى الإسلام طبقاً للقوانين الطبيعية و الفطرية الثابتة التى يصح تطبيقها فى كل زمان و مكان.

وضع الإسلام القواعد و المناهج التى ينبغى للبشر أن يراعوها لاجل تسيير مصالحهم الإقتصادية على أفضل مثال، و للوصول إلى النتائج المرغوبة و السعادة المنشودة، و غرضه الأهم منها دفع الفقر و إزالته عن المجتمع الإسلامى. فعالَج الفقر المادّى بتشريعه الزكاة و الخمس و الصدقات و الكفارات و الإحسان و القرض و أمثالها، و بتحريمه الربا و الغشّ و مَنعِه الإحتكار، و عالج الفقر الخلقى الذى هو أهم الامراض الإجتماعية بتعليمه المشهور المأثور عن النبى ﷺ « بعثت لاتمم

مكارم الاخلاق» و الكلمات المأثورة فى الإسلام أمثال « كاد الفقر أن يكون كفراً»[١]، « الدنيا مزرعة الآخرة»، « انّما الاعمال بالنيات» ... أكبر محرِّض لتوفير الإنتاج و تعمير مزرعة الآخرة.

فمن الباطل الزعم القائل أن القول المأثور فى الإسلام «حب‌الدنيا رأس كل خطيئة» يمنع الإنتاج و يدعوا إلى الفقر، لان هذا القول بإنضمام الكلمات المأثورة المذكورة جميعاً تثبت المثل الأعلى للإقتصاد و هو النفع الذى يجتمع مع العدل و الاخلاق، فلولا القول المأثور المانع عن حب الدنيا، لكانت الكلمات المأثورة فى الاسلام المحرّضة على الانتاج على شاكلة الإقتصاد فى سائر الملل، و لولا تلك الكلمات المأثورة لَكان القول المانع عن حبّ الدنيا خَلقاً و ايجاداً للفقر، فمجموعها تقرر الإقتصاد الإسلامى الجامع بين المنفعة و بين العدل و مكارم الاخلاق، و تهذيب النفس و الروح مع تكميل سعادة الجسم و المجتمع، فهو يمزج بين المادة و الروحيات بقصد الخير من المنفعة، و يجمع بين الأثرة و الايثار، فالاقتصاد الاسلامى معجزة تنحل بها المشكلات الاقتصادية فإنه لايبقى مشكل مع سيطرة الاخلاق و الايثار و العدل على المنفعة و الاثرة.

و لايصح فى الاسلام انتُترك الشؤون الاقتصادية العامة و شأنها تتخبط فى ديجور الطبيعية الدامس، بل تفتقر إلى سياسة رشيدة مستندة إلى العقل السليم و إلى ملكة الاجتهاد فى الفقه الاسلامى تنير طريقها، و تسيرها فى إتجاه صالح للوقت و الزمن جرياً على سنن الرقى و التقدم، مع تجنب التدخل العميق فى فروع هذه الشؤون و شعبها، و لاجل ذلک لم‌يعارض الاسلام حريّة الافراد من الوجهة الاقتصادية، فلكلّ فرد أن‌يبذل أقصى جهوده فى توفير الإنتاج بكل ما يناله بمساعيه و أعماله و قواه و غرائزه و يملكه شرعاً و له أن‌يستهلكه فيما يشاء و يختار من و جوه الخير و الصلاح بعد إخراج الحقوق الشرعية الواجبة منها.

و لماذا يستنكر أن‌يكون البشر غير متساوين من الوجهة الإقتصادية و هم غير متساوين فى أجسامهم و قواهم و عقولهم و غرائزهم و سائر مواهبهم الطبيعية، و إنّ عدم المساواة الإقتصادية – علاوة على ذلک– هو شرط الرّقى الإجتماعى، لأن الرغبة فى الوصول إلى المساواة هى المحرّض الكبير فى الإنتاج، و اذا أراد الشارع أن‌يتصدّى لتأسيس المساواة و توطيدها بين الناس فى امتلاک الثروة فهو لايستطيع سوى ايراث الأضرار و الخسائر للهيئة الإجتماعية نفسها، و

١. الخصال/١، الامالى للصدوق/١، تفسيرالبرهان/٥؛ و الكافى، ج٢، كتاب الايمان و الكفر، باب الحسد: عن ابى‌عبدالله – عليه السلام– عن رسول الله ﷺ : « ... و كاد الحسد ان يغلب القدَر». م

المساواة الوحيدة التى ستَتحققُ حينئذ فى الإقتصاد هى بلا ريب المساواة فى الفقر. و لكن الإسلام حدّد هذه الحرية بحكم العدل الإجتماعى، و جعلها محدودة بعدم الضرر على حرّية الغير مطلقاً لا مادياً و لا معنوياً و لا صحياً و أمثالها، و قرّر التلازم بين الإقتصاد الإسلامى و بين الأخلاق العالية و الحقوق و الأحكام الواجبة و الآداب المقررة شرعاً رعايتها فى الإنتاج و التداول و التوزيع و الإستهلاك، و المفصلة فى كتب الفقه الإسلامى فى أبواب المتاجر و المكاسب و البيع و الرّبا و الإجارة و المزارعـة و المساقاة و الجعالة و الشركة و المضاربة و الغصب و إحياء الموات و الأنفال و الديون و الرهن و الحجر و الضمان و الصلح و الحوالة و الكفالة و الميراث، مضافاً إلى القاعدة العامة المستفادة من قوله تعالى « و إثمُهُما أكبَرُ مِن نَفعِهِما» (البقرة/٢١٩)، و هى أنّ ما يوجـد لايكون خيراً محضاً و لا شراً محضاً بل فيه هما معا، و الخير فيما زاد نفعه على ضره، و هذه القاعدة النسبية عامة فى الأشياء و القضايا التى لا يعرف حكمها الشرعى فتشمل الإقتصاد أيضاً.

توضيح المبحث

إنّ علم الإقتصاد يبحث فى دراسة جهود الإنسان المخصصة لقضاء حاجاته الطبيعية و الإجتماعية، و المبذولة بسائق الفطرة و الطبيعة و الغريزة فى إنتاج الأرزاق و تداولها و توزيعها و إستهلاكها، و به تعرف القوانين و النواميس التى لها تأثيرها فى هذه الشؤون كلها و الطرائق التى تجرى عليها و تسير بموجبها، و للإقتصاد قوانين عامة تشبه الحقائق الراهنة فى أنهـا لاتقبل التغيّر فى العصور و الأحوال كقانون العرض و الطلب، و بجانبها قوانين تأريخية لاتلائم إلا بعض العصور أو الجهات أو الحالات الإجتماعية، و لقد عَنى المشرّعون بالمسائل الإقتصادية فى كل عصر عناية فائقة، فوضعوا القوانين التى تنظم الملكية الفردية و العامة، و الأحوال الشخصية من ميراث و عقود مدنية و تجارية، و سجلوا الدراسات الإجتماعية و ما ترسمه مذاهبها من غايات للحياة و أساليب فيها.

و لكن بعض المتأخرين منهم إنحرف عن أغراض علم الإقتصاد فأسماه « علم الثروة» و عرَّفه بأنه « علم الثروة من حيث الحصول عليهـا و الإنتفاع بها» و هذه التسمية الخاطئة تشعر بأن غاية ما يرمى اليه هذا العلم هو الثروة فى ذاتها، و تدخل على ذهن من يجهل حقيقة موضوع علم

الإقتصاد الظن بأنه من جالبات الثروة و الغنى و أنه من الضرورى أنيصبح المطلعون عليه فى مصاف الأغنياء، و لكنه حينما يقف على حالتهم المعاشية تتولاه الخيبة فى الغالب فيجزم بعدم نفعه و الحاجة اليه، و لكن يفوته أنّ العلم بالشيء غير العمل به فإنّ الأخصائى[١] فى علم الفلسفة الطبيعية، الضليع بقوانين الحركة و القوة لايقدر على سوق القاطرة ذراعاً إلى الأمام فى حين أن السائق الذى يقطع بها عشرات الأميال فى الساعة الواحدة لايعلم شيئاً من المؤثرات التى تنجم عنها حركة تلك القاطرة، و لا ماهية القوى العاملة فى سيرها و سرعتها.

و هذه التسمية و هذا التعريف كلاهما خلاف الواقع و الحقيقة، لأن علم الاقتصاد، علم يتناول الأغراض التى يرمى اليها الإنسان و العوامل التى تدفعه للحصول على حاجاته، و لهذا كان اليونانيون قديما يقصدون بعلم الإقتصاد، قوانين التدبير المنزلى فى ما لَه مساس بالجماعات.

و موضوع علم الإقتصاد، الفعالية البشرية التى تبذل فى سبيل الحاجات الإنسانية، و هذه الفعالية البشرية فردية فى منشأها و إجتماعية فى نتائجها، و لأجل ذلک عُدَّ علم الإقتصاد من العلوم الإجتماعية و هى التى نشأت عن مخالطة البشر بعضهم ببعض و تكوّنت من علاقاتهم الناجمة عن عيشهم فى حالة الإجتماع، حين تقسيمهم العلوم الكونية إلى ثلاثة أقسام، أولها العلوم الطبيعية، و هى العلوم التى نشأت و ثبتت بتطبيق طرائق التجربة و الإختبار، و هى التأريخ الطبيعى و الفلسفة الطبيعية و الكيمياء و علم طبقات الأرض و علم الحيوان و علم النبات، و تؤلّف الأجسام و ما بينها من العلاقات، موضوعات العلوم الطبيعية؛ و ثانيها العلوم الرياضية، و هى نتيجة من نتائج العقل و الإلهام، و تدعى معرفة العلاقات الكائنة بين الاجسام من حيث الأبعاد و الأوزان، و نسبتها إلى الارقام، بالعلوم الرياضية، كالهيئة (الفلک) و الهندسة و الحساب و الجبر و المثلثات و النسب؛ و ثالثها العلوم الإجتماعية، و هى علوم الأخلاق و الحقوق و الإقتصاد و السياسة و علم النفس.

و يتألّف موضوعات العلوم الإجتماعية من الأشخاص و ما يحدث بينهم من العلاقات المعنوية فى حالة الأجتماع، و لايستطاع وضع حدود فاصلة لكل من العلوم الاجتماعية و لا سيما علوم الأخلاق و الحقوق و الاقتصاد التى يؤلف موضوعها أساس متحد هو الشخص المدنى، كما يستطاع ذلک فى العلوم الطبيعية كعلوم الحيوان و النبات و طبقات الارض التى يسهل التمييز

١. يقال فى اللغة الفارسية « متخصص». م

بين موضوعاتها لعدم المشابهة بينها، و لانّ حدود العلوم الطبيعية ظاهرة جلية بخلاف العلوم الاجتماعية، فإن تقسيم العلماء العلوم الاجتماعية إلى أقسام متنوعة هو صنعىّ أكثر من كونه طبيعياً، و إنما وضع لتسهيل دراستها و التخصص فى دراسة كل منها، لا لتمييز بعضها عن بعض تمييزاً أساسياً، لان حدودها كانت و لاتزال ممتزجة متداخلة بحكم الضرورة، فالمبادلة و المزارعة و الفائدة و الأجرة و الملكية و الوراثة و ما ماثَلها من الشؤون الإجتماعية تدخل كلها فى حظيرة العلوم الثلاثة، الاخلاق و الحقوق و الإقتصاد؛ إذ يصحّ درسها و تدقيقها من ثلاثة وجوه مختلفة، أى من الوجهة الأخلاقية التى تقضى بالصدق و الإستقامة فى المعاملة و الأمانة فى وفاء العهود و المواثيق، و من الوجهة الحقوقية التى تستدعى وجود الملكية و سبق التعاقد و توجب القيام بالتعهدات المبرمة بين العاقدين، و تخولّهما حق التمتع بالنتائج التى تنشأ عن تلك التعهدات، و من الوجهة الاقتصادية التى تتعلق ببيان القواعد فى المبادلة و المزارعة و غيرهما لاجل الحصول على المنافع المنتظرة منها إبتغاء وفاء الحاجة و قضاء اللبانة، فالقيام بالواجب و التمتع بالحق و الحصول على مايلزم للمعيشة، عبارة عن ثلاثة أغراض مختلفة، يرجع الغرض الأول منها إلى مباحث الأخلاق، و الثانى إلى مباحث علم الحقوق، و الثالث إلى مباحث علم الإقتصاد. و أما مساعدة المعوزين و التعاون فهى تدخل فى أبحاث علمَى الإقتصاد و الأخلاق، كما أن الشركات و النسيئة و الملكية يتناولها عِلمَا الإقتصاد و الحقوق.

و لكنّ الإسلام و هو دين الفطرة، إعتبر الشخص المدنى مخلوقاً مُوحّد الكيان متعدد الجوانب، أى واحداً مؤلفاً من مجموع الروح و البدن و العقل، و قرّر الاقتصاد الكامل لغرض وفاء حاجات الروح و حاجات البدن و حاجات العقل، و التوفيق بين مطالب الروح المعنوية و مطالب الجسد المادية بطريق الإنتاج الحاصل بالفعالية البشرية التى تنشأ منبعثة عن « الحاجة» التى هى الباعث الأصلى للحركة الإقتصادية، و المحور الوحيد الذى تدور عليه جميع المعاملات الكونية، لأن الانسان المتأثر بعامل الحاجة يشعر طبعاً بوجوب العمل على تهيئة الأسباب التى تكفل وفاء حاجاته، فالحاجة تولد فى نفسه الرغبة فى إدراک ما تصبوا اليه و ترتاح من ماديات او معنويات، كما أن الحرمان تثير فيها كوامن الألم و الإنزعاج، فهو لذلک يحرص على درء ما يؤلمه و جلب ما يلذّه، و هذه الرغبة تستدعى السعى و بذل الجهد المطلوب فى سبيل الوصول إلى ما يضمن للإنسان وفاء حاجته من الاشياء و اليه يشير قوله تعالى: «... لَيسَ لِلإنسانِ إلا ما سَعَى» (النجم/٣٩)،

و لمّا كان بذل الجهد يستدعى المشقة و العناء، فالإنسان يحاول انيصل بأقل جهد إلى اعظم المنافع فى سدّ حاجته، و من هذا الميل الغريزى فى الإنسان إستنبط الإقتصاديون قانون « أدنى الجهد» الذى يدعى بحقٍ أهمُّ القوانين الاقتصادية، لانه الاساس الوحيد لرقىّ الصنائع و الاعمال، و المُلهم الاصلى لكل إبداع و إختراع، فالحاجة التى هى منشأ أقوى شعورٍ دافع للإنسان إلى الكدح و المثابرة على العمل تغلب ميله الفطرى إلى الراحة و السكون، و لذلک كانت الحاجة هى العنصر الاصلى فى الفعالية الإقتصادية و الباعث الاقوى للرقىِّ الإجتماعى، فهى « أمّ الإختراع» و لولاها لبقى الانسان هملا خاملا لا فرق بينه و بين الحيوان، و أما منشأ الحاجة فهو « ضعف الإنسان»، قال الله تعالى: « و خُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفاً» (النساء/٢٨)، و الضعف يولّد الحاجة، و الحاجة تفتق وجـــه الحيلة، فيستعمل الإنسان غرائزه و قواه و مواهبه و عقله و أفكاره فى الإختراع و الإكتشاف. و يتأيد بهذه الآية الكريمة ما قرّر فى علم الإجتماع من أن القوة البدنية تؤخر التطور الإجتماعى و ضعفُها يعجّلُه، لأنّ الفرد الضعيف يضطر إلى الإستعانة بالجماعة، و إلى الدهاء و الحيلة، و هما من أدوات الاجتماعية.

و هذا الضعف منشأ كرامة الإنسان و منبع سعادته، لانه الدافع الأصلى للإنسان إلى إستعماله عقله و فكره فى معرفة مبدء الكون و خالق الحياة لكى يلتجئ اليه من عاديات الطبيعة و المخوفات القوية و لمعرفة المعاد و مصير العالم، قال الله تعالى: « و لَقَد كَرَّمنا بَنِى آدَمَ » (الإسراء/٧٠). فالإنسان أكرم الكائنات على الله تعالى، خلَقه فى أحسن تقويم، و تولّاه بالإلهام و التعليم، و حلّاه بالعقل الفطرى السليم، و أقدره على إستخدام ما فى الوجود و تسخير المادة و قوى الطبيعة، و أمدّه الله بما يناسب مطامحه مِن حول و قوة، و وطأ له أطراف الكائنات و سخرها له فقال تعالى: « سَخَّرَ لَكُم ما فِى الأرضِ» (الحج/٦٥)، و لكن الانسان مع هذه المنح كلها، ضعيف الجسد، تؤلمه النسمات، واهن الجلد، تستفزّه الخطرات، شديد الهلع، تستطيره الهواجس؛ و بمجموع هذا الضعف و تلک المنح، تحقق التكريم الإلهى لبنى آدم، و به أصبح الإنسان أشرف المواليد.

و لعل إختياره تعالى كلمة « بنى آدم» دون ألفاظ الإنسان و البشر و الناس، لتذكيرهم بأنهم أولاد شخص واحد و هذا هو معنى الأخوة الإنسانية، و من المعلوم أن المحبة من لوازم الأخوة، و المحبّة تمنع النزاع و الحرب بين الإخوة، ففى هذه الآية ما ينشده العالم من السلام العام.

ثم إن للحاجة صفتين بارزتين،

– أولاهما، قابلية الإتساع و ينضوى تحت هذه الصفة أمورٌ:

و منها، تعدد الحاجات بل تعذُّر حصرها، فيجب علينا أنْنضع حداً لهذه الحاجات المتزايدة التى لانسدُّ منها حاجة حتّى تبدو لنا عَشر، و ينبغى لنا أنْنعنى بتقليل حاجاتنا و تحديدها بدلاً مِن أنْندأب على تزييدها و تنميتها، أو نستعيض عن هذه الحاجات بغيرها من الحاجات المعنوية التى هى أشرف غرضاً و أنبل مقصداً لكىيحصـل التوفيق بين الإقتصاد المادى و بين الأخلاق الشريفة، أى يضاف علاج الروح على علاج البدن.

و منها، تزاحم الحاجات، أى أن الحاجات تزدحم و يصطدم بعضها ببعض فما إشتد منها نقص من شأن غيره من الحاجات، أو أزاله بتاتاً، و على هذه الصورة يستعيض البشر ببعض الحاجات عما سواها، و يُدعى هذا « قانون الإستعاضة» و هذا القانون و قانون « المباراة» هما الحارس اليقظ للأسعار، و المانع للمحتكرين من التلاعب بها، و لاتنحصر الإستعاضة فى الحاجات المادية بل تناول جميع الحاجات المعنوية، و لايستعاض عن الحاجات دائما بأمثالها، بل قديستعاض عن بعض المواد و الأشياء بما لايجول فى الذهن أو يمرّ بالخاطر، و يستفيد علماء الأخلاق و حفظِ الصحة مِن هذا القانون، فيستبدلون الحاجات المفسدة للأخلاق المنهكة للقُوى، بحاجات مهذّبة سامية اذ يستعيضون مثلا عن النادى بالمكتبة و يحوّلون وجهة الأموال التى تنفق فى سبيل الملاهى و الملاذ الضارة، إلى المدارس و الملاجئ الخيرية و الأمور النافعة.

و منها، أن حاجات الإنسان متضامنة أى يتمم بعضها بعضاً، و لانكتفى بمقدار فى سدّ حاجاتنا كالكتابة مثلا بعمل منفرد أو بإستخدام مادة واحدة.

و منها، أن الحاجة عادة مستحكمة أى أنها تستحكم فى النفس بتكرر الإستيفاء فتصبح عادة لأن العادة بعد أنْتستحكم فى النفوس يصبح الرجوع عنها عسيراً فـلا مناص من الخضوع لأحكامها، فإنه بعد أنْيعتادها لايرى محيداً عن المواظبة عليها و يتعذر عليه الإقلاع عنها، و لذلک عُدَّت العادة من الحكام الخمسة التى لا بد للإنسان مادام فى دار الدنيا مِن متابعتها، و ليس له من دونها سبيل خلاص، و لا عن إمتثال أوامرها و نواهيها مَحيد و لا مناص إلا أنْيخلصه بعضها عن حكم آخر. فيذهب به إلى مثله أو أنفع أو أضر و لبعضها على بعض الفضيلة و السيادة، و هى العقل و الشرع و العرف و الطبع و العادة.

و الإعتياد على هذا الوجه ضارٌّ لأنه يتأصل فى النفوس و يرسخ، فلايستطاع الخلاص من ربقته. و هنا تظهر صعوبة و ظائف المربى و ما يلاقيه من المشاكل فى أمر التربية و استئصال العادات السيئة و إبدالها بالعادات الحسنة.

و منها، أن الحاجات تنشر بين البشر بعاملى التقليد و الإقتباس، فيجدر فى هذا الشأن رعاية طريق الإقتباس و عدم الميل إلى التقليد الأعمى، لأن الإقتباس يتضمن حسن الإختيار بعد إعمال الفكر و الروية.

و منها، أن الحاجة موروثة أى أن الحاجات التى تتأصل بالإستمرار تنتقل بطريق الوراثة جيلا بعد جيل، و لايُنكر تأثير الوراثة، فقد أثبته العلوم و أيدته التجارب و الإختبارات، و قد برهنت الترقيات الطبّيّة على أن الولد كما يرث من والديه صفاتها المادية و الجسدية و المرضية، كذلک يرث منهما سائر الصفات العقلية و الأخلاقية، و قد يقع بعضُ الشواذّ فى هذه القاعدة و لكن ذلک لايسوغ إنكارها.

– و الثانية، مِن صِفتَى الحاجة، « قابلية الإشباع» و ربما تبدوا هذه الصفة مناقضة للأولى فى الظاهر و لكنها ليست كذلک فى الحقيقة و نفس الأمر. نعم، إن الإنسان حريص على الإستكثار من الحاجات التى تضمن له أسباب الراحة و الرفاهية، و كلما تقدم فى الحضارة زاد عدد هذه الحاجات و نَمى حتّى يصبح غير ممكن التحديد، أعنى أن الانسان لايقف عند حد معين من الحاجات و لايكتفى بعدد محدود منها، و لكنا إذا نظرنا إلى كل حاجة بمفردها نجد أن الانسان لايرغب بل لايستطيع أنيستوفى مقداراً كبيراً منها يزيد عن وُسعه و طاقته، بل يدركه الشبع عند حد محدود، فإذا تجاوزه، تنقلب الرغبة فى تلک الحاجة إلى الكراهية، و يعقب ذلک التخمة. و ينضوى تحت هذه الصفة، قانون من القوانين الإقتصادية الهامة، لأن أحدث نظريات القيمة قائمة على أساسه و هو « حاجة الإنسان محدودة» يعنى أن كل حاجة من الحاجات يكفى لسدّها مقدار معين من الاشياء، و إذا كانت الحاجة طبيعية، أى أنها تحدث بدافع طبيعى كالجوع و العطش، يسهل تقدير المقدار اللازم، و لكنها إذا كانت ذوقية إجتماعية، يصعب فيها ذلک لأن المقدار المنوَّه به، يختلف بإختلاف ميول البشر و أهوائهم؛ و لكنه لا بد لكل من هذه الحاجات من حد إذا تجاوزته تلک المقادير، يستغنى عنها و تستكره، و يستثنى من ذلک « النقد»، فإنه لا حدّ لمقدار الحاجة اليه لأن النقد لايسدّ حاجة واحدة من حاجات الإنسان بل يصلح لسدّها بأجمعها.

ملخّص منهج الإقتصاد الإسلامی

لا شک فی أنّ عقیدة التوحید أساس الإسلام، و هدفه تکوین عالم واحد تحت رایة التوحید الإسلامی، و لا ریب فی أن الاسلام یتّجه إلی المعنویات و البواعث و المقاصد و النیات، فیجعلها موضع حساب عند الله القیامة، و حکمه علی الماديات لاینفصل عن النیة و البواعث، و إذا کانت أحکام الماديات تطبق فی الدنیا بین یدی القوانین و التشریعات، فأحکام البواعث لدیّان یوم الدین، لأن النبی ﷺ یقول: « إنما الأعمال بالنیات» « و لِکلّ امرئ ما نَوی» و بذلک یفترق المسلم من غیره. فهو یعلم أنّ دینه دین قلوب، کما هو دین نتائج و ثمرات، و قد قال ﷺ: « إن الله لاینظر إلی صورکم و لکن ینظر إلی قلوبکم و أعمالکم» و یعلم المؤمن أن دینه یتغلغل فی کل ما یعمل، فمن یقصد الخیر بعمله یکن خیِّراً، و من یقصد الشر یکن شریراً، و علی المؤمن أنیعرف أن مقدار رضا الله تعالی عن عمله بمقدار خلوص نیته، و بهذا یتبین أن الدین الاسلامی لیس محصوراً فی المساجد و المعابد وحدها، بل متغلغل فی کل عناصر الحیاة و أعمالها، و أنّ کل شیء فی الاسلام سواء کان فی الأعمال أم فی الأقوال أو فی المال یجب أنیکون خاضعاً لقانون الخیر و قوانین الأخلاق و لأحکام الفضیلة، و مکارم الاخلاق هی العفة و الشجاعة و الحکمة، و تجمعها کلمة « العدالة»؛ قال الله تعالی مخاطِباً رسولَه ﷺ: « إنَّکَ لَعلَی خُلُقٍ عَظِیمٍ» (القلم/۴) و قال ﷺ: « بعثتُ لاتمّم مکارم الأخلاق» و قال أیضاً: « الخُلق وعاء الدین» و نَهی عن الإفراط فی الحس المفسد للخُلق، کما قرر الاتکاء علی العقل السلیم و حُکمه الإستقلالی، و منع عن الإفراط فی التمسک بالمعنویات المفسد للعقل، فَـرُوعِیَ فی الاسلام کل جانب من حدود الروح و الجسد و العقل، و قرر فیه علی جانب الکمال الروحی، حقوق الانسان الفطریة المرتبطة بالارض و المادة إرتباط عیش و بقاء، و حقوق الجماعة المتعاونة المتکافلة فی سبیل البقاء و ما یقتضیه من مقدمات، فقرر توجیه الأفراد و الجماعات توجیهاً صحیحاً نافعاً جامعاً، یسیر بهم فی طریق التعاون الإقتصادی و التکافل المادی المشفوع بالعدل الإجتماعی و مکارم الاخلاق، و یضمن لهم الوصول إلی الخیر الأکبر « و إنَّهُ لِحُبِّ الخَیرِ لَشَدِیدٌ» (العادیات/۸) و المحافظة علی کرامة الانسان الذی خلق له عقل یعقل، و فکر بعمل، و عاطفة تتحرک، و جسد له حق علی الإنسان الذی جعله الله فی الأرض خلیفة.

فالإقتصاد فی الإسلام یجب أنیکون کَکُلّ شؤون الاسلام خاضعاً لقوانین الأخلاق الاسلامیة،

و لأحكام الفضيلة، فليس لإمرئ أن‌ينسى حق غيره، و لقد وضع النبى ﷺ قانون الأخلاق و الفضيلة و الرحمة فى التعامل الإنسانى فقال: « عامِل بما تُحب أن‌يعاملوک به» و قال ﷺ « اَحِبّ لغيرک ما تحب لنفسک» و هذه القاعدة تنطبق على الإقتصاد و كل أعمال الإنسان. فالمستغلّ لِماله، عليه أن‌يُعامل الناس بما يريده لنفسه، و أن‌يحب لهم ما يحب لنفسه، و إذا لُوحظ ذلک لايكون تحكّم القوىّ فى الضعيف و لا المنافسة التى تنتهى إلى نزاع إقتصادى، و مغالَبة بالمال، فلايكون من التاجر القوىّ الإرخاص فى الأسعار ليفلس مُنافسَه، أو ليتحكم فى إقتصاد البلاد، أو يحتكر إمرؤ ما عنده و يخفيه ليبيعه بِغلاء فاحش. و هكذا تكون هذه المنكرات و المحرمات خارجة عن قانون الفضيلة و العدل و الأخلاق و بهذا يتبين أن قانون الخير و الشر يسير مع النظام الإقتصادى فى الاسلام بل يحكمه و يسيّره و يهديه و يرشده، و مَن فصل الأقتصاد عن الاخلاق فإنه يفتح باب الإعتداء و الإحتكار و الطغيان و الظلم، و كل نظام يخالف قانون الأخلاق يؤدى إلى النزاع و القسوة و الحرب و الاختلال، فيكون مآله الهدم و الإنهيار، لأنه مَبنِىّ على شفا هارٍ فَسَينهارُ به. و كل نظام يتفق مع قانون الأخلاق و الفضيلة و الرحمة بالناس هو نظام ثابت الدعائم، قوىّ الأركان، لأنه قائم على تقوى مِن الله و رضوان، و لأن الرحمة العامة بمَن فى الارض هى غاية الإسلام الأولى، و هى مقصد الرسالة المحمّدية ﷺ فقد قال الله تعالى: « و مَا أرسَلناکَ إلا رَحمَةً لِلعَالَمِينَ» (الانبياء /١٠٧)، و قال تعالى: « يَا أيُّهَا النَّاسُ قَد جَاءَتكُم مَوعِظةٌ مِن رَبِّكُم و شِفاءٌ لِمَا فِى الصُّدورِ و هُدَىً و رَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ* قُل بِفَضلِ اللهِ و بِرَحمَتِه، فَبِذَلِکَ فَليَفرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُونَ» (يونس/٥٧و٥٨)، و قال رسول الله ﷺ: « الراحمون يرحمهم الرحمان» و لقد أكثر النبى ﷺ مِن الحث على الرحمة حتّى قال بعض أصحابه: " لقد أمرتَنا يا رسول الله بالرحمة و إنا نرحم أزواجنا و أولادنا"، فقال ﷺ: « ما هذا أريد و إنما أريد الرحمة بالعامة»؛ و على أساس الرحمة قرر الإسلام وجوبَ المحافظة على النفس الإنسانية و على العقل و على النسل و على الدين و على المال. فالمال ركن من أركان المصالح الإسلامية التى تجب المحافظة عليها و تَنميتها بِكلّ وسائل الإستغلال المشروعة، لأن المال عَصب الأعمال، و لذلک نهى الإسلام عن كنز المال فقال تعالى: « وَ الَّذِينَ يَكنِزونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ وَ لايُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ الله، فَبَشِّرهُم بِعَذابٍ أليم * يَومَ يُحمَى عَليهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكوَى بِهَا جِباهُهُم و جُنُوبُهُم و ظُهورُهُم هَذا ما كَنَزتُم لأنفُسِكُم فَذُوقُوا ما كُنتُم تَكنِزُونَ» (التوبة/٣٤ و ٣٥) و كنز المال يصدق على منعه من التعامل، و الإنتفاع

به فی المعاملات، و إستغلاله بالرحمة الملازمة للمنفعة، لکی‌تکون المنفعة، خارجة عن دائرة الأثرة الضیقه إلی منطقة الإیثار المتسعة الرحاب، و علی هذا الأساس إتجه الإسلام إلی تَنمیة الموارد ما أمکنت التنمیة، و وردت النصوص الشرعیة داعیة إلی تنمیة المال و تثمیره و إعتبار ذلک صدقة مقبولة فقد قال النبی ﷺ: « من أحیی أرضاً فله فیه أجر، و ما أکله العوافی فهو له صدقة» و قال ﷺ: « ما مِن مسلم یزرع زرعا أو یغرس غرساً فیأکل منه انسان أو دابة، کتب له به صدقة» و قال ﷺ: « من أحیی أرضاً میتة فهی له» و ذلک لیشجع المؤمن علی عمارة الأرض و اصلاحها، و لِتتحقّقَ الخلافة الإنسانیة الکاملة فی الأرض، فقد قال الله تعالی: « وإذ قَالَ رَبُّکَ لِلمَلائکةِ إنِّی جَاعِلٌ فِی الأرضِ خَلِیفَةً» (البقرة/۳۰) و لمّا کانت خلافة الله فی أرضه و عمارة البلاد و سعادة العباد و حل الرموز و إستخراج الکنوز من طبائع الأکوان و شرائع الوجود تستحیل علی الفرد و تمتنع علی الواحد، کان من أهمّ المواثیق التی أخذها الصانع الحکیم علی خلیفته، میثاق التعاون و التضامن و أن‌یکون الکل هو الفرد، و الفرد هو الکل، فیتمّ بذلک نظام الهیئة الإجتماعیة و ینال الإنسان سعادتَه بأفراده و مجموعه و تحظی وحداته من توحید کثراته.

و یلزم الإنتباه إلی أن التأریخ قد أثبت أن الحروب و الفتوح هی التی حصرت ملکیة الأراضی فی قسم صغیر من الناس، و حرمت القسم الأکبر منها، و لکن الحروب و الفتوح الإسلامیة طبقت قانون الإسلام فجعلت الأراضی المفتوحة عنوة ملکاً لجمیع المسلمین، و لقد حث الاسلام علی العمل و التنقیب فی الأرض و السعی، و تکشف ما فیها من خیر، فقال الله تعالی: « هُوَ الّذِی جَعَلَ لَکُم الأرضَ ذَلُولاً فَامشُوا فِی مَناکِبِها و کُلُوا مِن رِزقِهِ و إلَیهِ النُّشورُ» (الملک/۱۵) و حرض الاسلام الانسانَ علی الکسب و التجارة، و ورد عن الشارع أن التجارة تزید العقل، و ترکها مذهبة للعقل، و أن فیها تسعة أعشار الرزق، و حث الإسلام علی العمل و إتقانه و دعی إلیه، فقد قال الله تعالی: «إنّا لانُضِیعُ أجرَ مَن أحسَنَ عَمَلاً» (الکهف/۳۰) و ورد عن النبی ﷺ أنّه قال: « إن الله یحب اذا عمل أحدکم عملا أن یُتقنه» و بما أن القوی العاملة ثروة فی ذاتها اذا عملت فإعتبر الإسلام کثرة عدد نفوس المسلمین ثروة و لم‌یعتبرها عبئاً و لذلک حث علی کثرة النسل لتحقیق تلک الثروة الانسانیة العاملة التی هی مصدر کل الثروات، و لم‌یفرق الاسلام بین عمل یَدَوِیّ و عمل غیر یدویّ، بل انه حسن العمل الیدوی و دعی الیه فقال ﷺ: « ما أکل أبن آدم طعاماً خیراً من طعام یده» و ان نبی الله داود علیه السلام کان یأکل من عمل یده، و لقد منع النبی ﷺ التواکل و

ترک السعی فی الأرض، فقال ﷺ: « لإن أخذ أحدکم حبلا فیحتطب علی ظهره خیر من أنیسأل الناس أعطوه أو منعوه» و قال ﷺ: « الید العلیا خیر من السفل» و أن من لایعمل لا خیر فیه و لو ترک العمل لأجل العبادة. فقد جاءه ﷺ قوم فیهم عابد قد انصرف إلی العبادة، فقال ﷺ: « و من یؤکله؟» فقالوا: " أخوه"، فقال ﷺ: « أخوه أعبد منه».

و قرّر الإسلام النشاط فی العمل فقد قال الإمام الحسن بن علی ؈: « قال رسول الله ﷺ: « إعمل لدنیاک کأنک تعیش أبداً و اعمل لآخرتک کأنک تموت غداً»، و قال الله تعالی: « و لاتَنسَ نَصیبَکَ مِنَ الدُّنیا» (القصص/٧٧) و قال ﷺ: « الدنیا مزرعة الآخرة» و اعتبر العمل الدنیوی بقصد الآخرة عبادة بالمعنی الأعم و موجباً للتقرّب إلی الله و أمّا الدنیا التی لاتفید فی الآخرة فحبها رأس کل خطیئة، ففی روایة أحمد بن عیسی عن علی بن الحکم عن یونس بن بکر قال: " قال لی ابوالحسن ؈: « من طلب هذا الرزق مِن حِلّه لیعود به علی نفسه و عیاله کان کالمجاهد فی سبیل الله فإن غلب فلیستدن علی الله و رسوله ﷺ ما یقوت به عیاله فإن مات و لم‌یقض کان علی الإمام قضائه فإن لم‌یقض کان علیه وِزره، إن الله – تبارک و تعالی– یقول إن الصدقات للفقراء و المساکین و الغارمین[١]، فهو فقیرٌ مسکین مغرم.»"

و الحاصل، أن الإقتصاد الإسلامی العام یرادف الإعتدال و الإستقامة و التوسط فی الأمور بین الإفراط و التفریط و بین الإسراف و التقتیر، قال الله تعالی: « جَعَلناکُم أُمَّةً وَسَطاً» (البقرة/١٤٣) و قال تعالی: « أُمَّة مُقتَصِدَة» (المائدة/٦٦) ، أی عادلة و قال تعالی: « و اقصِد فِی مَشیکَ» (لقمان/١٩) ، بالکسر أی اِعدِل و لاتَتبختَر فیه و لاتدبّ دبیباً. و الإقتصاد فی المعیشة هو التوسط بین التبذیر و التقتیر، و فی الحدیث « إقتصد فی عبادتک» أی إئت منها بشیء لایلحقک منها تعب و لامشقة شدیدة، تنفر الطبیعة منها، و فی الحدیث « القصدَ القصدَ» أی الزموا القصد و التمسوه، و القصد ما بین الحالتین.

و للإسلام تشریعات عظیمة معتدلة محیرة للعقل فی الإنتاج و التداول و التوزیع و الإستهلاک، و فی عامة الأمور و الأحوال بها أصبحت أنظمة الإقتصاد و الأخلاق و التعلیم و الحقوق و الإجتماع و تهذیب النفس و السیاسة مُثلاً عُلیا لِمقررات العلوم؛

منها ما فی أصول الکافی، کتاب الإیمان و الکفر، باب حق المؤمن علی أخیه، قال: " روی

١. فی سورة التوبة/٦٠ : « انما الصدقات للفقراء والمساکین و العاملین علیها والمؤلفة قلوبهم و فی الرقاب و الغارمین...» ، و لعل الامام أوردَ ما اراد من مضمون الایة لا نفس الالفاظ. م

أبوعلی الأشعری عن محمّدبن‌عبدالجبار عن ابن‌فضال عن عمربن‌ابان عن سعیدبن‌الحسن قال: " قال أبوجعفر علیه السلام: « أیجیءُ أحدکم إلی أخیه فیُدخل یده فی کیسه فیأخذ حاجته فلا یدفعه؟» فقلت: " ما أعرف ذلک فینا"، فقال أبوجعفر علیه السلام: « فلا شیء إذاً»، قلت: " فالهلاک إذاً"، فقال علیه السلام: « إن القوم لم‌یعطوا أحلامهم بعد»؛ و لعل المراد لم‌یکمل عقولهم و بلوغ إیمانهم بعد.

و منها روی أبوعلی الاشعری عن محمّدبن‌سالم عن أحمدبن‌النضر عن أبی‌اسماعیل قال: "قلت لابی جعفر علیه السلام: "جعلت فداک إن الشیعة عندنا کثیر"، فقال علیه السلام: «هل یعطف الغنی علی الفقیر؟ و هل یتجاوز المحسن عن المسیء و یتواسون؟» فقلت : " لا"، فقال علیه السلام: «لیس هؤلاء شیعة، الشیعة مَن یفعل هذا.»

و منها عن عثمان‌بن‌عیسی عن محمّدبن‌عجلان قال: " کنت عند أبی‌عبد الله علیه السلام فدخل رجل فسلّم، فسأله [الامام]:« کیف مَن خلّفت مِن إخوانک؟» قال: " فأحسن الثناء و زکی و أطری"، فقال علیه السلام له: « کیف عیادة أغنیائهم علی فقرائهم؟»، فقال : " قلیلة"، قال علیه السلام: « فکیف صلة أغنیائهم لفقرائهم فی ذات أیدیهم؟»، فقال: " انک تذکر أخلاقاً قلّ ما هی فی من عندنا"، قال علیه السلام: « فکیف تزعم هؤلاء أنهم شیعة؟!».

و منها عن إسحاق‌بن‌عمار و المفضل‌بن‌عمر قالا: "قال أبوعبد الله علیه السلام: « میاسیر شیعتنا أمنائنا علی محاویجهم فإحفظونا فیکم یحفظکم الله»".

و منها کان أبوجعفر علیه السلام یقول: «عَظِّموا أصحابکم و وَقِّروهم، و لایتجهّم بعضکم بعضاً و لاتضاروا و لاتحاسدوا، و إیاکم و البخل، کونوا عباد الله المخلصین».

و الغرض الاصلی من هذه التعالیم الاسلامیة، تفهیم المسلمین کافة أن الاصلاح الاجتماعی العام الذی أوجده النبی صلی الله علیه و آله کان من أصوله أن‌یقوم المسلمون علی مبدأ تعاونی محکم البناء لیس فی إحدی نواحیه ضعف، و شیّده بتشریع زکاة المال و زکاة الفطرة، و لمّا حرّمها علی بنی هاشم- لأنها من أوساخ أیدی الناس- فرض لهم الخمسَ فی أمور منها الغنائم بالمعنی العام الشامل لأرباح المکاسب و التجارات و الزراعات و الصناعات إکراماً لهم و توفیراً للفقراء، و شیّده أیضاً بتشریع الصدقات و الکفارات و القرض الحسَن و الإحسان؛ و « المعروفِ»[1] و هو الإنفاق علی النفس و العیال، ثم صلةِ مَن تَجب صِلته، ثم الحقِ المعلوم الذی یفرضه فی ماله

۱. عطف علی زکاةِ المال و زکاةِ الفطرة. م.

يعطيه فى اليوم أو الجمعة أو الشهر دائماً قلّ أو كثر، و فيه ورد « فِى أموَالِهِم حَقٌّ مَعلُومٌ» (المعارج/٢٤) ثم كل صدقة على فقير أو مروة إلى فقير أو إلى غنى بالضيافة و الهدية و الإعانة و نحوها، جلباً للخير أو دفعاً للشر دينيَّينِ أو دنيويين سائغَينِ شرعاً، و ايصال نفع عام ببناء مسجد أو مدرسة و نحوهما، أو نفع خاص كإرشاد الضال و التعليم و قربان المرأة للتعفف و العدل و قضاء حاجة المؤمن و إنظار المعسر و تحليل الميت و الحمل على الدابة و طيب الكلام و التوسيع على العيال و التبسم فى وجه أخيه المسلم و إعارة المتاع و أمثال ذلک مِما فصّله الفقهاء فى باب « المعروف» من كتاب الخمس.

و ورد عن النبى ﷺ « كل معروف صدقة» و البرّ و الصدقة ينفيان الفقر، و يزيدان فى العمر، و صنائع المعروف تَقى مصارع السوء.

و سُئل عن الصادق عليه السلام: " فى كم تجب الزكاة ؟"، فقال عليه السلام: « أما الظاهرة ففى كل ألف خمسة و عشرون، و أمّا الباطنة فلا تستأثر على أخيک بما هو أحوج منک».

ثم كان للمسلمين فى بيت المال رصيد خاص بذوى الحاجة، و من تدفع بهم الضرورة إلى الحدود القصوى؛ و كان امام المسلمين أو نائبه مسؤلاً عن وصول الحاجة ببعض الناس إلى هذه الحدود؛ و كان على كل فرد من أفراد المسلمين العيش مع الجيران على حالة تَكافل و تَعاضُد بحيث يرفد غنيهم فقيرهم، و إلا كان عليه وزر المقصر المستأثر؛ فأكثر النبى ﷺ من الإيصاء بالجار حتّى قال ﷺ: « ليس مِنّا مَن بات شبعان و جارُه جائع». و قد جرى المسلمون على هذا الأصل حتّى وصلوا إلى حدود يضرب بها الأمثال فى التعاون بين الفقراء و الأغنياء غصت بها تواريخهم و رُوى عن ابن عباس قال: " و الله ان رسول الله ﷺ ما زال يوصينا بالجار، حتّى ظنَنَّا أنه سَيُورثه".

ففى نظام اجتماعى من هذا الطراز حيث يسود التكافل و الترافد و يمكن فيه استصراخ امام المسلمين و حكومته الإسلامية بدفع الحاجات عن المعوزين.

و فى محيط كان فى امكان المحتاج أنيذهب إلى أخيه المسلم فيدخل يده فى كيسه فيأخذ حاجته و هو لايدفعه، قرّر الإسلام قطع يد السارق.

قال الله تعالی: « وَ السَّارِقُ و السَّارِقَةُ فَاقطَعُوا أيدِيَهُما» (المائدة/۳۸) و قال النبی ﷺ: « و الله لو سرقت فاطمة بنت محمّد لقطعت يدها»[۱] و كيف لايعامل العابث بأموال الناس فی محيط تطبيق نظام التعاون الإسلامی أقسی معاملة؟ بل و كيف لاتقطع يده حتّی يكفّ سواه عن مثل عمله الذی لايقصد به إلا محض الإيذاء و إزعاج الأمن؟

و من بياننا الموجز يمكن معرفة أمرين يمتاز بهما الاقتصاد الإسلامی عن غيره،

– الأول، ان الإقتصاد فی الإسلام لاينفک كلياً عن مكارم الأخلاق و عن العدل الإجتماعی و رعاية الحقوق،

– و الثانی، أن الإقتصاد الإسلامی الذی هو فضيلة أخلاقية لايختص بالمال و صرفه و لايقتصر بالماديات بل عام و شامل لكل الأمور، و يلزم تطبيقه علی كل شؤون الإنسان من طعامه و منامه و شغله و فراغه و أتعابه و تفكيره و عامة أعماله و أحواله حتّی العبادة.

ففی أصول الكافی فی كتاب الإيمان و الكفر، باب الإقتصاد فی العبادة، فی رواية عن أبی‌جعفر ؑ قال: « قال رسول الله ﷺ: « إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، و لاتكرهوا عبادة الله إلی عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذی لا سفراً قطع و لا ظهراً أبقی.»

و فی رواية حفص‌بن‌البختری عن أبی‌عبدالله ؑ: « لاتكرهوا إلی أنفسكم العبادة» و فی رواية عمروبن‌جميع عن ابی‌عبدالله ؑ قال: « قال رسول الله ﷺ: « يا علیّ إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، و لاتبغض إلی نفسک عبادة ربک، فان المنبت لا ظهراً أبقی و لا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن‌يموت هرماً و احذر حذر من يتخوف أن‌يموت غداً».

و قال الله تعالی: « طه * مَا أنزَلنَا عَليکَ القُرآنَ لِتَشقَی» (طه/ ۱و۲) و قال تعالی: « وَ لاتَجعَل يَدَکَ مَغلُولةً إلی عُنُقِکَ وَ لاتَبسُطها كُلَّ البَسطِ» (الإسراء/۲۹).

و هذا كله كما يجری فی الاقتصاد الفردی، كذلک يجری فی الإقتصاد الإجتماعی، فمن

---

۱. ورد فی كنزالعمال ۸۶۱۱ ، فی امرأة مخزومية التی تستعير المتاع و تجحده، فأمر النبیﷺ بقطع يدها، فأتی اهلُها اسامةَ فكلّموه، فكلّم اسامةُ النبیَّ ﷺ، فقال: « يا اسامة لااراک تكلّم فی حدّ من حدود الله!». ثم قام النبی –ص– خطيباً فقال: « انما هلک الذين ممن كان قبلكم أنه اذا سرق فيهم الشريف، تركوه، و اذا سرق فيهم الضعيف، قطعوه. و الذی نفسی بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»؛ فقطع يد المخزومية. انتهی.

و ورد مثله فی البخاری و النسائی و ترمذی و ابن ماجة و مسلم عن عائشة زوجة النبی ﷺ، مع اختلاف يسير. م

المعلوم أنه يستحيل حياة أمة و استقلالها الحقيقى الصحيح الكامل بدون الإقتصاد بمعنى إستغناء الأمة عن غيرها فى كل ما تحتاج اليه فى حفظ كيانها أو أكثره، و أن يزيد صادرها عن واردها.

المطلب العاشر

السياسة فى الإسلام

السياسة الإسلامية فى السلطة الزمنية عن نبعة الدين على سيرة خاتم النبيين ﷺ و أوصياته الأئمة الطاهرين ﷺ المنعوتين فى زيارة الجامعة الكبيرة بكلمة « ساسة العباد»، و كانت سياسة النبى ﷺ كَحكومته قائمة على أنها إلهية محضة، و أن ممارسته لها ضرب من رسالته التشريعية، و كان النظر إلى النبى ﷺ دينياً محضاً على أنه و إن مارس السلطة الزمنية فقد كانت الصيغة الدينية يغمرهـا حتّى لتخفى بوادر الحُكم و السيطرة و من المعلوم أن ولاة النبى ﷺ فى القطر الإسلامى فى عصره، و رجال الأعمال الذين قاموا بوظائف الإمبراطورية الإسلامية من بعده فى عهدها الأول كانوا من خرّيجِى المدرسة المحمّدية ﷺ فى صحراء العرب و لم‌يتعلموا فى جامعات و لم‌يدرسوا نظم السياسة و الإدارة و لا فنون الحُكم، و مع هذا قامـوا أعمالهم خيرَ قيام، و نجحوا فى سياستهم أسمَى نجاح، و ما كان انتصار قادتهم فى ميادين الجهاد، أروع من انتصار ساستهم فى إدارة شؤون البلاد، و تجلّت آيات نجاحهم فى مختلف شؤون الدولة الإسلامية فى الرئاسة العامة فى إدارة الولايات و سياسة الشعوب، سياسة ثبتت دعائم مُلكهم و مَدّت فى فتوحهم، و حببتهم إلى الأمم التى دخلت فى سلطانهم و رأت تلك الأمم من هؤلاء البدويين و عَدلِهم و أخلاقهم ما لم‌يروه من ساسة الدولتين العريقتين فى النظم و الحضارة، دولة الفُرس و دولة الروم، و فى التعليم و بث نور العلم، قام المتخصصون من رجاله بنشر العلم بين أفراد الأمة

حتّى أوجدوا روح التنافس العلمى بين مختلف الأمصار الإسلامية التى كانت تَموج بحركة علمية مثمرة ما لَبِثت حتّى أوجدت عدة من المجتهدين عجزت معاهد التعليم الحاضرة بمناهجها و نظمها أن‌تنجب منهم واحداً، و كذلک القضاء و السياسة و سائر شؤون الدولة الداخلية و الخارجية، توّجت أعمالهم بالنجاح، و هذا النجاح الذى وصل اليه عمّال الدولة الإسلامية أول عهدها له أسباب عدّة كامنة فى روح التعاليم الإسلامية؛

منها، حسن اختيار الموظف؛ فقد وضع أساسه القويم رسول الله ﷺ بفعله و بقوله؛ رُوى عن ابى ذرّ الغفارى – رضى الله عنه– أنه قال: " قلت: يا رسول الله ألا تستعمِلُنى؟، فضرب بيده على منكبى و قال : « يا أباذرّ إنک ضعيف و إنها أمانة، و إنها يوم القيامة خزى و ندامة، إلا مَن أخذ بحقها و أدّى الذى عليها»".

و رَوى أبوموسى الأشعرى، قال: " دخلت أنا و رجلان من بنى عمّى على النبى ﷺ فقال أحد الرَجُلين: " يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاک الله عليه"، فقال الرسول ﷺ : « إنّا و الله لانولِّى على هذا العمل أحداً سَأله، و لا أحداً حرص عليه»، فاعتذر أبوموسى و قال: " لم‌أعلَم بما جائا له".

و رُوِى أن رسول الله ﷺ قال: « من قلّد رجلاً على جماعة و هو يجد فى تلک الجماعة مَن هو أرضى منه، فقد خان اللهَ و خان رسولَه و خان المؤمنين»، و ذلک لأنه بعمله حرّم الجماعة من مزايا أكفَئِهم، و ربما أدّى التمادى هذا إلى إماتة الكفاءات، فرسول الله ﷺ عدّ التعدّى على الأكفاء، بتعيين من هو دونهم كفاءة، خيانةً لله و لرسوله ﷺ و للمؤمنين، لأن فى هذا إضاعة مصالح الأمة و إهداراً لكفاية أرباب الكفاءات فتضعف العزائم، و تسوء سمعة الأمة الإدارية، و تضيع مصالحها. لهذا كان رسول ﷺ لايولّى عملا إلا من تحقق أنه أحق به لكفائته قوة و خلقاً و علماً و عملاً.

و منها، اليقظة فى المراقبة. و قد وضع أساس اليقظة فى مراقبة العمال و الولاة رسول الله ﷺ فقد كان يعنى بسماع ما ينقل اليه من أخبار عُمّاله، و يُصغى إلى شكاية من يشكوهم و يأخذ عليهم زلّاتهم و يحاسبهم.

إستعمل رسول الله ﷺ مرّة رجلاً على الصدقات، فلَمّا رجعَ حاسَبه، فقال الرجل: " هـذا لكم

و هذا لى"، فقال الرسول ﷺ: « ما بدا للرجل نستعمله على العمل مِمّا ولّانا الله تعالى فيقول: " هذا لكم و هذا أُهدِى إلىّ!"، أفَلاقعدَ فى بيت أبيه و أمه، فنَظر أيُهدَى اليه أم لا؟»، و قال ﷺ: « من إستعملناه على عمل و رزقناه منه رزقاً، فما أخذ بعد ذلک، فهو غلول.»، و « الغلول» الخيانةُ فى المَغنم.

و الحاصل، أن الإسلام دين فطرى إجتماعى، و الإجتماع غريزة فطرية فى الإنسان فلا بد فيه من السياسة التى هى من أركان شؤن الإجتماع اللازمة فى داخل المملكة الإسلامية و خارجها، و هذه السياسة الإسلامية عبارة عن التدبير الصحيح الصادق الصريح الكامل الشامل لجميع شؤون الأمة الإسلامية المتكونة من مختلف شعوب العالم، و شؤون المملكة الإسلامية. و تدبير المدن هو القسم الأهم من أقسام الحكمة العملية فى الفلسفة الاسلامية، و هذا التدبير هو أساس إعداد القوة المأمور به فى قوله تعالى: « وَ أعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ» (الانفال/٦٠)، و منشأ هذا التدبير هو العقل المنتج للرأى الصائب فى كل الأمور على ضوء تعاليم الإسلام، و هل يتمكن الجامد أنيقول: " وَهَبنا اللهُ العقل و حرّم علينا استعمالَه لأنه سياسة؟!" و هل الرأى الصائب إلا للنبى ﷺ و خلفائه الأئمة الاطهار ﷺ ساسة العباد، و نوّابهم أصحاب القوة القدسية و ملكة الإجتهاد.

و ليس المراد بها مفهوم السياسة المتداولة فى عرف الدُول و الملل فى هذا العصر، و المبتنية على الخداع و النفاق و الكذب و الظلم و الطمع و الخيانة و الغدر و الأثرة و الغِشّ و العصبيات الذميمة و المجاملات الخادعة، فإنّ الإسلام برىء من هذه السياسة و لايأتلف معها فى مكان او زمان و هذه السياسة هى المقصودة فى كلمتنا المشهورة، « السياسة جمرة نار أحسُّها و لا ألمسُها».

و لقد صرح بهذا كلّه أميرالمؤمنين علىبنأبىطالب ﷺ فى عهده إلى الأشتر النخعى، عامله على مصر و أعمالها، و هو أول دستور جامع حكومى دينى صدر فى الإسلام بعد النبى ﷺ و فيه يقول: « و لاتكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان، إما أخ لک فى الدين أو نظير لک فى الخَلق، أعطهم من عفوک و صفحک مثل الذى تُحبّ أنيعطيک الله من عفوه و صفحه، و لاتندمنّ بعفوٍ، و لاتبجحن بعقوبة و لاتدفعن صلحاً دعاک اليه عدوک و لله فيه رضاً، فإن فى الصلح دعة لجنودک، و راحة من همومک، و أمناً لبلادک، و لكن الحذر كل الحذر من عدوک بعد صلحه، فإن العدو ربما يقارب ليتغفل، فخذ بالحزم، و اتّهم فى ذلک حسن الظن، و إنعقدت بينک و بين

عدوک عقدة أو ألبسته منک ذمة، فحط عهدک بالوفاء، و ارع ذمتک بالأمانة، و اجعل نفسک جُنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء للناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، و قد لزم ذلک المشرکون لما استوبلوا من عواقب الغدر، فلاتغدرنّ بذمتک و لاتخيسن بعهدک، و لاتختلن عدوک، فإنه لايجترئ على الله إلا جاهل شقى، و قدجعل الله عهده و ذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته، و حريماً يسكنون إلى منعته، و يستفيضون إلى جواره، فلا إدغال و لا مدالسة و لا خداع فيه، و لاتعقد عقداً تجوز فيه العلل و لاتعولنّ على لحن قول بعد التأكيد و التوثقة، و لايدعُوَنّک ضيق أمرٍ لزمک فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإنّ صبرَک على ضيق أمر ترجو انفراجه و فضل عاقبته، خير من غدرٍ تخاف تبعتَه و أنتحيط بک من الله فيه طلبة، فلاتستقيل فيها دنياک و لا آخرتک.»

و مِن معرفة هذا العهد الرائع يتضح جلياً سرّ وصف النبى و الأئمة -صلوات الله عليهم اجمعين- بصفة « ساســـة العباد»، ففى اللغة، ساسَ القومَ سِياسةً: دبّرَهُم و تولَّى أمرهم فهو سائس، و الجمع، ساسة و سُوّاس. و فى « مجمع البحرين» قال: " و فى وصف الأئمة عليهم السلام، أنهم ساسة العباد"، و فيه « الإمام عارف بالسيـاسة»، و فيه « ثم فوّض إلى النبى صلى الله عليه وآله أمر الدين و الأمة لِيَسوسَ عبادَه، كل ذلک مِن « سُست الرعيةَ سياسةً أمرتُها و نهيتُها، و ساسَ زيدٌ عمراً يسوسُه، دبَّره و قام بأمره، و فى الخبر تَسُوسهم أنبيائهم أى تتولّى أمرَهم كالأمراء و الوُلاة بالرعية؛ مِن السياسة، و هو القيام على الشيء بما يُصلحه».

و فى كتاب الحجة من أصول الكافى عن الرضا عليه السلام أنه قال: " و الإمام، عالم لايَجهل، و راع لاينكل، معدن القدس و الطهارة و النسک و الزهادة و العلم و العبادة، نامى العلم، ملء الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله – عز و جل– ناصح لعباد الله حافظ لدين الله ... "

و فى كتاب العقل و الجهل منه، عن ابىعبد الله عليه السلام قال: « كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: " بالعقل أستخرج غور الحكمة، و بالحكمة أستخرج غور العقل، و بحسن السياسة يكون الأدب الصالح."»

و من الجدير بالذكر أن السياسة الإسلامية لاتسمح بالحرب إلا إذا كانت ضرورة واجبة، قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى قتاله لـ« معاوية» ما نصُّه:

«و لقد ضربتُ أنف هذا الأمر و عينَه، و قلبتُ ظهرَه و بطنه، فلم‌أرَ إلا القتال أو الكفر... »، و أمر عليه السلام عاملَه على مصر بهذا القول: « و ولِّ مِن جنودک أنقاهم جيباً [أی أطهرهم قلباً]... ممّن يبطئ عن الغضب، و يستريح إلى العذر، و يرأف الضعفاء و ينبوا عن الأقوياء، و من لايثيرهم العنف ...»[1].

و مما قرّر فی تأريخ الأديان أن المسيح عليه السلام حاول بالإقناع المجرد أن‌يصل إلى الأفئدة المغلقة فلم‌ينجح، و قالوا له مثل ما قالوا للرسل قبله: « إِنَّا كَفَرنَا بِمَا أُرسِلتُم بِهِ و إِنَّا لَفِی شَكٍّ مِمَّا تَدعُونَنا إِليهِ مُرِيب» (ابراهيم/٩)، و لَيتَهم سكتوا عن ذلک فما هی إلا أيام حتّی وجهت اليهم ذوو السلطة بهذا الإنذار « و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخرِجَنَّكُم مِن أَرضِنا أو لَتَعُودنَّ فِی مِلَّتِنا» (ابراهيم/١٣) و كذلک رسول الإسلام صلی الله عليه و آله أيضاً بدأ دعوته بالإقناع المجرد، حتّی ألجئته السلطة القائمة بمكة إلى الهجرة عنها، فكان أن أسس بأمر الله تعالى دولة الإسلام الإلهية فی المدينة، فأوجب الله الجهاد على المسلمين لأجل فتح الطريق أمام نشر الدعوة الإسلامية التی شعارها « لا إِكرَاهَ فِی الدِّينِ» (البقرة/٢٥٦) ثم إستعاد ما فقده أول أمره، و شقّ الإسلام طريقه فی الحياة على ركام من أجداث الشهداء فلا نَهَضت الدولة الإسلامية الأولى على قدميها بتوطيد الأمن الإسلامی و دين التوحيد فی جزيرة العرب كان عملها الأول أن‌ساقت بأمر الله و رسوله صلی الله عليه و آله جيوش التحرير أفواجاً لِدَكّ الكسروية المتألهة و القيصرية المتألهة، و لتمنح السعادة المزدوجة و حق الحياة الكريمة للجماهير الإنسانية التی ترنّحت طويلا تحت وطأة هذه السلطات الجائرة، و كان من المستحيل فی ظل السطوة المقررة لتلک السلطات الجائرة أن‌تنشر دعوة أو تستنقذ أمة بالمحاجة و الإقناع فكان من الواجب الضرورى القيام بالتبليغ المسلّح.

مسک الختام

أجمع العلماء و المؤرخون على أن علیّ‌بن‌ابی‌طالب عليه السلام كان أعظم شخصية دينية، و أكبر عقلية قضائية و نظامية بعد النبی صلی الله عليه و آله ربّاه رسول الله صلی الله عليه و آله فی حجره و علّمه جميع تعاليم الشريعة الخالدة و العلوم الإلهية ثم قال صلی الله عليه و آله: « أنا مدينة العلم و على بابها»، و قال: « من كنت مولاه فعلی مولاه»، و لا شک فی أنه موهوب فی القضاء و الحرب و السياسة الإسلامية حتّی قيل « قضية و

١. و فی نهج البلاغة: « فولّ... و أنقاهم جيبا... و يرأف بالضعفاء و ينبو على الأقوياء، و ممن لايثيره العنف...». م

لا أبا حسنٍ لها» و لقد إهتمّ المؤلّفون بجمع أقضيته و أحكامه و تنظيماته، فألّفَ « الترمذى» كتاباً فى مجلدين دعاه « أقضية على»، و ألف « ابن‌قيم الجوزية» كتاباً فى « سياسة الشرعية» ملائه بأقضية على عليه السلام و سياسته التى كانت على سيرة رسول الله صلى الله عليه و آله و مقرّراته الإلهية المحفوظة عند أميرالمؤمنين عليه السلام، و لقد أشار إلى هذا فى عهده إلى الأشتر النخعى حيث قال: « و إعلم أن الرعية طبقات لايصلح بعضها إلا ببعض و لا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، و منها كُتّاب العامة و الخاصة، و منها قُضاة العدل، و منها عمّال الإنصاف و الرفق، و منها أهل الجزية و الخراج من أهل الذمة و مسلمة الناس، و منها التجار و أهل الصناعات، و منها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة و المسكنة، و كل قد سمَّى الله له سهمه و وضع على حدّه فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه و آله عهداً منه عندنا محفوظاً ...».

و يظهر من هذا العهد الرائع و غيره من كلماته و مِن تَتبُّع سيرته أن أميرالمؤمنين عليه السلام كان يرمى فى خلافته إلى أخذ الأمة الإسلامية بما شملت من الأمم المختلفة بعمل تشييدىّ عظيم، و كان عملاً موفّقاً جداً لأنه عليه السلام طبيب إلهى للأدواء الإجتماعية من جميع النواحى التشريعية و النظامية و غيرها، و لكن الثورة الداخلية التى أثيرت عليه و دارت حول شخصيته، و تكررت حتّى إستوعبت كلّ مدة خلافته، أوقفت كل حركاته الإصلاحية المنبثقة مِن صميم روح الإسلام التى ابتدئها بحزم و شدة فى نظام الحُكم و نظام القضاء و الإدارة و السياسة و نظام الجندية و الحرب و المعاهدات و غيرها على جانب العدل و الزهد و التقوى، و ألجَئتهُ إلى أن‌يهتمّ فى أكثر خطبه و كلماته إلى علاج الثورات و إخمادها، و توجيه العالم الإسلامى إلى محور الإسلام الحقيقى الصحيح بمقدار مساعدة الظروف و الأحوال، لِما لَمس مِن حاجة المجتمع، و من محاسن و مساوئ المحاولات التى حاولها مَن تقدَّم عليه.

و لولا خلافته القصيرة المدة لَقُضِى على روح الإسلام الحقيقى فى مهده، و لم‌يكن يبقى منه إلا إسمه و قشره.

و لم‌يفرغ عليه السلام مِن محاربة البدع و الفتن، حتّى يعود ليحارب الجمود و التعصب للباطل و التحريف بسائر أشكاله و مظاهره.

المطلب الحادى عشر

الإجتماع فى الإسلام

جاء الدين الإسلامى الحنيف لهداية البشر و إيصالهم بإختيارهم المحمود إلى ما هو خير بالذات، فعمّ العالمَ الإسلامى نفعُه و شملهم إسعاده، أبدل جهلهم علماً، و تَظالمهم عدلا، و تَحاربهم سلماً، و تفرّقهم وحدة و إنحطاطهم نهوضاً. حوّلهم عن خرافات واهية، و أباطيل فاسدة إلى حقائق ناصعة و أحكام رائعة و حِكم بالغة، ملؤها العلوم الجمّة، و المعارف المهمة، إختط لهم فيها سبل الحياة الهانئة و طرق السعادة الخالدة، فكان ذلک هو الهدف الفرد للدين و الغرض الوحيد الذى جاء مِن أجله، و لم‌يكن حكم من أحكامه خالياً عن مصلحة تُسعدنا أو عظة ترشدنا أو عبرة توقظنا و تهدينا.

أجل، ما تركنا الله سبحانه هملاً نتخبط دياجير الجهالة، و نتعثّر فى ميادين الحياة حيارى هائمين، بل وضع لنا قانوناً محكماً، و سنَّ لنا نظاماً قيماً، أودعه لطائف الحِكم، و دقائق الأسرار التى لايعقلها إلا أولوا الألباب و أرباب البصائر، فكان ذلک دستور معالم الحضارة العالية، و نبراس العيش الراقى النضير، بل الذريعة المُثلى لكل خير فى الدنيا و العقبى؛ و ذلک لأن الاسلام دين الفطرة الإنسانية المرتكزة على الروح و البدن، و الإنسان مدنى بالطبع و إجتماعى بالفطرة. فلم‌يكن غرض الإسلام من الإجتماع و الأخلاق و التربية و التعليم و الإقتصاد و غيرها دنيوياً و مادياً محضاً و لم‌يكن أخروياً و معنوياً محضاً، و انما كان غرضه منها أخرويا و دنيوياً معاً فهو

يرمى إلى إعداد المرء و المجتمع لِعَمَلَيِ الدنيا و الآخرة : كمتلازمين فى شريعة الإسلام.

و فى القرآن الكريم و السنة النبوية ﷺ ما ينبه على ذلک، قال الله تعالى: « وَ ابتَغِ فِى ما آتاکَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَ لاتَنسَ نَصِيبَکَ مِن الدُّنيَا» (القصص/٧٧) و قال تعالى: « قُل مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أخرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِن الرَّزقِ» (الاعراف/٣٢)؛ و قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه الإمام الحسن‌بن‌على عليه السلام، « إعمل لدنياک كأنک تعيش أبداً، و اعمل لآخرتک كأنک تموت غداً»، و قال ﷺ أيضاً: « ليس خيركم من ترک الدنيا للآخرة و لا الآخرة للدنيا و لكن خيركم من أخذ من هذه و هذه»، و قال ﷺ: « الدنيا مزرعة الآخرة.»

المبادىء و المناهج

لمّا كان القرآن و السنة عند المسلمين منبع الدين و أساس العلوم الإسلامية التى هى عناصر الفلسفة الاسلامية، جعلوهما أصلا فى علوم الإجتماع و الإقتصاد و التربية و التعليم و الأخلاق و الحقوق و النفس و غيرها و بذلک أصبحت الروابط الإجتماعية الإسلامية بين الآحاد فى العصور التأريخية أروع و أقوى من جميع روابط الإجتماعات التى نازَعتها الحياة، و كانت تلک الروابط تستمدّ وجودها مِن أعلى المبادئ الإجتماعية التى جاء بها كتاب الله المعجز الخالد، و بها أحدث الاسلام تكافلا عاماً بين الشعوب الاسلامية، يقوم مقام التزاحم الحيوانى بينها. و على هذا الأساس وضع علماء المسلمين الفلسفة الإسلاميه، و فيها قالوا: " « فلسفة الإجتماع» فلسفة عملية تؤدّى إلى معرفة مناهج العمل بكل ما يصلح أحوال الإنسان فى معاشه و معاده و يوصله إلى كماله الممكن، و غايتها، المدنية الفاضلة و التمدن القائم على قانون العدل و الفضيلة المؤدى إلى الخير الكامل الشامل، و يدبّره العقل السليم المجرّد عن شوائب الأوهام، بإستخدامه القوى النفسية الخاضعة لسلطانه المعبر عنه بالعقل الإجتماعى، و هو يبحث عن بواطن الأشياء و حقائق وسائل السعادة، و تدفعه الفطرة الطبيعية و غريزة الشعور الدينى نحو التفكير فى مبدء حياة الإنسان و البحث عن مبدئها و مصدرها و أسباب تكوّنها و وجودها و مصيرها، و الحالة التى هى عليها، و عن شؤون سعادته الإجتماعية و أسبابها."

و من الواضح أن الإسلام دين الإجتماع و لقد نظم بتعاليمه السامية علاقة الإنسان بالخالق و الخلق، و مزج بين مصالح الآخرة و الدنيا و هذّب الأخلاق و صان الحقوق و لم‌يترک صغيرة

و لا كبيرة إلا أحصاها، و أفاض على الناس من نور تشريعه ما لم‌ينزّل مِثله على سائر الأنبياء ﷺ اذ إستقصى الشؤون الإجتماعية العامة على جانب الشؤون الفردية و شؤون الآخرة، و لقد أوضح أن البشر انما خُلق لغاية سامية هى عبادة مُبدع الكائنات وحده. و العبادة إما اعتقادية عقلية كالإيمان بالله و برسوله و بالمعاد، أو روحية و بدنية، كالصلوة و الصوم، أو مالية كالزكاة و الخمس، او مركبة من مالىّ و بدنى كالحج و الجهاد، و العبادات لاتقام على وجهها إلا بوسائل هى صحة الفكر و سلامة البدن و ذات اليد. و لهذه الوسائل، وسائل تسبقها كالزراعة و الصناعة و التفقه فى الدين و بعض العلوم النظرية كالمنطق أو الكونية كالطب. و ليس فى استطاعة الفرد أو الرهط من الناس الإستقلال بهذه الوسائل، فإحتاج الناس بمقتضى فطرتهم و ما خلقوا من أجلِه إلى التعارف و التعاون، و لا تعارف و لا تعاون إلا بالإجتماع.

فالإجتماع هو الذى تقتضيه الفطرة و به تنتظم العلوم و تبلغ المدنية الفاضلة أشدها فيتهيّأ للناس أن‌يعبدوا الله على بصيرة، و يتقربوا اليه بضروب من الأعمال الصالحة لاتُحصَى، و يظهر إيثار الاسلام للإجتماع على العزلة فى كثير من الأحكام و الآداب، فانظر إلى ما دَعى اليه علَى وجه التأكيد من إقامة الصلوات الخمس اليومية فى جماعة، و فيهـا مِن إستعراض جميع المسلمين فى كل يوم خمس مرات، حيث يرى الصف القصير نفسه فى نظام صفوف مئات ملايين المسلمين متوجهين إلى القبلة و هى بقعة أشرقت منها شمس الهداية المحمّدية ﷺ و انبثقت أنوارها فأفاضت على العالمين رشاداً و إسعاداً و سؤدداً، و كذلک المنفرد يحس بالعزة و بقوة معنوية من مشاركته مع مئات الملايين فى الإتجاه نحو الكعبة المعظّمة.

و من أهم فوائد الجماعة التعوّد على آداب النظام و التنافس بالتسابق – لا بالتدافع – و التضحية و إنكار الذات و الدفاع عن المبدء الدينى و الثغور.

ثم ما فرضه من الإجتماع العام لصلاة يوم من الاسبوع، و هى « صلاة الجمُعة» التى هى عبادة عظيمة و مِن أجلَى مظاهر الدين و شعائره، و أوضح معالمه الإجتماعية، فيجتمع جميع المكلفين من مسلمى البلد من كل صوب و أوب، ليكون ذلک أنموذجاً حسناً لإجتماعات الامّة المحمّدية التى مآلها كل خير و صلاح، و مرماها كل نفع عام، فإن الإجتماع روح التآلف و التضامن، و رأس التعاضد و التكاتف، و هو إشارة مُثلى بلسان العمل الجوهرى، بأن قوام الاصلاح لشؤننا الحيوية و ملاک النجاة و السعادة لنا فى معترک هذه الحياة إجتماعات صحيحة رائدها الإخلاص،

مضافاً إلى الخطبة التى أوجبها الشارع قبل الشروع فى صلاة الجمعة، فإنها تَجلِى ما على القلوب مِن صدأ، و تروى ما بها من ظمأ، بآيات التذكير و عبارات الإرشاد، و المؤمنون جاثّون على ركبهم مطرقون برؤوسهم، منصتون هادؤون، كأنَّ على رؤوسهم الطير، لعلمهم أن ما يلقيه اليه خطيبهم و ما يحضهم به على الاستمساک بأحكام الله و الجرى على سننها و القيام بالأعمال الشريفة النافعة، هو موافق لشريعة الرسول الأعظم ﷺ فإذا أقيمت الصلاة، وقفت الجموع الحاشدة صفوفاً مستقيمة على الفور بكل سكينة و خشوع و وقار، الأمير بجانب المأمور، و الخادم بإزاء المخدوم، و الفقير بحذاء الغنى، و الضعيف بجانب القوى، دون ميزة لبعضهم و لا أفضلية فيها بينهم، و فى ذلک تعويدهم على المساواة أمام القانون الإلهى، و فى هذا الموقف الرهيب لايجد المرء فضلا له على غيره إلا بالتقوى، فيمزق رداء الأنفة و العظمة، و ينبذ المغالاة و الكبرياء بجعله فى مستوى إخوانه فى الاسلام. و يستقبلون القبلة، و ما أعظم سرَّ استقبال الكعبة المكرمة و ما أوضح برهانَها، فقد أضحت المحور الوحيد الذى عليه مدار الجامعة الإسلامية، بل القطب الفرد الذى تلتف شعوب الائمة الاسلامية و أجناسها عليه.

و فى طوافهم حولها بفريضة الحج اظهار لهذا الأمر الخطير المعقول بمظهر المشاهد المحسوس توفيقاً و اخراجاً للحكمة المنوية من حيز القوة إلى حيز الفعل.

و كذلک شرّع الإسلام لِـيَـومَى عيد الفطر و عيد الاضحى، صلاةً تؤدَّى فى جماعة، و توصل بخطبة وعظ و إرشاد، و يجتمع جميع المكلفين من مسلمِى البلد و ضواحيه و نواحيه من كل صوب و أوب لأداء صلاة العيد.

و أخيراً قرر الاسلام إنعقاد مُؤتمر سَنوىّ عام للمسلمين فى مكة المعظمة و مشاعرها، بأن أوجب الحج على كل مستطيع من المسلمين. فإذا استطاع مسلم وجب عليه أن‌يذهب إلى حيث البيت الذى يتوجه اليه فى صلاته، و يؤدى أعمال الحج و يعظم شعائر الله فيه، و يقف على جبل وقف عليه من قبله خلائق من إخوانه المسلمين و هو عارى الجسم إلا مِن قطعتين مِن قماش يوارى بها سوئته (ثوبَى الاحرام) حاسرَ الرأس، كسير القلب، متوجهاً إلى الله بروحه و جسمه و لسانه، يلهج بالذكر و الدعاء، ليعود طاهر الروح، نقىّ القلب، قوياً على العمل و الطاعة و الجهاد فى سبيل الدعوة إلى الله.

و عيّن للحج وقتاً معلوماً فى السنة، فكان فى حكمة هذا التعيين إلتقاء أمم من بلاد و أقطار

مختلفة على صعيد واحد، ليكون فی الإمكان أنيتكون هناک مؤتمر إسلامی عام عند الحاجة، و بذلک يتهيأ للمسلمين كافة سبيل التشاور فی كيفية التغلّب على الصعوبات الإجتماعية مع العناية بسائر الشؤون الاسلامية العامة، و تزول تلک الفوارق التی قصمت ظهرَ الألفة فشتَّتها بين طوائف المسلمين و طبقاتهم.

التشريع الإجتماعی

شرّع الاسلام إقامةَ الولائم فی مثل عقد النكاح أو البناء و يوم سابع الولادة، و حثَّ على إجابة الدعوة، و دعى إلى الاجتماع فی أوقات السرور كأيام الأعياد، و دعى إلى الاجتماع فی أوقات المكاره و الشدائد، كالإجتماع لصلاة الكسوف و الإجتماع لصلاة الميت و تشييع جنازته، حتّى يكون الإجتماع مالئاً لمواطن السرور و الحزن و لايبقى للعزلة الجافية مظهر فی حال، دَعى الاسلام إلى الاجتماع و شرع للإجتماع بصورة عامة، و للإجتماع الاقتصادی بكيفية مخصوصة أحكاماً عادلة و آداباً فاضلة و حقوقاً متبادلة متكافئة كالحث على القرض الحسَن و المهاداة و قضاء الحاجات و الإحسان و الصدقات، مضافاً إلى تشريع الزكاة و الخمس و الكفارات و سائر الحقوق الشرعية التی تستهدف القضاء على الفقر و إزالة الحاجة عن المجتمع الإسلامی، و مضافاً إلى تحريم الرباء و الميسر، و وضع كفارات و عقوبات الإعتداء على الأنفس و الأموال و الأعراض، إلى ما يشاكل هذا من الاحكام و النظم الأساسية و الآداب التی تحمی الاجتماع من كل نقيصة و تجعله مصدر خير و سعادة، و عالج بها مشكلة الفقر التی هزّت الأمم و العالم، فأصبح نظام الاقتصاد الإسلامی معجزة كافية لمعالجة الفقر و ما يتبعه من الجهل و المرض.

و نظم الإسلام للمرء حياته من بدء تكوّنه إلى حين وفاته، حتّى لقد دخل مع الرجل بيته و حكم بينه و بين زوجته و بيَّن ما له عليها و ما لها عليه و فصل فيما عسى أنيقع بينهما من الخصومات، بل حكم بينه و بين نفسه. ثم لميدَعه بعد وفاته، فقسم ميراثه و بيَّن طرق تكفينه و دفنه إلى غير ذلک مما ينتظم به شؤون الأفراد و الجماعات، و يُهَيِّء للمسلم أنيعيش عيشة راضية. و حيث أنه تشريع إلهی فالعمل به طاعة مستوجبة للثواب، و مخالفته معصية متوعّد عليها بالعقاب الأخروی، زيادة على ما تقرر فيه من عقوبات دنيوية؛ و لا غرو، فقد شرعه الله لعباده و هو أعلم بحاجاتهم من أنفسهم.

و فی الختام ینبغی التنبیه علی ما قرره علم الإجتماع من أن للشعوب کما للأفراد جسما و روحاً، فجسم الشَّعب هو عبارة عن هیئة الافراد التی یطلق علیها اسمه، و أما الروح فتتکوَّن مِن و حدة المشاعر و المنافع المشترکة و المعتقدات العامة. و متی تم للأمة ذلک تبلغ ذروة مجدها و بالعکس فإنها تسقط و تنهار متی تحلل و تلاشی، و إنّ وحدة المشاعر فی کل أمة هی اشتراک أفرادها فی مجموع الصفات التی تتکون منها الصفة العامة، و التی یعبر عنها بخُلق الأمّة و بعبارة أخری، یتکون المثال الوسط الذی یمکن اتخاذه عنواناً لها، إلا أن هذا الإشتراک یحتاج إلی زمن طویل.

و یعتقد علماء الإجتماع أن الخُلق شبیه بالعنصر الثابت لکل نوع من أنواع الکائنات، فخُلق کل أمة هو علة تطورها فی حیاتها و هو یقرر مستقبلها، و أما التأثیر العقلی أو العلمی فضعیف علی تفاوت فیه، و لقد کان العرب المسلمون أیام سقوطهم ذوی عقول و علوم أرقی من عقول أجدادهم القاهرین، و لکنهم سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقیة الإسلامیة التی کانت هی السبب فی عظمة آبائهم الأولین. فأضاعوا الجد و المثابرة و العزیمة الصادقة و الجَلد الذی لایعرف الوهن، و فقدوا المقدرة علی التفانی فی نصرة الحق و أضاعوا الصلوة و سائر العبادات الإسلامیة التی یتجلی فیها توحید المشاعر و وحدة الروح العامل فی أجلی مظاهرها. فالصلوة و حدها اذا أقیمت کما أمر الله تعالی بها مع معرفة مزایاها و العلم بأسرارها و التنبه للجهات الروحیة و المعنویة فیها، مِن أکبر العوامل لهذا التوحید و هذه الوحدة، و لذلک صارت عمود الدین و معراج المؤمن، إن قُبلت قُبل ما سواها و إن رُدّت رُدّ ما سواها.

و یؤید هذا الموضوع ما قرر فی علم الإجتماع من أن الدین أفعل العوامل الإجتماعیة فی بناء الجماعات و تنظیمها، و أنه کبطل الروایة فی کل فصل فیها، فللدین أدوار عظیمة الشأن منذ نشوء الجماعات البشریة إلی الیوم. فإن قوة الشعب أو الأمة أو المجموعة البشریة لایمکن أن‌تجتمع فی شکل تام کامل مادامت الجماعات غیر تامة الإندماج و لایحصل الإندماج المطلوب إلا بقوة ذات الحق الإلهی، و هی قوة الدین.

و من مقررات علم الإجتماع أن الأنظمة الإجتماعیة التی تعدّ أجهزة الجسم الإجتماعی ترجع إلی سلسلتین رئیسیّتین، الواحدة واسطةٌ و هی الدین و الجندیة، و الحق الأدبی فی القضاء، و الاخری، غایة و هی العلم و السیاسة و الإقتصاد. فالدین کان واسطة لنشوء العلم، فما الفلسفة

التی هی خلاصة العلم، إلا الدین الإلهی مجرداً من الخرافات البشریة. و قد ترقّت السیاسة علی کتف العلم مستعیناً بالجندیة. ثم یقوم الإقتصاد علی عاتِقَی السیاسة و العلم معتصماً بالقوانین و مستنصراً بالقضاء الذی هـــو الحق الأدبی. و یجب إکساء هذه الأنظمة الإجتماعیة الرئیسیة بکساء المشورة العامة و مدلول هذه المشورة هو الإتکاء علی الرأی العام.

و قد إهتم التشریع الإسلامی بهاتَین السلسلتَین؛ و عظم إهتمامه بالقضاء لأنه أساس نظام الإجتماع و عماد الأمن و العدل الإجتماعی و أکّد اهتمامه بالمشورة فقال الله تعالی: «وَ أمرُهُم شُورَی بَینَهُم» (الشوری/۳۸) و قال تعالی مخاطِباً رسوله ﷺ: « وَ شَاوِرهُم فِی الأمرِ» (آل عمران/۱۵۹).

المطلب الثانى عشر

الإجتهاد و التقليد فى القرآن و السنة

قال الله – عزّ و جلّ–: « وَ مَا كانَ المُؤمِنونَ لِيَنفِروا كافَّةً فَلَولانَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مِنهُم طائِفَة لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَ لِيُنذِروا قَومَهُم اذا رَجَعُوا اليهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُونَ.» (توبة/١٢٢)، أى ليس للمؤمنين أن‌ينفروا كلُّهم و هلّا نفرَ من كل فرقة جماعةٌ ليتفقهوا فى الدين، يعنى يتعلمون القرآن و السنن و الفرائض و الأحكام الشرعية، لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم، أى يُعلّموهم القرآن و الأحكام الشرعية و يخوّفوهم لعلهم يحذرون فلايعملون بخلافه.

ففى الآية الشريفة، يطلب الله تعالى حذرهم أى خوفهم عن ركوب المحارم و ترک الفرائض لوضوح أن التَرجِّى المدلول عليه بكلمة « لعلّ» ممتنع فى حقّه تعالى لأن الرجاء متضمن للجهل و الشک فى حصوله، فيمتنع على عالِم الغيب و الشهادة، و أقرب المجازات طلب المرجوّ من باب المجاز بالإستعارة، أو مِن باب المجاز المرسل، تسمية للازم بإسم الملزوم بتقريب أن الترجِّى المتضمن للطمع، يستلزم محبوبية المَرجوّ و المحبوبية يستلزم المطلوبية، فالترجى يستلزم الطلب، و أمثال هذه العلاقة معتبرة عند أهل اللسان و إنخَفى وجه اعتبارها على بعض الأعـلام، فالتجأ إلى دقّة مزعومة لا طائل تحتها؛ فحق عليه القول المشهور، « الجواد قد يكبوا و الصارم قد ينبوا».

ثمّ إنّ فى المقام و نظائره قاعـدة كلية و هى أنّ جميع الأعراض النفسانية أعنى الرحمة و

الفرح و السرور و الغضب و الحياء و الغيرة و المكر و الخداع و التكبر و الإستهزاء و الترجى و التندم، لها أوائل و لها غايات، و مثاله الغضب، فإن أوّله غليان دم القلب و غايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه. فلفظ الغضب فى حقّه تعالى لايحمل على أوله الذى هو غليان دم القلب، بل يحمل على غايته التى هى إرادة الإضرار، و أيضاً الحياء له أول و هو إنكسار يحصل فى النفس، و له غرض و هو ترک الفعل، فلفظ الحياء فى حق الله تعالى يحمل على ترک الفعل لا على إنكسار النفس. و هكذا يتمشى القول فى لفظ الترجى فيحمل فى حقه تعالى على محبوبية المرجو و طلبِه.

و بهذه القاعدة الشريفة يستغنى عن كثير مما قيل فى هذا المقام. و لأجل مثل هذا السبب قال المفسرون انّ كلمة لولا التندمية فى الآية الشريفة بمعنى هلّا، و هى للتحضيض إذا دخلت على الفعل و التحضيض هو الحثّ على الفعل و طلبه، و اللام فى قوله تعالى « ليتفقهوا» للغاية و كذلک اللام فى قوله تعالى « لينذروا»، فتدل على أن الغاية المطلوبة من النفر الواجب، انما هو التفقه و الإنذار، فيثبت بالآية الكريمة وجوب النفر و وجوب التفقه و الإنذار على النافر و وجوب الحذر على المتخلف. فإنه إذا وجب ذو الغاية وجب الغاية لكونه مقدمة لها، و غاية الواجب لايكون إلا واجباً اذا كان من الأفعال الإختيارية، فليست الآية مخصوصة بالجهاد و إن وردت فى سياق آيات الجهاد، نظير آية التطهير الواردة فى سياق آيات نساء النبى ﷺ و ليست منها، بل الظاهر أن المراد من الآية بشهادة الجمع بين ما ورد فى تفسيرها و بين الأخبار التى يأتى ذكرها بيان أن النفر إلى التفقه ايضاً كالنفر إلى الجهاد من الأمور المهمة الواجبة، فكأنّه تعالى قال: " ما كان للمؤمنين أن–ينفروا بأسرهم إلى الجهاد فهلا نَفَرَ من كل فرقه جماعة لتحصيل التفقه فى الدين الذى هو كالجهاد فى الوجوب عليهم".

و الإطلاق فى الآية وارد فى مقام البيان، فإن مقتضى الأصل فى كل مطلق واردٍ فى الشرع، حملُه على كونه فى مقام بيان تمام المراد، حتّى يثبت الدليل على خلافه و مدركه أصالةُ الحقيقة فى الخطابات الشرعية، فإن حملها على بيان بعض المراد يوجب التجوُّز فيها.

و ليس فى مقام الإهمال كما تُوُهِّم، و المقصود من الآية بحسب الظاهر وجوب تعلم الأحكام الواقعية و بعث المكلفين على العمل بما علموه و فهموه من الأحكام، و حيث أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمنين و متعلق بهم، و هذا الإتصاف انما يتحقق بعد علمهم بأصول الإيمان، فلا

وجه لإحتمال امکان حمل التفقه فیها علی التفقه فی أصول الدین و الایمان التی یعتبر فیها العلم و الیقین لغرض تخصیص الحذر بصورة عـلم المقلّد بصدق المفتی فی الفروع أیضاً، و لذا شاع عند فقهائنا التمسک بهذه الآیة علی وجوب الإفتاء و الإستفتاء و الإجتهاد و التقلید، بل صرّح بعضهم بتَعیُّن حملها علیه دون مجرد نقل الأخبار، بشهادة مادة الإنذار. و ان الغرض من الآیة و أمثالها تعلُّم الأحکام الدینیة و تحصیل ملکة استنباطها من الکتاب و السنة و الأدلة المستخرجة منها ثم تبلیغها بطریق الإفتاء إلی غیر العالِمین، و یجب علیهم القبول مع رعایة ما سَنُبیّنه فی مباحث الشروط المعتبرة فی المجتهد و تأسیس الأصل فی مشکوک الحجیة، لیحکم فی موارد الشک فی وجـود الطریق الشرعی أو فی طریقیة الموجود بما یقتضیه الأصل من عدم الحجیة.

ثم إن فی الآیة الشریفـة إشعاراً بأن خیر الوسائل لإستفادة العلم و أقوم السبل إلی ذلک هو التلقّی من العالِم مُشافَهةً، و لنیکون ذلک إلا بإنتشار الرحلات العلمیة و کثرتها، و لمینل القدماء تلک الدرجات السامیة إلا بإرتحالهم و ملاقاتهم أقطاب العلم فی مختلف البلدان و مدارستهم لهم و مناقشتهم إیاهم، فالتلقّی یفید ما لاتفیده المطالعة المجردة، إذ هو أفعل فی شحذ الذهن و إیقاظ الفکر، و أقرب توصیلا للمراد، و أبعدُ عن الإبهام و الإحتمال، إذ یسهل للمتلقی استفسار عما یعزب عنه و لایُحتاج معه إلی دراسة المبادئ و الإصطلاحات التی تختلف بإختلاف المؤلفین و التی یقطع الطالب فی دراستها وقتا طویلاً، و حصول الملکات عن المباشرة و التلقین أشد إستحکاماً و رسوخاً، فعلی قدر کثرة الدراسة مِن مَهَرَةِ الأساتذة یکون حصولُ الملکات و رسوخها.

و تؤیّده آیة السؤال[1] و یؤیّده أیضاً ما رواه عبدالمؤمن الأنصاری قال: "قلت لأبی عبد الله علیه السلام: إنّ قوماً یروون انّ رسول الله صلی الله علیه و آله قال: «إختلاف أمتی رحمة»، فقال علیه السلام : «فبإجتماعهم عذاب»؟، قال علیه السلام : «لیس حیث تذهب و ذهبوا، إنما أراد صلی الله علیه و آله قولَه تعالی: «فَلَولا نَفَرَ مِن کُلِّ فِرقَةٍ مِنهُم طائِفَة لِیَتَفَقَّهُوا فِی الدِّینِ وَ لِیُنذِروا قَومَهُم اذا رَجَعُوا الیهِم لَعَلَّهُم یَحذَرونَ»، فأمرهم أنینفروا إلی رسول الله صلی الله علیه و آله فیتعلموا ثم یرجعوا إلی قومهم فیعلّموهم، إنما أراد صلی الله علیه و آله إختلافهم من البلدان، لا إختلافاً فی دین الله، إنما الدین واحد.»

و الحاصل أن القرآن أسس ما عبّر عنه فی عرف المتشرعة بالإجتهاد و التقلید، و جاء هذا

۱. «فاسئلوا اهل الذکر ان کنتم لاتعلمون». النحل/۴۳.

التأسيس مطابقاً لناموس الفطرة و العقل و الطبيعة كسائر التشريعات الاسلامية، لما قرّرناه فى المطالب المارّ ذكرُها مِن أنّ الاسلام دين عام خالد متكفل لكل مصالح البشر من أخروية و دنيوية، و قد استهدف فى تشريعاته السعادة المزدوجة العامة من دون عسر أو حَرج، فلو وجب التفقه على الجميع إختلّت أمور معاشهم، و إلا إختل أمر معادهم، فأصبح توزيع الأعمال لازماً، و وجب التفقه على جماعة من كل قبيلة لكى ينفسحَ المجال أمام من سوى الجماعة مِن القبيلة أنيشتغلوا بمصالح المعاش و بالأعمال الفردية و الإجتماعية الموجبة لسعادتهم الدنيوية التى هى أيضاً واجبات كفائية. و وجب على الفقهاء الإفتاء و الإنذار و تعليم أولئک المشتغلين بأمور المعاش و تأمين سعادتهم الأخروية أيضاً، كما وجبت عليهم حقوق شرعية فى أرباح أموالهم يدفعونها للمشتغلين بالتفقه و تحصيل العلم و لسائر الفقراء لتأمين سعادتهم الدنيوية.

و هذا الأساس الذى أسسه القرآن الكريم و شيده رسول الله ﷺ أمر ضرورى متفق عليه من جميع المسلمين و جميع العقلاء و لايستدعى البحث و العناية الزائدة إلا فى بعض الخصوصيات و العوارض و الشرائط، فلمّا بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال ﷺ: « كيف تصنع إن عرض لک قضاء؟، قال: " أقضى بما فى كتاب الله"، قال ﷺ: « فإنلميكن فى كتاب الله؟»، قال: " فَبسُنة رسول الله"، قال ﷺ: « فإن لميكن فى سنة رسول الله؟، قال: " أجتهد رأيى لا آلوا"، قال: " فضرب رسول الله ﷺ بيده على صدرى و قال ﷺ: « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لِما يرضى رسول الله لما يرضى رسول الله»؛ فَشجّعه رسول الله ﷺ على الإجتهاد لأنه لايألوا و يبذل أقصى جهوده للإستنباط عن عمومات الكتاب و السنة فى الحالات التى يتعذر أو يتعسر فيها الحصول على صريح الحكم الشرعى فى الكتاب و السنة، فالنبى ﷺ بإذنه فى هذا الإجتهاد يضرب للناس المثل، و يرسم لهم الطريق لِيحذوَ حَذوه مِن بعده، حتّى يكون الفقه الإسلامى بتفاصيله قوياً على مسايرة الزمن و متابعة نهوض الأمم و تقرير أحكام الحوادث و المواضيع المستجدة. و من المعلوم أن تعريف القرآن للأحكام، أكثرُه كلى لا جزئى، و إجمالى لا تفصيلى، فيحتاج الوقوف على حقائقه إلى الرجوع إلى السنة المبينة له و المفسرة الشارحة لِما خفى فيه، و هذا مما شرف الله به هذه الأمة المكرمة إذ لميهمل عقولها و لميلقنها تفصيلا كما كان عليه الحال فى الأمم السابقة، و لتكون الشريعة الإسلامية عامة، و قواعدها ثابتة لايدخل عليها بعد إستقرارها نسخ و لايَعتريها تغيير، و لذلک كان النبى ﷺ فى كثير من أقواله و قضاياه

یبیّن لهم الأحکام مقرونة بعللها، فإن هذه الشریعة الإسلامیة هی خاتمة الشرائع الإلهیة، و إنّها دین الناس أجمعین إلی یوم القیامة، فأراد الله أنیعلمهم هو و رسوله ﷺ و أوصیاء رسوله ﷺ طریقة الإستنباط و یُمرّنُهم علی کیفیة أخذ الأحکام و إستنباطها من أدلتها الکلیة، فإن نصوص الدین لمتتعرّض للتفاصیل و الجزئیات، إذ کانت الحوادث لاتقف عند حدٍّ فکل زمن قدیحدث فیه لأهله من الوقائع ما لمیکن یعرفُه أهل الزمان السابق، لکن أصحاب المَلکة و القوة القدسیة من الفقهاء و المجتهدین، یستطیعون بقوة مداارکهم و ملکاتهم أنینزلوها علی عمومات الکتاب و السنة علی نحوٍ یرضی الله و رسوله، و یمکن أنیکون هذا تفسیراً لِقوله – عز و جل–: « مَا فَرَّطنا فِی الکِتابِ مِن شَیءٍ» (الانعام/۳۸) و قولِه تعالی : « وَ نَزّلنا عَلیکَ الکِتابَ تِبیاناً لِکُلِّ شَیءٍ» (النحل/۸۹) .

و صفوة الکلام، أنه کان لا بدّ لهذا الدین الإلهی العام الخالد من قانون إلهی و دستور سماوی یسایره فی البقاء و الدوام بنفسه، و هو کتاب الله المعجز الخالد أعنی القرآن الکریم الذی جاء بالناموس الأعظم لکمال الحیاتین، الدنیویة و الأخرویة، و هو کافِل لکل ما یهمّ البشر لسعادته فی دنیاه و آخرته، و سائر ما یلزم فی الحیاة الفردیة و النُظُم الإجتماعیة من علوم و أخلاق و ثقافة و تشریع. ففی التشریع الذی نظم شؤون الامة و الأمور المدنیة و الجنائیة و الأحوال الشخصیة جاء القرآن بالآیات القانونیة و هی « آیات الأحکام» التی هی الأساس الاول فی التشریع الإسلامی.

و هذه الآیات علی قِلّتها تعرّضت لجمیع ما یصدر عن المکلف من أفعال و أعمال، فتعرضت إلی العبادات من صوم و صلوة و خمس و زکاة و حج و جهاد، و إلی الأمور المدنیة کبیع و إجارة و هبة و صلح و مزارعه و مساقاة و وکالة و حوالة و ربا و نحوها، و إلی الأمور الجنائیة من قتل و سرقة و زنا و قطع طریق و نحو ذلک، و إلی نظام الأسرة و عوامل التربیة و الأحوال الشخصیة من زواج و طلاق و میراث و نحوها، و إلی الأمور الدولیة کالجهاد و علاقة المسلمین بالمحاربین و ما بینهم من عُهود و غنائم الحرب و ما إلی ذلک. و القرآن بهذه الآیات القانونیة و سائر آیاته الواردة فی الآداب و الأخلاق و الإجتماع، قرّر القوانین الکلیة و الأصول الأولیة حتّی تکون فی نص القانون سعة بحیث یمکن أنیطبق علی ما یجد من حاجات و یحدث من جزئیات، مفوّضاً بیانها إلی رسول الله ﷺ بقوله تعالی: « وَ أنزَلنا إلیکَ الذِّکرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما

نُزِّلَ إلَيهِم» (النحل/۴۴)، فسنة رسول الله ﷺ و خلفائه الأئمة المعصومين ﷺ نور مقتبس من نور كتاب الله الكريم، ظهرت بها تفاصيل ما جاء فى القرآن الكريم، من ناحية مُحكمه و متشابهه و مُجمله و مبيَّنه و عمومه و خصوصه و مُطلقه و مقيّده و ناسخه و منسوخه، و تاركاً تخريج أحكام الجزئيات فى زمن الغيبة لإجتهاد المجتهدين المستجمعين لشرائط الإفتاء، يستنبطونها من كتاب الله و سنة رسوله ﷺ و خلفائه الأئمة الطاهرين ﷺ، و ما يلحق بهما من أدلة الأحكام الشرعية. فيَجب أنيكون باب الإجتهاد فى الفقه الإسلامى مفتوحاً دائماً لِمن تتوفّر فيهم شروطه من المجتهدين و علماء الدين الحائزين لملكة الإستنباط، و ذلک لأن الفقه الإسلامى قانون عام وضع للناس كافة فى كل زمان و مكان، فلا بد أنتتقبل نصوصه المصالح المختلفة، و يكون لوُلاة الأمور من المجتهدين الذين يتولون فى عصر الغيبة، تعيينُ الأحكام الشرعية و الوظائف العملية بالإستنباط عنها سعة، و ذلک هو المثل الأعلى للتشريع الذى يراد به أنيكون شرعة لجميع الأمم فى مختلف العصور إلى آخر الدنيا.

فاتّضح أن الإجتهاد فى الفقه الإسلامى من لوازم هذا الدين، و سدُّ بابه مُناقض لأغراض الإسلام الجوهرية فى زمن الغيبة الذى لميبق فيه طريق لمعرفة أحكام الله تعالى سوى الرجوع إلى كتاب الله المجيد و السنة الشريفة، و حيث لايمكن أنيكلّف به جميع المكلفين لكى لايختل النظام فى المعاش و المعاد، لاجرَم صار الناس على صِنفيَن، فَصِنفٌ على عُهدته تعيين الأحكام الشرعية و إستنباطها من الأدلة الدينية، و صنفٌ على عهدته سائر الأمور التى تتوقف عليها إستقامة النظام الدنيوى، و الثانى يرجع إلى الأول فى أخذ الأحكام المتعلقة به. فالأول هو المجتهد، و الثانى هو المقلِّد، و هذه سنة الله تعالى فى عباده و بلاده، هذا مضافاً إلى إستقلال العقل به، و هذا لايختص به أهل ملّةٍ بل هو جارٍ فى جميع الملل و الأديان، و ذلک لأن تقليد الجاهل فى كل أمر من العالِم أمرٌ فطرى و طبعىّ مرتكز فى نفوس العقلاء حتّى صار من سيرتهم رجوع الجاهل إلى العالِم فى جميع الأمور.

و الإسلام كما أقرّ المعاملات المتعارفة عند البشر فأحل البيع و التجارة، و لأجل المنع من إرتكاز الثروة حرّم الرباء و عدّل نظام المعاوضات بإعادتها إلى حقائقها المنحرفة بالتسامح العرفى خلال الأزمنة المتكاثرة، و بذلک نشطت الحركات الإقتصادية و العمرانية؛ كذلک أقر الأحكام العقلية و العرفية التى جَرت سيرةُ البشر على طبقها، كقاعدة رجوع الجاهل بالشىء إلى

العالم به، و مِن مصادیقه تقلید العامی من المجتهد فیما لایعلمه من الأحکام الشرعیة، و عدّل نظام التقلید بإعتباره الإجتهاد الحقیقی المرتکز علی الملکة الراسخة و قوة الإستنباط فی مرجع التقلید، و إشتراطه حیاة ذلک المجتهد فی حین إبتداء التقلید کما یستفاد من مادة السؤال فی قوله تعالی، « فَاسئَلُوا أهلَ الذِّکرِ إن کُنتُم لاتَعلَمُونَ» (النحل/۴۳)، و من الواضح أن الإلتزام بتقلید الحَیّ فی کل عصر، یبعث نشاطاً عاماً و إهتماماً تاماً بالدین فی کل جیل و لاینطبق أهل الذکر إلا علی أصحاب الملکة الراسخة و قوة الإستنباط القدسیة فلاینبغی الریب فی إنقسام المکلف إلی قسمین، مجتهدٍ و مقلِّدٍ، و وجوبِ رجوع الثانی فی معرفة أحکامه إلی الأول، و من أنکر ذلک بلسانه فهو مذعن به فی جنانه، و من جحده فی قوله فهو مصدِّق له فی فعله. نعم هنا قسم ثالث و هو تارک الطریقین و العامل بالإحتیاط، و هذا و إن کان الحق صحة أعماله و صحة عباداته حتّی اذا استلزم التکرار، و لکن ذلک لایستغنی به عن الإجتهاد و التقلید لمعرفة موارد الإحتیاط، فقد یکون الإحتیاط فی ترک الإحتیاط، و قد یتعارض الإحتیاطان، فلا بد من الترجیح. هذا مضافاً إلی ما فیه من العسر التام و الحرج الشدید علی المکلفین، کما لایخفی علی الخبیر و الله سبحانه ولی التوفیق.

فائدة مهمة فی بیان الولایة

إعلم أن مِن البَدهیّ الواضح أنّ سلطان الخالق المتعال – جلت قدرته– علی مخلوقاته أسمَی أنواعِ السلطنة و أعلی أقسام الولایة، و قد أُشتُقَّت من هذه الولایة الإلهیة و السلطنة الربوبیة ولایة النبی ﷺ و هی المنوّه بها فی قوله تعالی: « النَّبِیُّ أولَی بِالمُؤمِنِینَ مِن أنفُسِهِم» (الاحزاب/۶) ، ثم أشتقت من هذه الولایة النبویة ولایة الإمام علیه السلام و الیها أشار النبی ﷺ فی حدیث الغدیر المروی بالطرق الصحیحة المتواترة فی کتب الفریقین، فلقد مَهّد رسول الله ﷺ لولایة الإمام المنصوب من الله تعالی بقوله: « الست أولی بکم من أنفسکم؟»، قالوا: " بلی"، فقال ﷺ: « مَن کنت مولاه فهذا علی مولاه ...»، لِکی‌یکون هذا التمهید قرینةً قطعیة علی أنه أراد معنی الأولی بالتصرف من کلمة « المولی»، و بذلک أظهر أن ولایة الإمام علیه السلام فرعٌ لولایة النبی ﷺ و مرتبة من مراتبها، و إمتداد لولایة الرسالة الإلهیة، و هذه الولایة أصل المذهب و دِعامته التی بُنیَ علیها، قال الله تعالی: « أطِیعُوا اللهَ و أطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أولِی الأمرِ مِنکُم» (النساء/۵۹).

فَظهر أن الولاية من جانب الله – عز و جل– على عبادِه ثابتة لرسوله ﷺ و خلفائه الأوصياء المعصومين ﷺ، و أنهم سلاطين الأنام و هم الملوک و الولاة و الأولياء و الحكّام، و بيدهم أزمّة الأمور، و سائر الناس رعاياهم و المولَّى عليهم، و أما غير الرسول و أوصيائه فلا شكّ فی أنّ الأصل عدم ثبوت ولاية أحدٍ على أحد إلا مَن ولّاه الله تعالى أو رسوله أو أحدٌ مِن أوصيائه على أحدٍ فی أمر، و حينئذ يكون هو ولياً على المولّى عليه فيما ولاه فيه. و الأولياء كثيرون كالفقهاء المجتهدين العدول و الآباء و الأجداد و الأوصياء و الأزواج و المَوالی، فإنهم الأولياء على العوام و الأولاد و الموصَى له و الزوجات و المماليک، و لكن ولايتهم محدودة و مقصورة على ما ثبت من وُلاة الأمر.

و المقصود فی هذا البحث هو ولاية الفقيه المجتهد الجامع لِشرائط الإفتاء و القضاء التی هی فرع مشتق من ولاية الإمام ﷺ المشتقة من ولاية النبی ﷺ المشتقة من الولاية الإلهية و السلطة الربوبية لقوله ﷺ، « فإنهم حجتی عليكم و أنا حجة الله»، و امتدادٌ لولاية الإمام فی عصر الغيبة.

و للفقيه المجتهد الجامع للشرائط، ولاية الإفتاء و ولاية القضاء و الحكم و ولاية التصرّف فی اموال اليتامی و المجانين و الغائبين و ولاية إجراء الحدود و التعزيرات فی زمن الغيبة، بلا خلاف فيها عدى الأخيرة. فقد نُقل عن الحلّی منعُها، و ظاهرُ « الشرائع» و « النافع» التردّدُ.

و بعد الإحاطة بما بينّاه من المطالب المتقدمة فی هذه المقدمة، يظهر أن الحق ثبوتها للفقيه المستجمع للشرائط، و وجوبها على مبسوط اليد من الفقهاء، و قد نُسب القول به إلى المشهور، بـل إدَّعَى بعضُهم عليه الإجماعَ فی مسألة عمل الحاكم بعلمه فی حقوق الله.

و فی رواية حفص‌بن‌غياث قال: " سألت ابا عبدالله ﷺ، مَن يُقيم الحدود السلطان أو القاضی؟، فقال ﷺ: « إقامة الحدود إلى مَن إليه الحكم»". و يظهر منها أن ولاية إقامة الحدود لمن له ولاية القضاء.

و فی رواية « ميثم» الطويلة التی رواها المشايخ الثلاثة الواردة فی حد الزنا عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال [فی دعائه]: « و إنّک قلتَ لنبيک فيما أخبرته به من دينک يا محمّد مَن عطّل حدّاً مِن حُدودی فقدعانَدنی و طلبَ بذلک مُضادَّتی، و إنی غير مُعطِّل حـدودک و لا طالبٌ مضادَّتک و لا مُضيِّعٌ أحكامَک ...»[1]؛ و يمكن الإستدلال بعمومها على ثبوت هذه الولاية

۱. المحاسن لأحمدبن محمدالبرقی، ج۲، ص۳۱۰؛ و من لايحضره الفقيه، للصدوق، ج۴، كتاب الحدود، بابُ مَا يَجِبُ بِهِ اَلتَّعْزِيرُ وَ اَلْحَدُّ

أیضاً للفقهاء فی زمن الغیبة.

و إستدلُّوا علی وجوبها علیهم مع بسط الید بإطلاقات الأوامر، و بإفضاء ترکِ إجراء الحدود إلی المفاسد، و صرّحوا بوجوب مساعدة الناس لهم.

ثم إن ما ذکر و إن کان مختصاً بالحدود، و لکن یتعدَّی إلی التعزیرات بالإجماع المرکب، مضافاً إلی أن الظاهر دخولُ التعزیرات فی الحدود.

و أما ولایة الإفتاء و ولایة القضاء، فیدل علیهما مقبولة « عمربن‌حنظلة» الذی ورد توثیقه فی الحدیث الوارد فی مواقیت الصلاة، حیث سأله علیه السلام رجل: " انّ عمر بن حنظلة قد أتانا بوقت"، فقال علیه السلام: « اذاً لایکذب علینا». و فیها، « أنظروا إلی مَن کان منکم قد روَی حدیثنا، و نظرَ فی حلالنا و حرامنا و عرَف أحکامَنا، فَلیَرضوا به حَکَماً، فإنی قد جعلتُه علیکم حاکما، فإذا حَکم بحُکمنا فلم‌یَقبل منه فإنما إستَخفَّ بحکم الله، و علینا رَدّ، و الرادّ علینا کالرادّ علی الله، و هو علی حدّ الشرک بالله».

و الإستدلال بها علیهما واضح لکل من أوتی ملکة الإستنباط و الفهم الصائب لأسالیب العربیة و أحادیث الأئمة علیهم السلام فلقد بدأ بیان أوصاف الولیّ المنصوب للإفتاء و القضاء، بمن کان راویاً لحدیثهم، للتنبیه علی أن السنة الشارحة لکتاب الله تعالی یجب أن‌تکون أساسا للنظر فی حلالهم و حرامهم لا القیاس و الإستحسان. و هذا الوصف الثانی أی النظر فی الأحکام هو عبارة عن استنباط الأحکام الشرعیة عن أدلتها التفصیلیة، أی الإجتهاد المؤدِّی إلی الوصف الثالث و هو معرفة الأحکام الإلهیة لمکان ملکة الإجتهاد و قوة الإستنباط.

و لیس المراد بالحکم خصوص ما یقع بعد الترافع لأعمّیته لغةً و عرفاً، و عدمِ ثبوت الحقیقة الشرعیة فیه، و علی تقدیر التسلیم فدلالته علی التقلید إما من باب الأولویة و إمّا لعدم القول بالفصل و إما بتوقف رفع الخصومة علی قبول فتواه و یتم بالإجماع المرکب.

و منه یظهر امکان الإستدلال بروایتی أبی‌خدیجة، لأن القضاء أیضاً بمعنی الحکم، و یدل علیه أیضاً أمر الأئمة علیهم السلام بعض أصحابهم بالإفتاء، و أمرهم الناسَ بالرجوع إلیهم. قال الصادق علیه السلام لأبانِ بن تغلب: « إجلس فی مسجد المدینة و أفتِ فی الناس، فإنی أحِبُّ أن یُری فی شیعتی مثلُک».

وَ اَلرَّجْمُ وَ اَلْقَتْلُ وَ اَلنَّفْیُ فِی اَلزِّنَا، ص۳۲. م

و يدل عليه أيضاً مفاهيم الأخبار المستفيضة الناهية عن الإفتاء بغير علم و من غير العلم بالناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه؛ و المبيِّنة لصفات المفتِي؛ و الأخبار المتكثرة المتضمنة لأن الله سبحانه لايدَعُ الأرض خالية من عالِم يعرّف الناس حلالهم و حرامهم، و لئلا يلتبس عليهم أمورهم. و الصريح فى جواز التقليد رواية الإحتجاج عن تفسير الإمام عليه السلام.

فظهر أن ولاية الفقيه الجامع للشرائط فرعٌ من فروع ولاية الإمام عليه السلام و امتدادٌ لها؛ و يؤيد الأدلة الشرعية المذكورة أن بَعد الإيمان بالله تعالى و برسوله و بالقرآن الذى أنزل عليه و بما دَعى الناس كافة إليه من الشريعة الكاملة الخالدة، و العلم إجمالا بثبوت تكاليف فى الشريعة الإسلامية، و أن الشارع نصبَ طريقاً للوصول إلى أحكامه و تكاليفه، فإنه كما يجب عليه تشريعها كذلك يجب عليه بيانها و تبليغها و لو كان بنصب طريق موصل اليه؛ تنجزَّت تلك الأحكام على المكلّف و إن لم يعرف آحادَها مفصّلة، فوجب عليه أنيعرفها بالإجتهاد أو بالتقليد، و كذلك يجب عليه أنيفحص عن الطريق الشرعى إلى أحكامه الدينية، و ليس له أنيعمل بالرواية قبل الفحص عن المعارض، و لايجوز له اجراء أصلٍ حُكميّ قبل الفحص عن الدليل، لكىلايلزم افحام الشارع؛ لأن الحاكم بوجوب إمتثال أحكام الشارع هو العقل، ضرورة إمتناع كون وجوبه شرعياً للزوم التسلسل، و ما ورد فى ذلک مما يظهر منه ايجاب الشارع للأمتثال فإنما هو ارشادى صِرف، ورد لِتأكيد حكم العقل كما هو واضح، و كون العلم بالأحكام مأخوذاً فى حكم العقل بوجوب الإمتثال، على تقدير تسليمه، أعمّ مِن التفصيلى و الإجمالى بالحكم او بطريقه، فإن العقل يستقلّ فى الحكم بعدم الفرق بين خصوصيات العلم و بأن المدار على مطلق الإنكشاف من غير تفصيل، و يحكم حينئذ بوجوب الفحص على العلماء و العوام، فكل منهم بالفحص مأمور و فى تركه غير معذور.

و الأدلة المذكورة كما تدل على ثبوت ولاية الإفتاء للفقيه الجامع للشرائط و وجوب الإفتاء عليه، كذلک تدل على وجوب التقليد على العامّيّ؛ و لكن لايجوز للعامى أن يقلد المجتهد فى هذه المسالة، لِلُزوم الدور، و لأن جواز التقليد أو وجوبَه ليس من المسائل الفرعية بل من مسائل علم الكلام، بل يجب عليه أنيجتهد فيها بنفسه و يبذل أقصى جهوده فى سبيل تحصيل القطع بوجوب التقليد عليه فى الاحكام الشرعية من دليل عقلى أو سمعى، ثم يعمل بقطعه ببذل الجهد التام فى تعيين الفقيه الذى يقلّده مِن بين الفقهاء، و تحصيل العلم و اليقين بأهليّته لذلک، فإن

تشخیص المرجع الدینی من مزالّ الاقدام.

و مورد الإفتاء و التقلید، المسائل الشرعیة الفرعیة و الموضوعات الاستنباطیة، مِن حیث تَرتُّبِ حکمٍ فرعی علیها، و أما الحکومة الشرعیة، فللفقیه الجامع لشرائط الفتوی و القضاء، الحکمُ بما یراه حقاً فی المرافعات و غیرها، و علی المسلمین قبول أحکامه. قال الشهید - قدس سره- فی « القواعد»:

" قاعدة فی ضبط ما یحتاج إلی الحاکم: کل قضیة وقع النزاع فیها فی اثبات شیء أو نفیه أو کیفیّته، و کل أمر فیه اختلاف بین العلماء کثبوت الشفعة مع الکثرة، أو اُحتِیج فیه إلی التقویم کالأرش و تقدیر النفقات، أو إلی ضرب المدة کالإیلاء و الظهار، و بما یحتاج الیه القصاص نفساً أو طرَفاً، و الحدود و التعزیرات، و حفظ مال الغُیّاب، کالودائع و اللقطات."

و أما ولایة التصرف إستقلالاً فی الأموال و الأنفس، فلم‌یثبت للفقهاء، بدلیل عام، و لایکفی فی إثباتها لهم ما ورد فی مقبولة عمر بن حنظلة، و مشهورة أبی خدیجة، و الأحادیث المستفیضة فی شأن العلماء و الفقهاء، فإنها واردة فی مقام بیان وظیفتهم من حیث الأحکام الشرعیة، لا کونِهم کالنبی ﷺ و الأئمة علیهم السلام أولی بالناس فی أموالهم، فلا دلیل للقول بأن کل ما کان للنبی و الإمام فیه الولایة، فللفقیه أیضاً ذلک، إلا ما أخرجه الدلیل، لما حققه شیخنا الأکبر الانصاری - قدس سره-، و لکن لایمکن الموافقة علی کل ما إختاره - قدس سره- حیث قال: " فقد ظهر مما ذکرنا أن ما دلّ علیه هذه الأدلة هو ثبوت الولایة للفقیه فی الأمور التی یکون مشروعیة إیجادها فی الخارج مفروغاً عنها بحیث لو فرض عدم الفقیه کان علی الناس القیام بها کفایة، و أما ما یُشکّ فی مشروعیته کالحدود لغیر الإمام، و تزویج الصغیرة لغیر الأب و الجد، و ولایة المعاملة علی مال الغائب بالعقد علیه و فسخ العقد الخیاری عنه، و غیر ذلک، فلایثبت من تلک الأدلة مشروعیتها، بل لا بدّ للفقیه مِن إستنباط مشروعیتها من دلیل آخر، نعم الولایة علی هذه و غیرها ثابتة للإمام علیه السلام بالأدلة المتقدمة المختصة به، مثل آیة « أولی بالناس من أنفسهم»، و قد تقدم أن إثبات نیابة الفقیه عنه علیه السلام فی هذا النحو من الولایة علی الناس لیقتصر فی الخروج عنه علی ما خرج بالدلیل دونه، خرط القتاد".

و بعد الإحاطة بما أثبتناه فی ضمن المطالب المذکورة فی هذه المقدمة من أن الإسلام دین عام خالد متکفل لکل ما یحتاج الیه نوع الإنسان لسعادته فی الدنیا و الآخرة، ثم التدقیق فی

الأدلة الواردة فى شأن العلماء و الفقهاء مع رعاية ما يتطلّبه عصر الغيبة مِن الانظمة و الاحكام، لتحقيق أغراض الإسلام، يحصل الإطمئنان بأن كل فعل متعلق بأمور العباد فى دنياهم و آخرتهم إذا كان بحيث لا بدّ من إيجاده فى الخارج، و لا مناص منه،

– إما عقلا و عادة، من جهة توقف أمور المعاد أو المعاش لواحد أو جماعة أو أمة عليه، و إناطة إنتظام أمور الدين أو الدنيا به،

– أو شرعاً، من جهة ورود أمر به أو اجماع او نفى ضرر او إضرار، او عسر او حرج او فساد على مسلم او دليل آخر، او وَرد الإذن به من الشارع و ثبتت مشروعية ايجادها فى الخارج و لم‌يجعل وظيفةً لمُعيّن واحد او جماعة او لواحد لا على التعيين، بل عُلم لابُدّية الإتيان به او الإذن فيه و لم‌يُعلم المأمور به و لا المأذون فيه، فهو وظيفة الفقيه الجامع للشروط و له التصرف فيه و الإتيان به أو الاذن فيه، و الله العالم بحقائق أحكامه.

هذا ختام المقدمة أفردناها فى هذا الجزء من بقية أجزاء الكتاب لِيعمّ نفعها مختلفَ طبقات المسلمين، و يتلوه الجزءُ الثانى حافلاً بشرح مباحث التقليد و مسائل الطهارة إن شاء تعالى.

فرغَ مِن كتابته مؤلفُه الفانى عبد الكريم الزنجانى ابن الحجة الشيخ محمّد الرضا، فى النجف الاشرف يوم الغدير سنة الإحدى و الثلاثين بعد الألف و الثلاثمائة من الهجرة النبوية المقدسة و الحمد لله رب العالمين. ١٣٣١ هج

فهرس المصادر و المآخذ

فهرس المصادر الفارسية

قرآن کریم

احمدی زنجانی، شیخ زین العابدین، **علمای نامدار زنجان در قرن چهاردهم قمری به ضمیمه فرزانگان معاصر**، چ اول، قم: دارالنشراسلام، ۱۳۷۴

خان‌محمدی، یوسف، **اندیشه‌های سیاسی شیخ عبدالکریم زنجانی**،---، قم: بوستان کتاب، ۱۳۸۹

زنجانی، عبدالکریم، **ذخیرة الصالحین**، چاپ هفتم، نجف: مطبعة الغری الحدیثة،۱۳۸۳ق

------- ، **جامع المسائل در در مهمات اصول دین و مذهب وفروع دین**، چ۵ ، نجف اشرف: چاپخانه نعمان، ۱۳۷۶ق

------- ، **یگانگی اسلام یا هماهنگی مذاهب مسلمین**،---، مترجم: عطامحمد سردارنیا، نجف اشرف: چاپخانه قضاء، ۱۳۸۴ق

شکوری، ابوالفضل، **خط سوم در انقلاب مشروطیت** (پژوهشی گسترده در زندگینامه سیاسی، علمی و اجتماعی آخوندملاقربانعلی زنجانی داز رهبران نهضت مشروعه)، چاپ اول، زنجان: اداره کل فرهنگ و ارشاد اسلامی، ۱۳۷۱

فیض الاسلام، علی نقی، **ترجمه و شرح نهج البلاغه**،---، تهران: مؤلف، ۱۳۶۵

موسوی صایین قلعه‌ای، سیدابراهیم، **تاریخ زنجان: علما و دانشمندان**، چاپ اول، تهران: کتابفروشی مصطفوی،۱۳۹۲ق

مهران‌فر، علی‌رضا، **زندگانی و اندیشه‌های مصلح بزرگ آیت الله شیخ عبدالکریم زنجانی**، چ۱، زنجان: انتشارات دانش، ۱۳۹۰

نیرومند، کریم، **شرح زندگانی دانشمندان، روات، رجال لشگری و کشوری استان زنجان(زنگان)**، چ۱، زنجان: عود، ۱۳۸۵

نیرومند، کریم، **عرفا و حکمای استان زنجان**، چ۱، زنجان: کتاب‌فروشی ستاره، ۱۳۶۴

فهرس المصادر العربية

القرآن الكريم

نهج البلاغة

آل ثابت، سيد محمد سعيد، **الشيخ الزنجانی و الوحدة الاسلامیه: مقتطفات من حیاة و سیرة رسول الوحدة الاسلامیة آیة الله الشیخ عبدالکریم الزنجانی النجفی**، الطبعة الاولی، طهران: المجمع العالمی للتقریب بین المذاهب الاسلامیة، ۱۴۲۷ق و ۲۰۰۶ م ،۱۳۸۴ش

الدفتر، محمدهادی، **صفحة من رحلة الامام الزنجانی و خُطَبه فی الاقطار العربیة و العواصم الاسلامیة»**، ط الثالثة، بیروت: موسسه نعمان، ۱۴۱۷ق ۱۹۹۶–م

الزنجانی، عبدالکریم، **ابن سینا خالد باثاره و خصاله**، ط الثانیة، نجف: مطبعه الغری الحدیثة، ۱۳۷۵ق/۱۹۵۶م

------ ، **الاعداد الروحی للجهاد الاسلامی فی فلسطین**، الطبعه الاولی، نجف: مطبعة الغری الحدیثة، ۱۳۸۷ق

------ ، **دروس الفلسفة**، ط الثانیة، نجف: مطبعة الغری الحدیثة، ۱۳۸۲ق/۱۹۶۲م

------ ، **الفقه الارقی فی شرح العروة الوثقی**، الجزء الاول، ط الثالثة، نجف: مطبعة الغری الحدیثة، ۱۳۸۸ق (ط۲، ۱۳۸۰ق، ط۱ ۱۳۳۵ق)

------ ، **الوحدة الاسلامية او التقريب بين مذاهب المسلمين** ط۲، بغداد: مطبعة المعارف، ۱۳۸۴ق/۱۹۶۵م

الزنجانی، الشیخ موسی(ت۱۲۸۸ق)، **الفهرست لمشاهیر و علماء زنجان**، ط۱، قم: آل عبا، ۱۳۸۰ش

الطریحی، فخرالدین، **مجمع البحرین و مطلع النیرین**، ط۲، تهران: مرتضوی. ۱۳۶۵ش

علوان الدرویش، عبدالحسین، **الدور الاعلامی للامام عبدالکریم الزنجانی فی الدعوة الی الوحدة الاسلامیة**، ط الاولی، بغداد: دارالامورالثقافیة العامة،۲۰۱۱م،

الفیومی، احمدبن محمدبن علی المقری، **المصباح المنیر فی غریب الشرح الکبیر للرافعی**، قم: دارالهجرة، ۱۴۰۵ق

محمدالجزایری، محمدجوادجاسم ، **الشیخ عبدالکریم الزنجانی**، دراسة تاریخیة، ط۱، بیروت: جواثا،۱۴۳۱ق و۲۰۱۰م

المدرس الکیلانی، مرتضی، **منتخب معجم الحکماء** (انتخاب و تحشیه: منوچهر صدوقی سها)، چاپ اول، تهران، مؤسسه پژوهشی حکمت و فلسفه ایران، ۱۳۸۴ش.

معلوف الیسوعی، لوییس، المنجد، تهران: اسماعیلیان، ۱۳۶۷

الضمائم

صورة زنكغرافية لسند الاجازة العالية الصادرة من آية الله اليزدى فى سنة ١٣٣٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اكرم العلماء وجعلهم ورثة الأنبياء والصلوة والسلام على سيد الرسل والأولياء وعلى آله البررة الأزكياء وبعد فان افضل ما اشتغل العلم بدارسته وذكره وتعليمه ونشره واعلاء شان حملته وتنزيل كل فى منزلته ولما كان العالم الفاضل والمجتهد التقى العادل جامع المعقول والمنقول الشيخ ميرزا عبد الكريم الزنجانى ادام الله بركات وجوده ممن طالت معه المعاشرة وكثرت المحاورة والمذاكرة فارتقفنا منه على علم كثير وفضل غزير واحاط خبرا بأحكام واجتهاد فى مسائل الحلال والحرام واتقان على تطبيقها مستنبطا فروعها من اصولها وقد استجازنى منا ان يروى عنا ما نرويه نحن عن علمائنا الأعلام واساتذتنا الكرام فأجزناه إجازة علمية بقضاء لحقهم واعترافا بعلمه وفضله مؤكدين عليه وعلى انفسنا مهما امكن العمل بالاحتياط وتجنب طريق التفريط والافراط سائلين من الله تعالى ان يوفقه للاستقامة والهداية كما هو شأن اهل له وان يوفق المؤمنين للاخذ بحبل الله المتين والتمسك بعروته الوثقى فى الأحكام الشرعية والحمد لله رب العالمين

صورة زنكغرافية لسند التصديق الصادر من آية الله الفيروزآبادى فى سنة ١٣٤٥هجـ

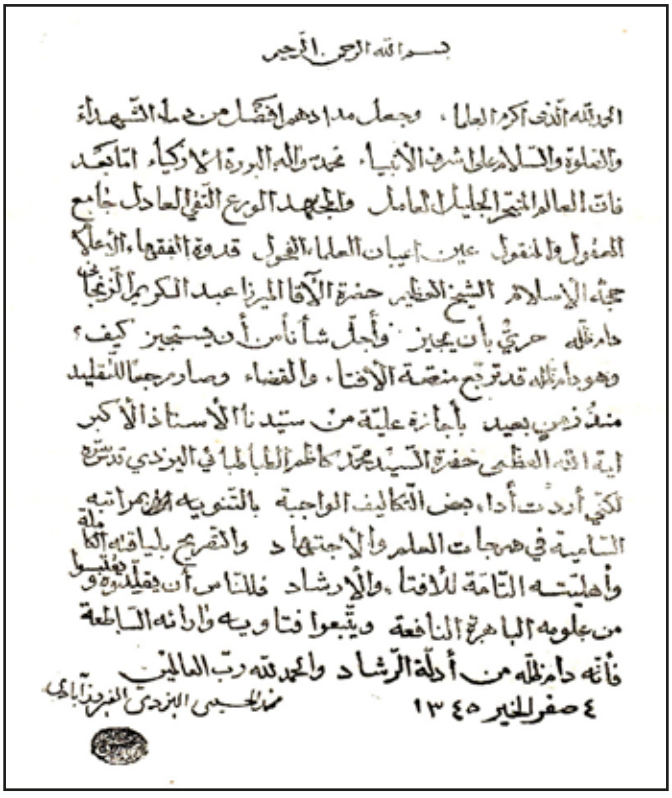

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم العلماء وجعل مداد هم أفضل من دماء الشهداء والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء محمد وآله البررة الأذكياء أما بعد فإن العالم المتبحر الجليل العامل والمجتهد الورع التقي العادل جامع المعقول والمنقول عين أعيان العلماء الفحول قدوة الفقهاء الأعلام حجة الإسلام الشيخ الأطهر حضرة الآقا الميرزا عبد الكريم الزنجاني دام ظله حري بأن يجاز وأجل شأناً من أن يستجاز كيف وهو دام ظله قد تربع منصة الإفتاء والقضاء وصار مرجعاً للتقليد منذ زمن بعيد بإجازة عالية من سيدنا الأستاذ الأكبر آية الله العظمى حضرة السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي قدس سره لكني أردت أداء بعض التكاليف الواجبة بالتنويه بمراتبه العالية السامية في هجرات العلم والاجتهاد والتصريح بلياقته الكاملة وأهليته التامة للإفتاء والإرشاد فللناس أن يقلدوه ويقتبسوا من علومه الباهرة النافعة ويتبعوا فتاويه وآرائه الساطعة فإنه دام ظله من أدلة الرشاد والحمد لله رب العالمين

٤ صفر الخير ١٣٤٥

محمد الحسيني اليزدي الفيروزآبادي

نماذج من خطه الشريف

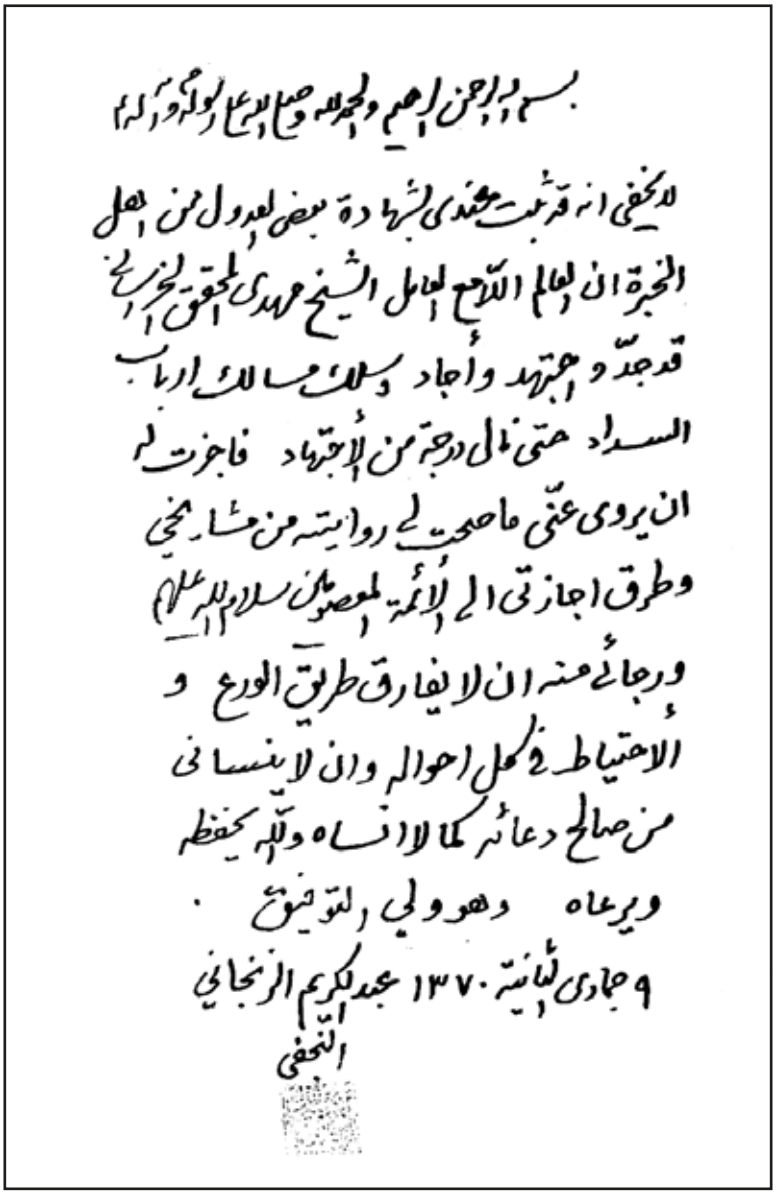

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله وصلى الله على رسوله وآله

لا يخفى انه قد ثبت عندي بشهادة بعض العدول من أهل الخبرة ان العالم الأجل العامل الشيخ مهدي المحقق الخراساني قد جدّ و اجتهد و أجاد وسلك مسالك ارباب السداد حتى نال درجة من الاجتهاد فاجزت له ان يروي عنّي ما صحت لي روايته من مشايخي وطرق اجازتي الى الأئمة المعصومين سلام الله عليهم ورجائي منه ان لا يفارق طريق الورع و الاحتياط في كل احواله وان لا ينساني من صالح دعائه كما لا انساه والله يحفظه ويرعاه وهو ولي التوفيق.

٩ جمادى الثانية ١٣٧٠ عبد الكريم الزنجاني

النجفي

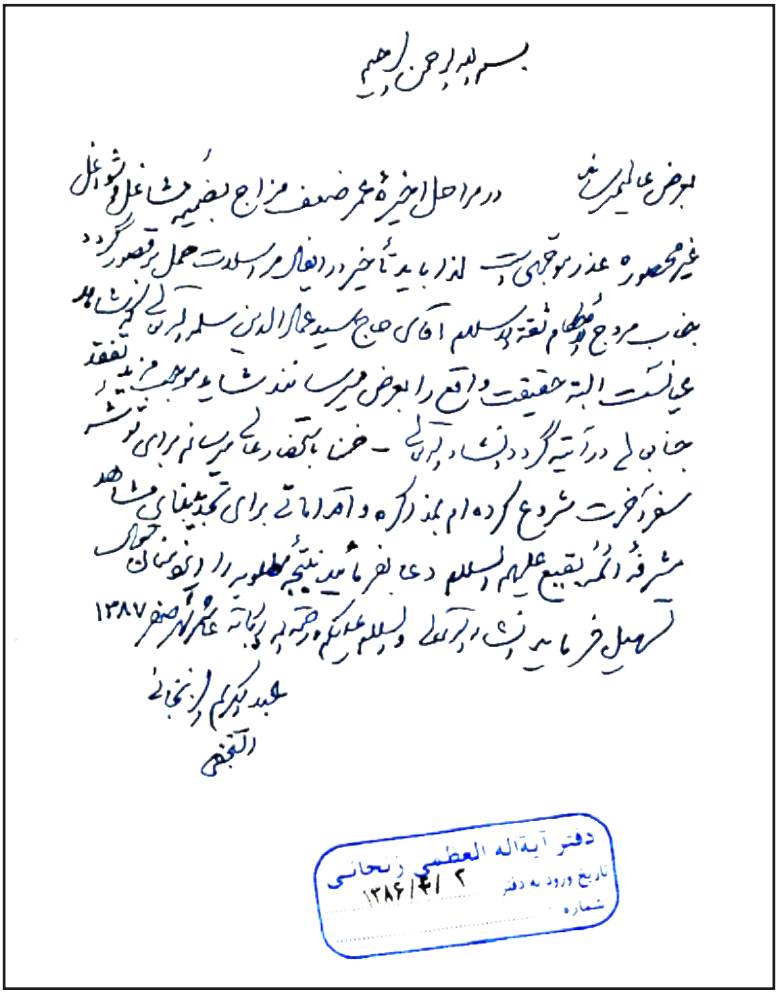

بسم الله الرحمن الرحیم

بعرض عالی می‌رساند، در مراحل اخیره عمر، ضعف مزاج بضمیمه مشاغل و شواغل غیرمحصوره، عذر موجهی است، لذا باید تأخیر در ایفاد مراسلات، حمل بر قصور گردد. جناب مروج الاحکام و ثقة الاسلام آقای حاج سیدعماد الدین – سلمه الله تعالی– که شاهد عیانست، البته حقیقت واقع را بعرض می‌رسانند شاید موجب مزید تفقد جنابعالی در آتیه گردد – انشاء الله تعالی–. ضمناً به استحضارعالی می‌رسانم برای توشه سفر آخرت شروع کرده‌ام به مذاکره و اقداماتی برای تجدید بنای مشاهد مشرفه ائمه بقیع – علیهم السلام– دعا بفرمائید نتیجه مطلوبه را ایزد منان متعال تسهیل فرماید انشاء الله تعالی

و السلام علیکم و رحمه الله و برکاته– عاشر شهر صفر ۱۳۸۷ – عبدالکریم الزنجانی النجفی

دفتر آیة‌الله العظمی زنجانی
تاریخ ورود به دفتر ۱۳۸۶/۱۱/۲
شماره

رسالة الشیخ الی آیة الله السید عزالدین الحسینی الزنجانی

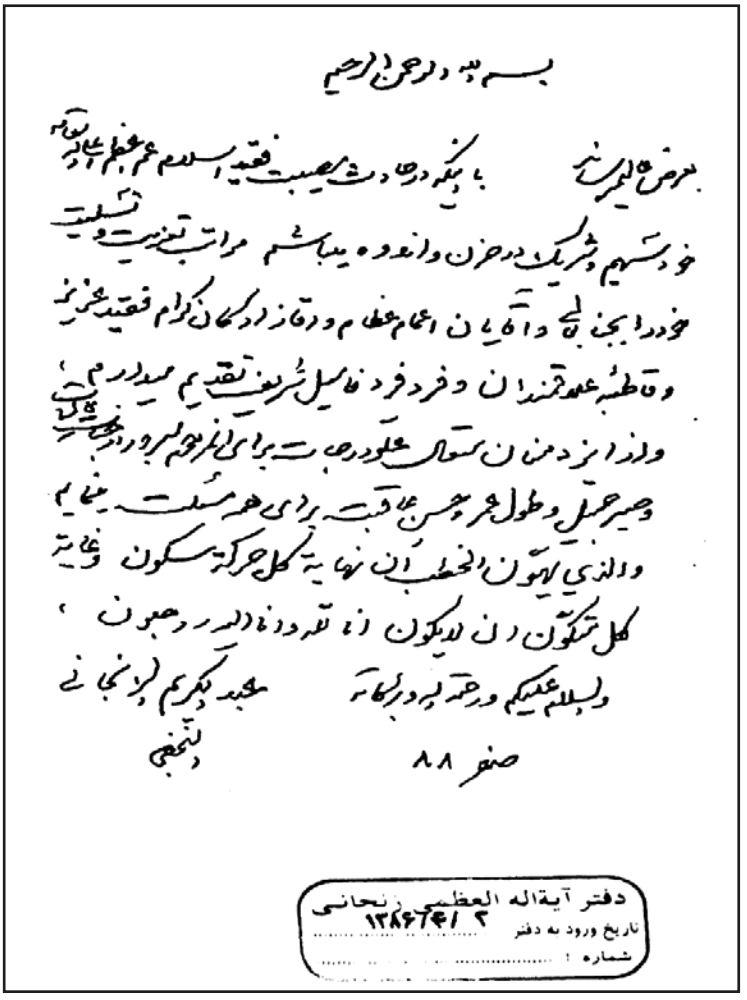

رسالة اخری الی آیة الله السید الزنجانی

بسم الله الرحمن الرحیم

بعرض عالی می رساند با این که در حادث مصیبت فقیدالاسلام عمّ اعظم – اعلی الله مقامه– خود سهیم و شریک در حزن و اندوه می‌باشم مراتب تعزیت و تسلیت خود را به جنابعالی و آقایان اعمام عظام و آقازادگان کرام فقید عزیز و قاطبه علاقمندان و فرد فرد فامیل شریف تقدیم می‌دارم و از ایزد منان متعال علو درجات برای آن مرحوم مبرور درجنات عالیات، و صبرجمیل و طول عمر و حسن عاقبت برای همه مسئلت می‌نمایم.
و الذی یهون الخطب ان نهایة کل حرکة سکون و غایة کل متکون أن لایکون انا لله وانا الیه راجعون

و السلام علیکم و رحمة الله و برکاته صفر۸۸ ، عبدالکریم الزنجانی النجفی

مولد الشيخ فی باروت آغاجی ١٣٩٠هـ ش

قرية باروت آغاجی ١٣٩٠ هـ ش

صورة الشيخ المنصوبة فى مسجد القرية

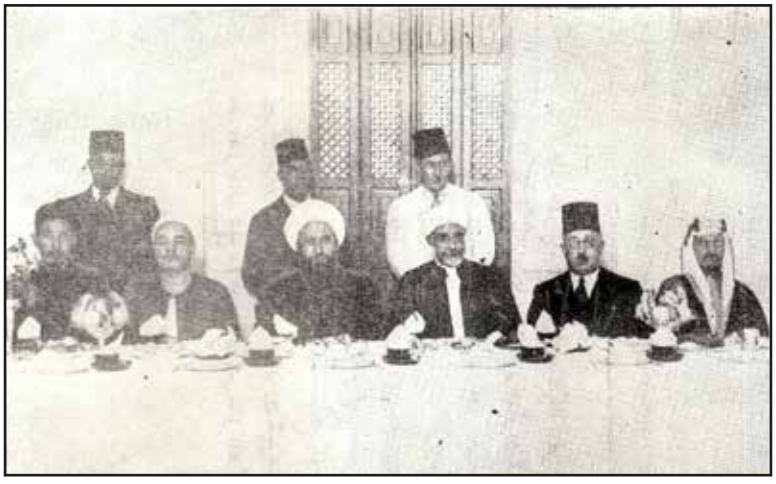

۲ شعبان المعظم –۱۳۵۵ یتصدر الشیخ المائدة ضمن احتفال جامع الازهر به، علی یساره محمد مصطفی المراغی شیخ الازهر، فوزیرالمعارف، فالشیخ فوزان الوزیر المفوض للممکة السعودیة بمصر، و علی یمینه رئیس المحاکم الشرعیة المصریة، فالشیخ عبدالرحیم ماسونتین مندوب مسلمی الصین ثم المفتی الاعظم و رئیس الجامعة المصریة الاسبق الشیخ عبدالمجید سلیم.

المفوضیة العراقیة فی القاهرة (السید عبدالقادر الکیلانی) و علی یسار الشیخ، وزیر ایران المفوض و الوزراء المفوضون للحکومات الاسلامیة حین الخروج من الحفلة التکریمیة التی اقیمت لسماحة الشیخ (جریدة الاهرام،۸/ نوفمبر/ ۱۹۳۶) من الحاضرین فی الحفلة، مفتی الدیار المصریة و الشیخ عبدالمجید اللبان شیخ کلیة اصول الدین و شیخ فتح الله سلیمان رئیس المحاکم الشرعیة و السید محمد البیلاوی و الشیخ عبدالوهاب نجار و وزیر ترکیا المفوض.

الامام الزنجانی و العلامه شرف الدین العاملی

یصلی الزنجانی علی المرحوم السید محمدعلی آل ثابت

٢٢ شعبان ١٣٥٥ جمعية الهداية الاسلامية فى دار جمعية العامرة- مصر

عشرات الوف من المسلمين اقتدوا بسماحته فى صحن ابى عبدالله الحسين ع فى كربلاء المشرفة

١٢ شوال ١٣٥٥ق دمشق، مع زعماء دمشق و شباب محمد ص يحاولون الانضمام بموكب الشيخ حين توجهه الى الجامع الاموى لإلقاء خطبته التاريخية

سماحة الامام المصلح الشيخ عبدالكريم الزنجانى كبير علماء الشيعة و الى يساره زعيم مسلمى الصين السيد عبدالرحيم ماسونتين اثناء الحفلة التكريمية التى اقامتها لسماحته رابطة الشباب العربى بالقاهرة و ترى اعضاء الرابطة محيطين بفضيلة المحتفى به.

(جريدة « المصرى»، ١١رمضان ١٣٥٥ هـ- ٢٥ نوفمبر١٩٣٦م

فاش گویم بتو حرفے کہ مدار ہمہ کس
اقبال اور علامہ شیخ زنجانی
(وحی والہام اور برہان امامت)
اکبر حیدری کشمیری

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
(۱)
وحی و الہام
(۲)
برہانِ امامت
محاضرہ
حضرت حجۃ الاسلام آیۃ اللہ فی الانام سرکار شریعتمدار
میرزا عبدالکریم زنجانی مجتہد مسائل اللہ و حجۃ الاسلام
مرتبہ
سید حسن جعفری مولوی فاضل
بامر سرکار
علمت مدارجہات باسبیل الرشد والحسنیٰ
جناب مستطاب نواب مشیر الملک صاحب قبلہ دام اقبالہ
باہتمام میاں فیروز الدین پرنٹر علی پریس لاہور میں چھپا

لہ الحمد ولہ الشکر بآلائہ

موضوعات ہمہ فلسفی، اجتماعی، دینی و مذہبی کہ از حضور مجتہد اکبر و اعلم و فیلسوف اعظم اسلام سرکار میرزا عبدالکریم زنجانی نجفی سوال نمودہ شد سائل ڈاکٹر سر محمد اقبال بود من کہ در آن مجلس حاضر بودم جوابہائے سرکار مجتہد اعظم موصوف را کہ سہ ساعت وقت را مستغرق شد بقدر مقدور ضبط نمودم دوتا ازاں جوابہا را کہ یکے متعلق بوحی و الہام و دیگرے متعلق بہ برہان عقلی اما تست چونکہ دینی و مذہبی است فعلاً نشر می نمایم برائے تعمیم نفع باقی را نیز ہرگاہ توفیق مساعد شود نشر خواہم نمود۔

سید حسن جعفری

نواب پلیس۔ ایبٹ روڈ۔ لاہور

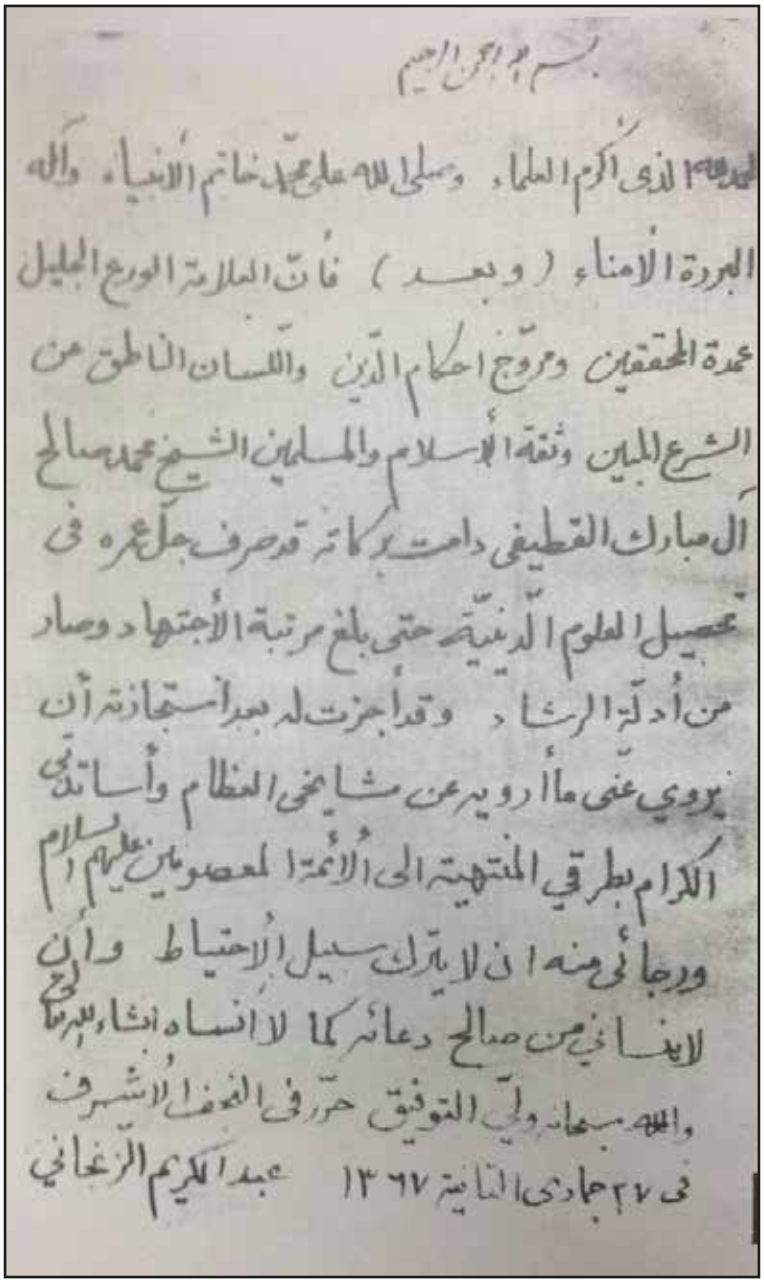

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم العلماء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، وآله البررة الأمناء (وبعد) فإن العلامة الورع الجليل عمدة المحققين ومروج أحكام الدين واللسان الناطق من الشرع المبين وثقة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد صالح آل مبارك القطيفي دامت بركاته قد صرف جل عمره في تحصيل العلوم الدينية حتى بلغ مرتبة الاجتهاد وصار من أدلة الرشاد وقد أجزت له بعد استجازته أن يروي عني ما أرويه عن مشايخي العظام وأساتذتي الكرام بطرقي المنتهية الى الأئمة المعصومين عليهم السلام ورجائي منه ان لا يترك سبيل الاحتياط وأن لا ينساني من صالح دعائه كما لا أنساه إن شاء الله تعالى والله سبحانه ولي التوفيق حرر في النجف الأشرف في ٢٧ جمادى الثانية ١٣٦٧ عبد الكريم الزنجاني